

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عمر أبوريشة

شاعر أمة... إطلالة وقطوف

وقصائد لم تنشر سابقًا
دراسة انطباعية

مصطفى عكرمة



عمر أبوريشة

شاعر أمة... إطلالة وقطوف

وقصائد لم تنشر سابقًا

دراسة انطباعية

مصطفى عكرمة

الكويت

2014

التدقيق الطباعي

محمود إبراهيم البجالي

الصف والتنفيذ

أحمد متولي

أحمد جاسم **علاء محمود**

الإخراج وتصميم الغلاف

محمد العلي

صدر هذا الكتاب بمناسبة مهرجان ربيع الشعر (الموسم السابع)
لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
مارس ٢٠١٤م



هاتف: ٢٢٤٣٠٥١٤ ٩٦٥ +
فاكس: ٢٢٤٥٥٠٣٩ ٩٦٥ +
E-mail: kw@albabtainprize.org

تصدير

هذا الكتاب الذي بين أيدينا من أهم الكتب التي تناولت الشاعر العربي عمر أبوريشة، وتأتي هذه الأهمية من أمور عدة؛ منها أن مؤلف الكتاب الأستاذ مصطفى عكرمة كان صديقًا للشاعر ومن المقربين إليه، لازمه في كثير من سنوات عمره، عرف عنه ما لم يعرفه الآخرون، مما مكنه من تناول بعض التفاصيل الحياتية والأسرية للشاعر، وتفاصيل علاقاته مع كثير من الشعراء والأدباء في وطنه الأم سورية وبعض الأقطار العربية وغير العربية.

والأمر الآخر الذي أعطى الكتاب أهمية واضحة هو تعدد موضوعاته وتنوعها، فهو زاخر بالمعلومات المهمة والتي تدون للمرة الأولى في كثير منها.

والأمر الثالث وهو الذي يشكل إضافة نوعية للكتاب ويعطيه قيمة خاصة، أن مؤلفه خصص الجزء الأخير منه لمختارات شعرية مميزة، فبعضها احتوى على أبيات شعرية كانت قد حذفت وقتها من بعض قصائده، ولم تضمها القصائد المنشورة في دواوينه الشعرية، كما ذكر ذلك مؤلف الكتاب في تعليقه عليها.

أما الشاعر عمر أبوريشة (١٩١٠ - ١٩٩٠) نفسه فقد كان من حسن حظه أن عاش في العصر الذهبي للشعر العربي المعاصر الذي شهد بروز شعراء كبار وفي مقدمتهم أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وخليل مطران ومحمد مهدي الجواهري ونزار قباني وأحمد الصافي النجفي والقائمة تطول ولا مجال هنا لذكر المزيد من هؤلاء العمالقة..

وقد استطاع أبوريشة أن يخطّ له طريقًا معبّدًا ومميزًا في إبداعه الشعري من حيث الموضوعات التي نظم فيها والأسلوب التجديدي في صوره الشعرية، ورغم ذلك فإنه لم يخرج بشكل عام عن أصول القصيدة العربية، إذ ظل محافظًا على وحدتها وتسلسل أبياتها، والتي كثيرًا ما جاءت بصورة درامية أو قصصية حوارية.

لقد أفاد أبوريشة كثيرًا من إقامته في كثير من الأقطار حيث اطلع على المدنية والحضارة الشرقية كما اطلع على المدنية والحضارة الغربية من خلال عمله كسفير لبلده سورية فترة طولة، فاقتطف كثيرًا من جنى هذه الحضارة والمدنيات وأسقطها في مضامين أبياته وقصائده.

ونحن في مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري وبمناسبة عقد ندوة أدبيه عن الشاعر عمر أبوريشة ضمن فعاليات مهرجان ربيع الشعر العربي السابع مارس ٢٠١٤ يسعدنا أن نصدر هذا الكتاب (عمر أبوريشة شاعر أمة.. إطلالة وقطوف وقصائد لم تنشر سابقًا.. دراسة انطباعية) للأستاذ مصطفى عكرمة، آملين أن يكون في إصداره وفي بقية الإصدارات الأخرى ما يفيد القارئ والباحث والمهتم وينفعهم.

وختامًا؛ نشكر الأستاذ مصطفى عكرمة على هذا الجهد الطيب الذي بذله في تأليف الكتاب وعلى هذه المعلومات الوافرة المفيدة والمهمة لمحبي ومتذوقي شعر عمر أبي ريشة.

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في ١٠ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ

الموافق ١١ من يناير ٢٠١٤م

****

الإهـــداء

إلى عمر أبوريشة مجددًا رائدًا وفاء

لشاعريته الفذة، ووفاء لذكراه وذكرياتي معه.

وإلى كل من أحب هذا الشعر وآمن به رسالة بانية..

مصطفى

****

كتابي عنوان

العنوان أحبُّه كلمة..

وأجمله كلمتان..

وأطوله ثلاث..

ولا أستسيغه أكثر..

وكتابي هذا يمكن أن أقول عنه بعد ما تبينت آراء دارسي عمر وعارفيه إنه بمثابة عنوان لما يمكن أن يقال في شعر «عمر أبوريشة».

ولئن كانت الكلمات تقف عاجزة عن الإحاطة الكاملة بأحاسيس النفس العميقة إلا أنها - وفي حدود طاقاتها الروحية، وقدرتها على الاكتناه تقرّب المرء من إدراك تلك الأحاسيس - أو.. تكاد..

هذه الأحاسيس أعمق ما تكون شعرًا، ولا سيما إذا كان الشعر عبقريًّا مثقفًا.. رائدًا.. مسؤولًا..

وهذا بعض ما في شعر عمر..

وأنا في كتابي هذا متهم.. أجل.. إنني متهم..

لكن أمام نفسي أولًا.. و.. لكن.. بالقصور[1].

---

(١) أثبت هذه الصفحة التي كتبتها قبل ما يزيد على ثلث قرن، وقد اطلع عليها عمر، ولم أشأ بعد رحيله أن أغير فيها شيئًا، فليعذرني من لم يجد فيها ما رأيته منذ ذلك العهد.

قصة هذا الكتاب

فجَّر اهتمامي بهذه الدراسة ما كنت أطالعه من هجوم على شاعر لم أكن أعرف عنه إلا الأقل من القليل، وكان ذلك في أوائل السبعينيات، وسرعان ما تبين لي أنها مقالات أقل ما يقال فيها أنها - غير منصفة - وعكفت على ما توفر لي عنه بعد الجهد، فإذا بعمر يصبح شاعري الأثير، وبدأت رحلتي الطويلة معه..

وأذكر أنني حينما وضعت كرّاسًا صغيرًا عن عمر ذهبت إليه في بيروت وأطلعته عليه وكانت المعرفة الأولى.. وابتدأت الرحلة، وأصبح عمر وشعر عمر هاجسي الأول وشغلي الأدبي الشاغل..

وبدأت نشر مقالاتي ومحاضراتي عنه، وكان منها ما جاء في العدد الممتاز من مجلة العربي الكويتية سنة ١٩٧٨م وتتالت إلى أن بلغت إحدى عشرة مقالة كان آخرها يوم رحلته الأخيرة، إلى عالم الغيب والشهادة مغفورًا له، وكانت في مناحي مختلفة من شعره.

وفترت الهمّة، لكن جذوتها لم تنطفئ، وكلما رجعت إلى ما كتبت وكتب عنه وما آل إليه أمر شعره بعد رحيله شعرت بالآسى العميق لتقصير هذه الأمة بحق شاعرها الكبير.

وشاء الله أن تتوفر لدي فرصة العودة إلى ما كتبت وإلى بعض ما كتب فوقع اجتهادي على ما هو الآن بين يدي القراء الكرام..

قد يجد فيها من يجد المبالغة في محبته والاهتمام بشعره، وقد يجد من يجد أنني قصرت في ذلك.. لذلك فقد أسميت هذه الأسطر «إطلالة» أما القطوف فقد اخترتها مما أحسب أنه عملية انتقاء ومسح لستة عقود كانت هي عمر عطاءاته ليكون القارئ على معرفة ولو أولية عن شاعر تجمعنا محبته، وتنعقد جلساتنا معه على بعده عنا، وعلى بعد ديار من ستسعد هذه الإطلالة بالمثول بين يديه..

وأكرر عذري عن كل تقصير للناشر الفاضل، وللقراء الكرام، ولعبقرية عمر أولًا وآخرًا، وحسبي أن أنال أجر من اجتهد ولم يبلغ بعمله ما أراد، ولله وحده الكمال.

مصطفى

****

صورة عمر

يطيب جدًّا لكثير من القراء أن يضعهم الدراسون أمام «صورة مصدقة» عن الشاعر، وأن يروا خطّه، وما إلى ذلك مما يقرأوه عنه، وما يتمنون أن يتطابق ما رسموه له في أذهانهم مع تلك الصورة المصدقة.. وتجاوبًا مع رغبة من يودون ذلك أنقل هنا ما اجتمع للسيد الدكتور حيدر الغدير من صفات عمر الشخصية، وهذه الصفات أصبحت معلومة عند الباحثين جميعًا.

يقول د. الغدير في وصف عمر:

«طويلٌ بائن الطول، رشيقٌ أنيقٌ وسيم، يُحسِنُ الحديث ويحسن الاستماع، أنيسُ المحضر.. عفُّ اللسان (إلا عن المتشاعرين ومن وراءهم ممن يهرفون بما لا يعرفون)، كريم الطبع، يجيد عرض أفكاره بشكل منطقي مرتب، ولا بد أنّ للدبلوماسية أثرها في ذلك، وقد لا يُجادل دونها كثيرًا، لكنه يتمسك بأدب وإصرار، وقدرته على الحديث الطلي تذكرنا بقدته على الإلقاء، والفارق بينهما هو الفارق بين طبيعة الشعر والمحافل، وبين طبيعة النثر والمجالس، يطرب للدعابة ويلقيها على ندرة، مهذّبٌ يحترم جلساءه ويُشعرهم بودِّه والقرب منه».

«يمكن أن يقال إنّ مفتاح شخصيته هو الإباء والكبرياء، لذلك عاش عزيز النفس نزّاعًا إلى التمرد، غيورًا على الدِّين والأمة – ويحمد له أن رد للشعر كرامته، فقد أبى أن يكون الشاعر النديم فضلًا عن الشاعر المرتزق».

«عرف بالجرأة التي جعلته يتخذ مواقف شجاعة، الأمر الذي جعل مواقفه، وجعل شعره فيها حديث الناس الذين يتخطَّفونه ويحفظونه وينشدونه».

كثير الاعتزاز بعروبته وبنسبه العريق الذي يعود إلى قبيلة «طي».

أشهر ما اشتهر به جرأته على الحكام الذين لا يحترمون حق شعوبهم.

شديد الثقة بنفسه، وبشعره إلى درجة «الغرور» الذي لا يُنكره.

واسع الاطلاع، غني الثقافة، محب للحياة، مقبل عليها يسخو على نفسه ويحب المتع، ويحرص عليها، ومع أنه حاول الانتحار مرتين – كما يقول – أو فكر، لكنه كان يعود أكثر إقبالاً على الحياة وشغفًا بها، وفيٌّ لأصدقائه، يحب الصفوة من الناس، والتحدث بالأدب والسياسة، يحسن التخلص إذا أخلف موعده بشكل يرضي من أخلفَ معه.

شعرُه يترجم حياتَهُ وشخصُه يترجمُ شعره.

****

عمر في شعره

واضح كل الوضوح في جميع فصول هذا الكتاب ما يشيد بعمر وشعر عمر وعبقرية عمر، ليس هذا إلا من بعض ما قيل عنه كما بينا في أمكنته..

فإجماع الدارسين والنقاد الذين تعرضوا لشعره كان إجماعهم على تفوقه وإبداعه وتجديده مما لم يختلف عليه اثنان..

وإذا كان لي أن أضيف هنا فيمكن القول إنه شديد الإعجاب بكل ما هو منه حتى إنه قيل له: إنك مغرور، فأجاب على الفور: هذا ما أعتز به.

هيهات ثم هيهات أن تقرأ قصيدة له إلا ويثبت لك من خلالها شخصيته إن كان غاضبًا أو راضيًا، إنه كثير المديح لنفسه ولشعره..

ومما قد يفهم من هذا إخلاصه للحالة التي يكون عليها من فرح أو حزن ليقدم للفن أولاً، وللقراء والنقاد ثانيًا قدرته على إعطاء المناسبة حقها.

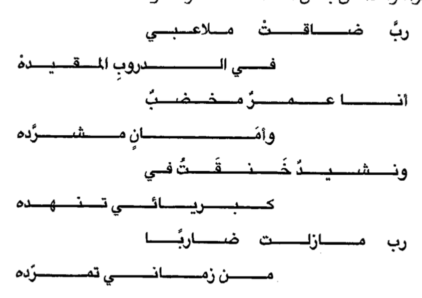
كان كثير الشكوى من زمانه وسساسة زمانه، وحتى من مجتمعه الذي يصور غربته فيه، ووحشته من أهله الذين لم يبذلوا جهدًا كما ينبغي له ولهم أن يبذلوه في سبيل إدراك مراميه.

كما كان يرحمه الله ويغفر له - كثير التذمّر إلى درجة إنكار شاعرية عدد كبير منهم، ولم يسلم من نقده أبوتمام ولا البحتري ولا المتنبي ولا شوقي وغيرهم ممن يعترف إنه تتلمذ على شعرهم، وبدأ حياته الشعرية بامتداحهم ونظم القصائد

المطولة لهم كقصيدته في المتنبي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وأحمد الصافي النجفي وغيرهم من هؤلاء الأفذاذ المبدعين في أزمنتهم فما بالكم بالطبقة الثالثة والرابعة من متشاعري اليوم.

وبالمناسبة فإنه لم ينشر هذه المدائح فيما نشر مؤخرًا من شعره في حياته، وهذا دليل على تنكيره لهذا النوع من الشعر وأهله حتى إنه لم يذكر فيما نشر مرثيته العجيبة في عشيقته الانكليزية (خاتمة الحب) التي سأثبتها هنا ليرى القارئ الكريم مدى تجني هذا الشاعر حتى على شعره الذي كان في زمانه متفوقًا فيه.

مديح عمر لنفسه ولشعره يغطي مساحة كبيرة من قصائده حتى وإن كانت في الرثاء.. وقبل أن نتوقف عند أمثلة منها أميل إلى التوقف لحظات عند ما قاله الدكتور سامي الدهان الذي عاشره وزامله فهو من حلب أيضًا فكان – فيما أعلم – أكثر المتحدثين عن عمر وشعره إلى جانب الدكتور حيدر الغدير الذي نال شهادة الدكتوراه في بحثه عن عمر، أما الثالث فهو الشاعر عبدالله يوركي حلاق زميله أيضًا.. يقول الدكتور الدهان في كتابه (الشعراء الأعلام في سورية) الذي سيرِدُ ذكره كثيرًا، وهذا من بعض امتداحه لنفسه وشكاواه..



صـــغـــر الـــيـــأس لـــن يـــرى

بـــين جـــفـــنـــيّ مـــقـــصـــده

بـــســـمـــاتـــي ســـخـــيّـــةٌ

وجـــراحـــي مـــضـــمـــده

أحسب أنه مبالغ هنا، فهو ضارب من زمانه تمرده، ومع هذه العزيمة وذلك الإصرار يرى أن دروبه مقيدة؟!

ويقول في هذا المعنى:

طـــال دربـــي وانـــتـــهـــى زادي لـــهُ

ومـــضـــى عـــمـــري عـــلـــى ظـــهـــر قـــصـــيـــدهْ

أرى أن انقضاء عمره على ظهر قصيدة هو السبب الذي جلعه (يتنكر) للكثير من شعره، فهو يمتطي ظهر القصيدة ليوجهها كيف يشاء، ولا يدعها تتحرك كما تشاء، وإذا سألناه هنا أين سيرتك ومواقفك ونضالك هل انتهت كلها على ظهر قصيدة؟ هذا كثير يا عمر.. إن لك تاريخًا حافلًا بالأمجاد والإبداع، فلا تظلم نفسك أولست أنت القائل:

وأرى الـــشـــتـــاء تـــطـــاولـــت أيـــامـــه

وازدادَ عـــســـفًـــا قـــلـــبُـــه الـــمـــتـــحـــجِّـــرُ

كـــم زارنـــي فـــكـــشـــفـــت عـــن صـــدري لـــهُ

فـــأقـــام لا يـــزهـــو ولا يـــتـــكـــبَّـــرُ

مـــا زلـــت أذكـــر كـــيـــف كـــان لـــهـــائـــهِ

مـــن دفء أضـــلاعـــي يـــذوبُ ويـــقـــطـــرُ

ثم ألست أنت القائل:

هـــذي الـــرُّبـــى كـــم ضـــاق فـــي فـــضـــاؤهـــا

مـــا لـــي عـــلـــى جـــنـــبـــاتـــهـــا أتـــعـــثَّـــرُ

وملاعبي ومجرّ أذيالي بها
بَعُدت فما ترقى إليه الأنسرُ

من كان هذا شأنه، وتلك عزيمته فليس له أن يتضجر ويشتكي ضيق الدروب، إنما شأنه أن يفتح للناس دروبًا معبدة ودروبا.

إنك لم تتعثر يا شاعري - كما تقول - وما قولك هذا عندي إلا تجوال في عوالم الشعر لتلتقط له ومنه صورًا عذرية بكرًا.

أولست أنت القائل في مجال النضال والجهاد:

فعلى الحادثاتِ أن تتوالى
وعلينا الوقوفُ بالمرصادِ!

شاعري.. يا أبا شافع.. يشهد لك عارفوك وهم كثر والحمد لله أنك لم تتعثر شاعرًا، ولم تتعثر إنسانًا، ولم تتعثر دبلوماسيًّا، وكنت المجلي في كل ساح كشفت صدرك فيه ورفعت رأسك شامخًا، وها أنت تلهب الجموع الهائلة بقولك: «أنا عمر أبوريشة» ولم تشأ أن يكتب اسمك إلا هكذا في جميع حالات إعرابه.

وبعد.. أحسب أن ما ذكرناه في هذا المجال فيه ما يقنع عن امتداح عمر لشعره.. نقطة أخيرة إنه كثير اللعب مع النجوم، ولعل ذكره للنجوم من أكثر ما جاء في شعره.. فشاعر لعب زمانًا مع النجوم ومرر عليها أذياله نرجو أن يشفع الله له ولنا معه.. ويغفر له ولنا كل ما يوجب ذلك فإنما نحن جميعًا بشر.

ولكي لا يظن القارئ أن هذا التضجّر وتلك الشكوى مما غلب على شعره فهو بالمقابل كثير التفاؤل.. حسبه أنه كان يصوّر الحالة الشعرية التي انبهر بها ليصوغها بأسلوبه العمري، وقد تساوى ذلك في مناحي شعره المتعددة.

جِـئـت الـحــيــاة فـمــا رأتــنــي زاهــدًا

فــي خـــوضِ غـمـرتـهـا، ولا مُــتــردِّدا

إنـــي فـرضـت عـلـى الـلـيـالـي مـلـعـبي

وأبــيــتُ أن أمــشــي عـلـيـه مُـقـيَّـدا

ومـضـيـتُ أنـتـعـل الـغَـمـامَ، وربـمــا

أشـفـقـتُ خـدَّ الـنـجـمِ أن يـتـجـعَّـدا!

ولابد لي هنا من أن أتوقف عند هذين البيتين اللذين هما من أوائل ما حفظته من شعره الذاتي، وقد أراني إياهما مكتوبين بخط يده تحت رسم له، وهما من أوائل شعره:

يــا فـــؤادي أمــا تــــزالُ كـئـيـبًـا

شـاكـيًـا بـاكـيًـا عـلـى غـيـر جـدوى

لا تـكـن ظـالمًــا فـإنـك إن مِـتْـ

ـتَ تـركـتَ الآلامَ مــن غـيـر مـأوى

وأحسب أنه وأقولها ثانية وإلى مالا نهاية – يرحمه الله ويغفر له – قد أسرف في هذا الباب وفاق ربما (المتنبي) لكن بأدب ودقة وتصوير..

****

عمر أبوريشة
والأعلامُ المعاصرون

لعل أبرز أعلام الشعر العربي من الذين كانوا معاصرين للشاعر عمر أبوريشة هم – فيما أرى – الأساتذة:

- أحمد الصافي النجفي
- محمد سليمان الأحمد «بدوي الجبل»
- محمد مهدي الجواهري

وربما كان من حسن حظ الشعر العربي وأجيال أمتنا المتعاقبة أن يكون لكل واحد من هؤلاء الأعلام شخصيته المتميزة التي أنتجت لنا ذلك الشعر المتميز كل عنه سواه، وهذا أمر طبيعي نظرًا لنشأة كل منهم ومراجعه وثقافته ومراميه.

فالشاعر «الصافي» يستلهم مادته من واقع حياته التي عاشها مع الناس من حوله، وهو شاعر حياته بكل ما فيها من وقائع وتفصيلات وجزئيات ومعطيات ما تنافر منها وما اتسق، إنه في الكثير من شعره صحافي يحمل آلة تصويره التي لا تفارقه حتى في تصوير «البراغيث» فهو لم يَحِدْ يومًا عن فطرته المفرطة في تحسسها، وفي نظره الذاتية المحدودة مع ما حوله في كثير من الأحيان من دون تأنق ملحوظ في عرضه إلا ما ندر، ولعل هذا يرجع إلى تمكنه من اللغة ومن سعة قاموسه اللفظي والشعري، فالمشهد والفكرة عنده هما الأهمَّان في غالب الأحيان

في إعمال شاعريته، ولعله لا يعود - فيما أرى - إلى ما كتب، وكان يثبت في دواوينه البيت الوحد، أو البيتين لأن ذلك يشكل عنده لحظة معاناة، أو تثير ملاحظة أنية عاجلة سجلها ببيتٍ أو بيتين، وإنك لتسمع منه في الموضوع نفسه أكثر من قصيدة، وقد تتوالى القصيدتان، أو أكثر من ذلك في وصف البلبل مثلًا أو الشحاذين، أو وصف ثيابه أو غرفته التي هي أشبه ما تكون بالكهف، أو حتى جلسائه مع من يحب أو مع من لا يحب، إلى ما سوى ذلك من موضوعات عادية ألصق ما تكون بالشخصية التي لا تثير انتباه غيره، أو بمعنى أدق لم يعرها غيره من الشعراء هذا الاهتمام الذي صرف له الصافي جل اهتمامه حتى تميز به، ودواوينه التي تقرب من عشرين ديوانًا وكلها متخمة بالشعر إذا قلبت صفحاتها فإنك ترى أن صفحاتها تعج بتلك الموضوعات العادية البسيطة التي ألبسها من أثواب طرافته ما يجعلك تؤكد معي أنك لن تراها في دواوين غيره - والنادر طبعًا لا قياس عليه - ولعلنا لا نبالغ ولن ندخل في جدال إذا قلنا إنه من أغزر شعراء العربية، وربما غير العربية في عطائه الشعري والذي هو صدى الحياة وصورتها الناطقة، ولو أنه زاد من تأنقه في شعره - كما فعل في بعضه - لكان من هذه الشاعرية المرهفة شاعر آخر نزداد به فخرًا واعتزازًا.. رحم الله هذا «الصافي» ونفع أجيال العربية بما أورثها من عطاء.

وقبل أن أغادر هذا الصافي وصفاءه أذكر أنه حفظني هذين البيتين اللذين ربما يعبران عن شعره تعبيرًا صادقًا:

إذا جـــاء الــكـــلام فـــخـــذه عـفـوًا
إلـــى مـــا تـشـتـهـيـه مـــن المـعـانـــي
ولا تـــكـــرِهْ بـيـانــك إن تَـــأبَّـــى
فـــلا إكـــــراه فـــي ديـــــن الـــبـيـــانِ

أما البدوي - وأعني بدوي الجبل - محمد سليمان الأحمد فهو صاحب الديباجة المشرقة الزاهية بنسيجها البديع العجيب، وبنائها القوي المتين بالكلمات الناغمة الأنيقة الرقيقة المترفة بعذوبة موسيقاها في إطار رفيف موغل في الجاذبية حتى لتحسب أن همّه وغايته من أبيات قصيدته ما ذهبنا إليه، فهو حينما يتأنق في صياغة أبياته تكاد تنسى ما قرأت من الشعر الأنيق إلى درجة يمكنك أن تقدم وتؤخر في موضع أبيات قصيدته على العكس مما في تكامل مطولات عمر أبوريشة المحكمة في ترابط أبياتها وتماسكه.

نشأ بدوي الجبل في منطقة رائعة الجمال اللذي قل نظيره على الأرض في إحدى قرى منطقة الحفة من اللاذقية في بيئة جبلية تحتفظ بالكنوز المخبأة من الشعر الذي تختص به، ويكاد يكون ملزمًا بحفظه كل من أوتي مقدرة على الحفظ فهو ذو شأن غاية في الأهمية، والد شاعرنا بدوي الجبل هو الشيخ الشاعر سليمان الأحمد الذي أصبح لتمكنه من اللغة العربية عضوًا في مجمعها اللغوي فهو من أشهر مشايخ تلك الجبال التي كانت شبه منعزلة، لكنها منكبة على الاهتمام بذلك الشعر، تلك الجبال الغنية بجمال طبيعتها، ووفرة خبراتها، وعذوبة مائها وكثرة مزاراتها التي وصلت إلى حد القداسة، فهو بذلك الشعر، تلك الجبال الغنية بجمال طبيعتها، ووفرة خيراتها، وعذوبة مائها وكثرة مزاراتها التي وصلت إلى حد القداسة، فهو بذلك ولذلك - فيما أرى - شاعر الديباجة الأول - فكان شعره صدى ذلك كله، وما إخال العربية مع إيماني المطلق بخلودها وعظمة نبغائها تحظى بديباجة أحلى، ولا نسيج أمتن، ولا موسيقية أعذب مما حظيت به على يد هذا الشاعر الكبير، ومن المفيد أن نذكر أن أخاه الدكتور أحمد هو شاعر مجيد وكذلك أخته «فتاة غسان».

وتعال الآن قارئي الكريم نستروح قليلًا عند بعض أبياته، وعلى مذهب شاعرنا عمر أبوريشة في قوله:

«بعض الربيع ببعض العطر يُختصر»

يا سامرَ الحيِّ هل تعنيكَ شكوانا
رقَّ الحديدُ وما رقُّوا لِبلوانا

☆☆☆☆

جلونا الفاتحين فلا غُدوًّا
ترى للفاتحينَ ولا رَواحا
إذا انقصفت أسنَّتُنا وصلنا
بأيدي الأسنَّة والرِّماحا

☆☆☆☆

يا من سقانا كؤوس الهجر مترعةً
بكى بساط الهوى لما طويناهُ
تسائلينَ عن الخمسين ما فعلتْ
يبلى الشبابُ ولا تبلى مزاياه
في القلب كنزُ حنانٍ لا نفادَ لهُ
يعطي ويزداد ما ازدادتْ عطاياه
حسب الأحبة ذلًّا عار غدرهمو
وحَسْبُنا عزّةً أنا غفرناه

☆☆☆☆

رفعتني بجناحي قدرة وهوًى
لعالم من رؤى عينيك مسحورِ
تعبُ من حسنه عيني فإن سكرتْ
أغفت على سندسيٍّ من أساطيرِ
أخادع النومَ إشفاقًا على حلُم
حان على الشفة اللمياء مخمورِ

وزار طيفك أجفاني فعطرها

يا للطيوفِ الغريرات المعاطيرِ

تندى البراءة فيه فهو منسكبٌ

من لغو طفلٍ، ومن تغريد عصفورِ

ومما قاله في غزلياته:

هَذهْ همومَك عندي

على حيائي وصدي

شقراء يا لون حسن

محبَّبٍ مستبدً

ويا جمالاً غريبًا

على ظباء معدً

لا وشمَ ليلاي فيه

ولا ملامح هندِ

ويقول عن حفيده وسميه محمد وهو في غربته:

يزفُّ لنا الأعيادَ، عيدًا إذا مشى

وعيدًا إذا ناغى، وعيدًا إذا حبَا

فَياربِّ صُنْ ضحكةَ الأطفال إنها

إذا غردتْ في جادب الرملِ أعْشَبا

وياربِّ من أجل الطفولةِ وحدَها

أفضْ بركاتِ السِّلم شرقًا ومغربا

وقد وصفه صديقه عمر أبوريشة بـ«الشاعر العملاق».. وأحسب أنك قارئي قد رأيت ما أرى من حسن ديباجة هذا «البدوي» ورونق صياغته.

أما ما نشر من موضوعات البدوي إذا ما قورنت بموضوعات غيره من الشعراء فإننا نراها قليلة، فهي تكاد تكون محصورة بالغزل والحنين والفخر

والسياسة والمناجاة الإلهية الصافية، في حين نجد في شعره ما لا يليق بابن عالم ديني أن يكون في شعره الذي نجد فيه الشطحات التي تتنافى مع التوحيد الخالص «كخالقة» مثلًا و«تحدي القدر» في مواضع كثيرة.. وقصائده المطولات لا تخلو من التوشية الرائعة مسهبًا في مجلة جيش الشعب عن شعر الحزن فقط عند هذا البدوي الذي رد جذور حزنه إلى تلك المرويات المخبأة، ومن يتتبع شعر البدوي يلاحظ أن شعر الحزن يواكب شعر الفخر جودة وجمالاً وحيوية متدفقة، وهذه سمات بارزة فيما وصل إلينا من شعره المتداول والذي أصبح من الندرة بمكان لقلة المعروف منه، وهذا القليل وَقْفٌ على من تمكن من الحصول عليه لندرته كما قلت، ولعدم إعادة طباعة ديوانه الضخم منذ عشرات السنين إلا لمرة واحدة، وبعدد أقل بكثير من الذين يودون اقتناءه سعيدين بذلك ومفاخرين.

أما الجواهري فأحسب أنني لا أخطئ إذا قلت: إن الجواهري شاعر المطولات الأول في عصرنا، وربما في غير عصرنا إذا اعتبرنا أن الأمر نسبي، إن الموضوع الذي تظن أنه سيكتفي شاعرك الجواهري منه بأبيات معدودات تكفيه - كما عند عمر أبوريشة مثلاً - ترى الجواهري يغوص في أبعاده التي ينطلق بها خياله الخصب، ويظل يتابع ويلاحق جزئياته ليستخرج كما ما في القواميس مما يصلح رويًّا لقصيدته، وربما تجد أنه افتعل بيتًا مضافًا أو أكثر ليثبت لك ذلك الروي، أما موضوعاته فهي في الغالب مما سبقه إليها الأقدمون لا سيما ما كان منها من مدائح تنتظم قسطًا وافرًا من دواوينه الضخمة، إذ أنه أبرز الشعراء في هذا المجال.

وإنك لتقف مشدوهًا أمام تلك الصياغة المحكمة لقصائده، بالغًا ما بلغت أطوالها، وتكاد تنسى ما كنت قد قرأته حول الفكرة نفسها لشاعر آخر مع اهتمامه الشديد بمطالع قصائده التي تشد القارئ بجمالها وروعتها وسبكها «الجوهري».

ولنقف قليلًا عند بعض هذه المطالع التي تذكرك ببعض مطالع الشاعر الأخطل الصغير إذ يفاجئك بدخوله في الموضوع من غير مقدمات كما كان يفعل

الأقدمون من وقوف على الأطلال، أو ذكر المتاعب التي يبالغ الشاعر في وصف معاناته حتى يتم له الوصول إلى ممدوحه، وغير ذلك من نسيب.

يقول الجوهري مادحًا:

ما كنتُ أعلم أن مدحَك مقصدي

حتى تساقطتِ النجومُ على يدي

☆☆☆☆

أكبرت يومك أن يكون رثاءً

الخالدونَ عهدتهمْ أحياء

☆☆☆☆

طفْ بالمعرّةِ وامسح خدَّها التُّربا

وناجِ من طوّق الدنيا بما وهَبا

☆☆☆☆

ترنَّحتْ من شكاة بعدك الدارُ

وهَبَّ بالغضبِ الخلّاق إعصارُ

كما ترى مثل هذا في بعض مطالع الأخطل ودخوله المفاجئ في موضوعه يقول:

نفيتُ عنكَ العلا والظَّرفَ والأدبا

وإن خلقتَ لها إن لم تزرْ حلبَا

☆☆☆☆

قالوا دهت مصرَ دهياءٌ فقلت لهم

هل غُيّضَ النيلُ، أم هل زُلزلَ الهرمُ

قالوا أشدُّ وأدهى، قلتُ: ويحكمو

إذن لقد مات سعدُ وانطوى العلمُ

أما ترى الشعر يعلو وجهَهُ الخجلُ

يا نجدُ عفوكِ أنت الفخرُ والغزلُ

يبكي ويضحك لا حزنًا، ولا فرحًا
كعاشقٍ خطّ سطرًا في الهوى ومحا

إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره هنا.

وإن قارئ الجواهري لواجد أن أفكاره ومعانيه متوافرة لدى الكثير ممن سبقوه، إلا أنك لن تجدها على هذا النحو من أناقة في الصياغة وإحكام في النسج ومتابعة في إظهار الغرض مهما بلغت عنده القصيدة، فهي رغم طولها وأيًّا كان موضوعها فإنك تراه يستجلب بثقافته الشعرية ما يجعل قصائده متماسكة منسجمة متراصّة، فهي ليست عنده (فيللاً) ذات ديكور متقن بطابقيَّة فحسب، إنما قصيدته بناء شامخ متعدد الطوابق كثير الشرفات، إنه بنّاء محترف، وحريص كل الحرص على أن يقنعك بما يشك أنك بحاجة إلى إقناعه به وإن كان تقليديًّا محضًا.

أتراك تتفق معي أيها القارئ الكريم في أن انصراف هذين الشاعرين البدوي والجواهري إلى السياسة قد أضاع على الشعر العربي كنوزًا باهرة لشاعريتهما العظيمة، أم أنك مع الذين يرون غير هذا الرأي الذي يرى أن الانسجام مع ما ذهبا إليه في مواقفهما السياسية والسياسة كما قيل «لا دين لها».

والآن قد اقترينا من الدخول إلى عالم عمر أبوريشة الشعري لنجد أنه يشترك مع هؤلاء ومع غيرهم من الشعراء في ما ذهبنا إليه، إلا أننا واجدون القدرة الفائقة عنده على التجديد والتصوير، في الكثير مما تميز به عن سواه.. فإلى شاعرنا عمر وإبداعاته وتجديده.

****

من هو الشاعر؟.. وما هو الشعر؟

سؤلان خطيران بقدر ما هما مثيران، تساعد معرفتنا بهما وتحديدهما على وصولنا إلى الكشف عن عوالم هذا الشاعر ورؤيته وخيالاته.

لقد حظي تعريف الشعر والشاعر باهتمام الكثيرين، ولم يعرف التوقف، ويزداد اتساعًا في أفق المدلولات، وساحة المواصفات مع تواصل حركة الشعر والنقد، وتطور الحياة، وتنوع الاتجاهات.

ويوضّح عمر أبوريشة نظرته إلى الشعر فيرى أنها حالة غنًى في الشاعر، وعمق في الثقافة، وصدق في النفس فتهز أعطافها، وتنقلها من حال إلى حال، فتومض في الأعماق.. وتحرك المشاعر لتسري في الخلايا، بعد أن تتدفق على اللسان، لتستقر في الوجدان.

أما الشاعر فإنه يكبر عند عمر بقدر ثقافته وعلمه، ومواقفه، وعندما يتهيأ للموهبة الشعرية رصيدها المطلوب من الثقافة والمعرفة، وتقبل على التعمق في دراسة ما حولها، وإدراك ما يدور ويجري، فإن الشاعر يكون بذلك قد أعد نفسه بالتأهيل اللازم، فيأتي بالأعاجيب، ولا يتوقف عن الإبداع في عطاءاته الفنية والتواصل مع الحياة من خلال تنامي العطاء وتساميه في الخلق والابتكار.

ومع هذا الرأي لعمر فإنه لم ينج من التوقف عن العطاء المنتظر منه دائمًا مع نسبية الأمر.

إن الشاعر يغوص إلى كنه الحياة، وأعماق النفس مستشفًّا الخفايا، متفاعلاً معها، ثم يرسم صورها بشفافية مبتكرة، نرى من خلالها ما يعتلج في الداخل مضيئًا صورة المنشود بأداء عبقري له فعله الذي لا يقاوم عند المتلقي.

ويختلف عمر في هذا المقام مع الذين يتعاملون مع الشعر على أساس الفطرة والموهبة واللحظة الوحي، دون اعتبار لعنصر الثقافة، التي يراها بعضهم أنها مفسدة للشعر!.

وأعذب الشعر عند عمر ما شعّ به الصدق، ومشت على خطاه العقول، والشاعر وحده هو الذي يمكن أن يؤطر العالم، ويرسم حدوده بما أوتي من المزايا وكان بها شاعرًا .. والشعر الحق عنده هو الذي يحمل الجماهير إلى عالم أفضل..

ولعله من المفيد هنا أن نتوقف عند رأيين له متقاربين في الزمان والمناسبة، ويقول في استقبال الشاعر أحمد الصافي النجفي حينما زار حلب وأقيم له احتفال ألقى عمر قصيدة ترحيبية به قال فيها:

شعراءُ الزمان يا ثاقبَ الرأيـ
ـي نُعاني من أمرهم ما نُعاني
لم يكدّوا حناجرَ الشعر إلا
في سخيفٍ من فكرةٍ ومعاني

ويقول في ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله:

إن تجدني أقول: ما لم يقلْهُ
فيك في الشعر نادبٌ وثكولُ
فلأني كرهتُ سخفَ ابنِ هاني
وابن أوسٍ ومن بهم تدجيلُ
زلزلوا الأرضَ والسماء إذا ما
تَ حبيبٌ أو غابَ عنهم خليلُ

أعـــذبُ الـشـعـر مـا يـشـعُّ بـه الـصِّـدْ

قُ وتمـضـي عـلـى سـنـاه الـعـقـولُ

ومن الغريب بعد هذا القول الصريح في مديح الشاعرين الصافي وشوقي، ومثلهما حافظ والمتنبي الذي مدحه بقصيدة رائعة، وكأني به كان يصف بها نفسه، ثم هو يتعرض لهؤلاء بعكس ما قاله عنهم مختارًا في صباه ثم هو ينسى ما قاله عنهم في ذلك العهد، ولو لم يثبت الدكتور سامي الدهان في كتابه الشعر الأعلام في سورية تلك القصائد لما وقعنا لها على أثر، مثلها مثل العديد مما تجاهله أو تنكر له.

وعمرُ شاعر قصيدة تقوم على الفكرة الواعية، لا شاعر بيت مزين مرصوف رصفًا جميلًا، فهو يتناول أفكاره غالبًا بمنظور العلم، لأن المظاهر الاجتماعية والإنسانية تخضع كلها لقوانين التغيير والتطور:

درنُ الـنـفـسِ لـيـس يُمـحـى إذا لـم

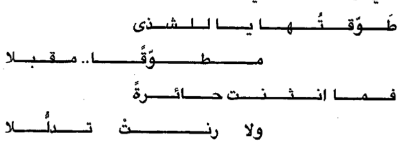
تجـرِ فـيـه مـبـاضـعُ الـحـكـمـاءِ

وإذا الـحِـلْـمُ لـم تجـد فـيـه بـنَّـاءً

فـأكـرم بـالـسـيـفِ مـن بَـنَّـاءِ

وهذه نتيجة علمية أكثر منها فلسفية.

ومن يقرأ «طهر» القصيدة الرائعة، يجد فيها أنموذجًا حيًّا لتعامل الشاعر مع المفهوم العلمي، والتحليل النفسي.

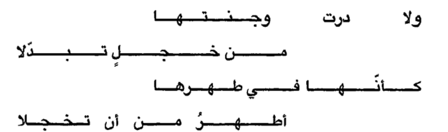


طَـوَّقـتُـهـا يـا لـلـشـذى

مـطـوَّقًـا.. مـقـبـلا

فـمـا انـثـنـت حـائـرةً

ولا رنـت تـدلُّـلا


ولا درت وجنتها
من خجلٍ تبدّلا
كأنّها في طهرها
أطهرُ من أن تخجلا

فبالإضافة إلى الأشعة السينية التي كشفت عن خفايا هذه العذراء وخباياها، وجعلتنا نرى ما طويت عليه من لواعج وأحاسيس مبهمة عميقة، وبالإضافة إلى الريشة الملونة نجد في البيت الأخير نتيجة علمية، فقد عوّد عمر قراءه أن لا يضع بين أيديهم الأشياء التي سمعوها كما سمعوها، أو كما قرؤوها.. وهذه صفة من صفات هذا الشاعر المجدد، وهو إلى جانب هذا، لا يتوقف عند حدود الوصف الظاهري، بل يتعمق ويوغل بقدرة فائقة، وريشة مبدعة موحية قادرة على إظهار ما أراد منها إظهاره.

إن العالم الشعري عند عمر يتصف بثراء فياض، وعندما يصبح الشعر مقاتلًا بناء تسمو عطاءات الشاعر، فتراه يجيد القتال، ولا يطلق النار إلا على مرماها المحدد بدقة، إنه يزرع في أرض الشعر ما يمكث فيها وينفع الناس، ويكلل الجبين الإنساني بتيجان العمل الصادق والجهد الطيب المثمر الذي يهز الطغيان والطغاة، ويزلزل بهم الأرض، ولا يقدر على هذا إلا الشاعر الملهم الصادق، والخطيب المؤمن بالحق المطلق، فهما المنتميان إلى تراب الوطن الناميان منه، إنهم الصادقون مع ربهم، ثم مع شعوبهم الملتزمان، العاشقان مجد الأمة وليس هناك من ينكر على «عمر أبوريشة» في هذا المجال مواقفه في مواجهة الساسة، وتجار الحكم.

ولا بأس أن نقف مجددًا عند هذه الأبيات التي تعتبر من أكثر ما تناقله الرواة عنه، وما حفظته الملايين وردده الخطباء في جميع أقطار العرب وأمصارهم:

أمّتي كم صنمٍ مجّدتِه
لم يكن يحملُ طهرَ الصّنمِ!

☆☆☆☆

ربَّ وامعتصماهُ انطلقتْ

ملءَ أفواهِ الصبايا اليُتمِ

لامستْ أسماعهمْ لكنها

لم تلامسْ نخوةَ المعتصمِ

لا يلامُ الذئبُ في عدوانهِ

إنْ يكُ الراعي عدوَّ الغنمِ

وقوله في مناسبة مماثلة:

وطنٌ أذاب على هواهُ شبابُهُ

وحبَاه بالمأثور من أشعارهِ

المجدُ يخجل أن يحيل الطرفَ في

ما هدّم الجبناء من أسوارهِ

فكأنه من نِيله لفراتِه

حَمَلٌ تجاذبه يدَا جَزَّارهِ

ما ذنبُ فتيةٍ إذ شبَّتْ ولم

تلمحْ بتربتِه خُطا أحرارهِ

تركتْ لها آباؤها الإرثَ الذي

يبقى مطوّقَها بلعنةِ عارهِ

ترى كم مقتلًا أصاب عمر في قصيدته «يا عيد» بعد النكبة؟

يا لَلشعوبِ التي قادتْ أزمتَها

على الليالي عباديدٌ رعاديدُ

فأطعمتْ كلَّ باغٍ من كرامتِها

لا يُلطَمُ الليثُ إلا وهو مصفودُ

ثم في قوله قصيدة «يا شعب»:

يا شعبُ لا تَشْكُ الشقا
ءَ، ولا تُطِلْ فيه نواحَكْ
لو لم تكن بيديك مجـ
ـروحًا لضمَّدنا جراحَك
أنت انتقيت رجال أمـ
ـركَ وارتقبتَ بهم صلاحك
فإذا بهمْ يرخون فو
قَ خسيسِ دنياهم وشاحك

إن الشاعر هادي الأمة، وحامل لواء نهضتها، وراسم خطط مسرتها، وعليه أن يظل مستبشرًا خيرًا، فالنصر ملء عينيه، والثقة بالنصر لا تزعزعها العاديات، يهب لنصرة كل خير، وكل جليل من الأعمال لا سيما الإنسانية منها، يحث الأمة على بذل طاقاتها في شتى الميادين، وكافة المستويات، وأحسب أن عمرًا كان في كثير من شعره مبشرًا ونذيرًا:

سينجلي ليلُنَا عن فجر معتركٍ
ونحن في فمه المشبوبِ تغريدُ

☆☆☆☆

مهلًا حماة الضيم أن لليلنا
فجرًا يلف الليل في أطمارهِ

فهو والشعب كما يرى جباران و:

صعبٌ على الجبار أن يُستعبَدا

إذن فإن الشاعر رجل قضية وموقف، والشهادة من أجل الكلمة الحقة عنده هدف سام ونبيل، فالعاطفة لا تكفي وحدها لمواجهة قضايا الأمة المصيرية.. إن عاطفة الصدق هي الذوبان في قدسية الرسالة، ليكون النور.. نور الاستشهاد من أجل القضية.. ونيل السبق في شرف نوالها.

فها هو يتحدث عن الفدائي عام ١٩٥٢:

أمضي ويُذهلني طلابي عني، وعن دنيا شبابي
أمضي! ويسألني الربيعُ ولا أجيبُ، متى إيابي
أمضي! وما روّت فمي كأسي ولا أفنتْ شرابي
بيني وبين الموت ميعادٌ أحثُّ له ركابي
عبِقٌ بأنفاس النعيم السمح والمجد اللبابِ
أسري على إيمائه والحقد يسري في إهابي
هذي الربوعُ ربوع آبائي وأجدادي الغضابِ
عطر، فداك العمر، يا ميعاد من جرحي ترابي
فلسوف تُركزُ فيه أعلامي وتحرسها حِرابي!!

****

شعر عمر

هل أقفل عمر أبوريشة باب التجديد؟!

سؤال من حقه علينا أن يطرح بقوة أمام من يتتبع حركة الشعر.

يرى الدراسون أن عمر قد ملأ فنون شعره - لكن بكل جديد - كما سنرى ذلك من خلال شهادات أهم وأبرز النقاد في زمانه، لذلك نراهم يشعرون بثقة كاملة وهم يردون بالإيجاب على هذا التساؤل الكبير..

يقول الشاعر الأستاذ أحمد الجندي:

«إن شعر عمر جديد بالنسبة إلينا نحن الذين قرأنا امرأ القيس حتى شوقي».. ويرى الكثيرون من ناقدي الشعر ودارسيه هذا الرأي..

وها هو الشاعر أحمد الجندي يقول من جديد:

«وبعد: فإن عمر فاتح باب التجديد الذي دخله الكثيرون من الشاعرين والمتشاعرين ولكنهم لم يخرجوا منه حتى الآن فقد أغلق عليهم الباب[1]».

لكن أين وضع عمر أبوريشة مفتاح الباب الذي أغلقه؟!

ولكن سيكون مستقبلًا ذلك المفتاح السحري؟!

---

(١) انظر كتابه شعراء سورية، الصفحة ١٢٠.

هذا شأن الزمن، وليس معنى هذا أنني متشائم فأمتنا ما عرفت العقم يومًا.

ولئن تعارف النقاد على تقسيم الشعر إلى وطني وعاطفي.. وهما اللونان الغالبان في إنتاج شعراء الحقبة الأخيرة - إلا ما ندر - إلا أن هذا التقسيم لا يجري على شعر عمر، لأن له عوالم أخرى تتسم بالجدة، وتتصف بالإبداع.

يقول صديقه الحميم الشاعر عبدالله يوركي حلاق:

«ولا ريب أن الشعر العربي مدينٌ لعمر أبوريشة بأسمى ما في التجديد من معانٍ شريفة، وصورٍ فكرية جميلة، وأخيلةٍ مجنحة[1]».

قال في الوطنية.. فأرضاها، وغضب لها فكانت كلماته نورًا ونارًا.. وغدا شعره دافعًا قويًّا من دوافع الوثبة العربية، كما كان خير معبر عنها، فمثلها بأصدق تمثيل وأوضحه، فلقد كان الملتزم أبدًا بأهداف الوطن وتطلعاته التحررية».

والوطن والوطنية لهما عند عمر مفهومهما الذي نزعم أنه مفهوم يميزه أيضًا، وبعيدًا عن التنظير حول مفهومها نتوقف عند ما قدمه لنا عمر في هذا المجال من شعره ترفده مواقف لا نكون منصفين إن تناسينا ذكرها ولم نعطها ولو بعض حقّها علينا.

فالوطن والوطنية بمفهومها الجغرافي والإقليمي وبمفهومها الحضاري الثقافي ثم بمفهومها التاريخي التراثي ثم الإنساني كان لكل ذلك تأثير في ثقافة الشاعر وعطاءاته، وكثيرًا ما تداخلت هذه المفاهيم وتلاقت وتلاحمت فلم تتقاطع في كثير من قصائده الوطنية وإن كان نصيب المفهومين الأولين أوفر حظًّا لما كانت تعاني منه سورية من انتداب بغيض، وما فرخ من مآسٍ كان تصديه لها شغله الشاغل وديدنه.

---

(١) الضاد العددان ٣ و٤ الصفحة ١٠٤.

يقول عمر في إحدى مرثياته - وما أكثر مرثياته - للمجاهدين، وهو هنا البطل إبراهيم هنانو قائد الثورة السورية في جبل الزاوية وما كان منها ومنه من مروءات أنجدت بها من حولها وما جاورها من ثورات:

وطـــن عـلـيـه مـــن الـــزمــــان وقـــارُ

الــنـــور مـــلء شـعــابــه والــنـــارُ

☆☆☆☆

فـي كــلِّ صـقـع مـن جـمـاجـم نـشـئـهـا

حـــرم عـلـى شـــرف الـجـــهـــاد يُـــزارُ

نـــوحُ المـــآذنِ مـــا يـــزال بمسمعي

تـــروى بـــه الآصـــال والأســـحـــارُ

أقـسـى جـــراحِ المـجـد جــرحٌ لـم تـكـنْ

تـقـوى عـلـى تـضـمـيـده الأحــــرارُ

تـلـك الـقـوافـلُ مـن شـبـولـةٍ يـعـرُبٍ

مــــازال مـنـهـا فـيـلـقٌ جَـــرّارُ

هـــذي الـــدّيـــارُ عـشـقـتُـهـا، ولـطـالمـا

هـــزَّتْ حـنـيـنَ الـعـاشـقـيـنَ ديـــارُ

يقول الدكتور شوقي ضيف:

(كأننا نجد أن «عمر» قد أهدته الطبيعة إلى سورية، ليحرك سفينتها، ويقودها في محنتها، حيث كانت تغوص أقدامها في ذل الاستعمار الفرنسي)[1].

ويقول د. سامي الدهان في هذا المعنى وهو من أصدقاء الشاعر:

---

(١) انظر كتابه: دراسات في الشعر العربي المعاصر، الصفحتان ٢٣٨ و٢٣٩.

«لم يكن موقف عمر من قضايا الوطن والتحررية موقفًا منفعلًا واستجابة آنية للأحداث، إنما موقفًا نابعًا من التزامه الواعي وصدق هذا الالتزام، وعمر لم يكن شاعر احتفالات ومناسبات»[1].

ولا يفوتنا في هذا الصدد، أن نستزيد مما قاله هذا الشاهد «الملكي» على ما كان من عمر ومن شعر عمر إذ ذاك، يقول:

«يضم التاريخَ، وصفحاتِه، وأبطالَه، ويضم الحاضرَ وكفاحَه ضدَّ كل مستعمرٍ أثيم».

«قلنا إن قلب عمر، كان يخفق للعرب أجداده، فيرسمهم في كل قطر، ويتأسى لأحزانهم، ويفرح لانتصاراتهم، ويناضل بلسانه في كل خلجة من خلجات الوطنية، والوطنية معنى بعيد عند عمر».

وهو يخاطب الأمة كل الأمة، ولا يوقف شعرَه لحزب، أو بلد عربي دون سواه، فالأمة العربية عنده واحدة موحّده.

وهنا نضع أيدينا على ميزة جديدة في وطنيات الشاعر «عمر أبوريشة» التي غدت أهازيج المعارك، وأناشيد الكفاح.. بعد أن كانت أذان الجهاد، وناقوس الخطر، كما يقول الدكتور الدهان عن شعر عمر أيضًا:

«إنها شحناتٌ دافقةٌ عجيبةٌ من المشاعر والأحاسيس الحية، تلك التي يرسم لها أطرها ذلك الذكاء النادر، وتلك البصيرة بعيدة الغور والتأثير، ولكم استثار المجاهدون بوهج كلماته، وأرسلوها ألحانًا عذرية النغمات».

إذ لم يقف عند حدود المباشرة والخطابية، التي تسمع ولا تستساغ، وتلقى وسعان ما تنسى، إنما تجاوز ذلك إلى تجارب إنسانية، وعمد إلى الرمز الشفاف

---

(١) انظر كتابه: الشعراء الأعلام في سورية، الصفحة ٣٤٨.

الواضح كقصائده «بلبل» و«النسر» و«العروس»، أو ما أومأ به كـ«جان دارك» وما صرح به غير هياب ولا وجل كما في «أمتي» و«بلادي»، وغيرها من أخواتها اللواتي قد طوى النسيان معظمها، وأصبح أندر منها من يذكرها ممن كانوا يرددونها مفاخرين بحفظها والتغني بها، فهو للأسف الشديد لم يعتمدها فيما سمح بنشره، وربما تعدد من تنسب إليهم أناشيد الثورة والثائرين مما يرجح أنه هو قائله، ومنها «يا ظلام السجن خيِّم» و«نحن الشباب لنا الغد».

تغزل فأبدع وأجاد، وكان غزله أحلى من الرحيق، وأشهى من الرضاب، رضاب أكمام العبقرية، وسلاف الإبداع الفتان.. إن غزل عمر دنيا غنية، بالإيحاءات الجمالية، وفيض الإضاءات ذات الألق المميز.

«فالنساء اللواتي يحظين منه بقصيدة، أو أبيات هن الخالدات» كما في قول الدكتور سامي الدهان في كتابه الشعراء والأعلام، ص ٣٤٣. وسنختار منها ما يثبت صحة ما قال عن القائلون.

ولقد أفردت دار طلاس في دمشق سنة ١٩٩١ ديوانًا ضم غزلياته وما قاله في المرأة بعنوان «من وحي المرأة» يقع في ٢٧٨ صفحة من الحجم الوسط يشتمل على ٨٩ قصيدة ومقطوعة.

أما التصوير فهو أبرز سمات شعر عمر، وهو ركن من أركانه الفنية، لقد كان عمر واحدًا من قلة نادرة، جمعت جانبي المعاني والألفاظ، وتكاد كلماته تطير من بين يدي القارئ، لتحط في القلب والعقل.. ريشةٌ مطواعٌ تعرف كيف تلوّن، وكيف تخطف الأبصار بسحرها، فآفاقها الجمالية ذات الأبعاد والاتساع غير المحدود عناق الظل والضوء، يجمِّله ذوبان اللون في الخط بانسجام فني بارع يكوّن لوحة يدغدغها الحنان برفق، فتكاد تنطق الخطوط، وتتكلم الألوان ويكون البيان سحرًا حلالاً.

إن الإعجاز الذي بلغه عمر أبوريشة، بكل ما تعنيه كلمة إعجاز من الغنى والامتلاء، يجعلنا نطالب أنفسنا بمساحة زمنية مديدة، نتوقف فيها عند ما بلغه في فن التجديد، فمن يتطلع إلى مفتاح الباب الذي أغلقه عمر لابد من أن تتوفر له عبقرية ذات رؤية كاشفة، وبصيرة نافذة في حركة التجديد ومتطلباتها.

ولقد حمل عمر مسؤولية النقد السياسي، وهي مسؤولية في عمومها بالغة الخطورة، فكشف المزيّف والمزيفين، وعرّى الواقع بهدف الوصول إلى الحقيقة، وتحقيق الإصلاح المنشود من غير حقدٍ ولا حسد، أو ليس هو القائل للسياسي الكبير المشهود له في تاريخ سورية النضالي، ونعني سعد الله الجابري – رحمه الله – في حفل تأبينه:

شهد الله ما انتقدتك إلا
طمعًا أن أراكَ فوق انتقادِ
وكفى المرءَ رفعةً أن يُعادى
في ميادين مجده ويُعادي

ولا يجد عمر مانعًا يحول بينه وبين المعاداة من أجل الحقيقة والصلاح، ويعتبر ذلك مسؤولية تستوجب الفخر والاعتزاز والرفعة:

أنا يا سعدُ ما طويت على اللؤ
مِ جناحيْ، ولا جرحتُ اعتقادي
وكفى المرءَ رفعةً أن يُعادى
في ميادينِ مجده ويُعادي
فعلى الحادثات أن تتوالى
وعلينا الوقوف بالمرصادِ

توجهٌ إنسانيٌّ ونهجٌ هادفٌ في النقد، وهو مبدأ سام في التنافس لبلوغ الأمثل والأفضل، وهو في الوقت نفسه دعوة إلى التوحد بقوله:

«وعلـيـنـا الـوقـوف بـالمـرصـاد»

فالحادثات التي يعمّ خطرها الجميع، على الجميع أن يتوحّدوا لصدّها.

رثى عمر بعض أصدقائه وأحبابه ورجال نضاله المشترك فكان رثاؤه قلب الأم الثكلى، وتفجّع الأب المنهك الوجيع.. ولعل في هذه الأبيات التي يختم بها قصيدته الطويلة في رثاء رفيق نضاله حلمي الأتاسي ما يشفع لنا بنا قدمنا به عن مدى تأثره بوداع صديقه وشعوره بعمق تلك المأساة لما كان يتصف به صديقُه الراحل من مواقف وطنيّة، وصفات إنسانية وخلُقٍ سمحٍ كريم، ولعل في البيتين الأخيرين ما يُقنع كل قارئ لهما عن صدق وفائه في مراثيه:

يـا حـبـيـبـي أسـامـعٌ فـي حـنـايـا الْـ
ـقـبـر نجـوى الأشـبـاحِ لـلأشـبـاحِ؟
لَـهـفَ نـفـسـي كـم بُـحّـةٍ فـي لَـهـاتـي
مـا لـهـا فـي نـشـيـجـهـا مـن بـراحِ

☆☆☆☆

نم عـلـى الـتُّـربِ لا مـزارك شـافٍ
مـا أعـانـي، ولا خـيـالـك مـاحِ
كـيـف آتـيـك بـالـنـجـوم وسـادًا
والـلـيـالـي مـقـصُّـهـا فـي جـنـاحـي!!

وفي رثاء جميل مراد يقول:

يـا حـبـيـبـي سـالـت حـنـاجـرُ تحـنـا
نـي فـهـل أنـت سـامـعٌ تحـنـانـي

يــا حـبـيـبـي هـــذي خُـطـاك عـلـى در

بـــي، وهــــذا صــــداك فـــي آذانـــــي

أفـــــــراقٌ بـــلا وداعٍ وعـــهـدي

بـك جــمُّ الـوفـاء، سـمـح الجَـنـانِ!

لــــيَ فـــي كـل وقـفـة وجـمـةُ المشـ

ـــــدوهِ بـين الــــرؤى وبــين الـعـيـان

وسنرى في رثائه لحبيبته الإنكليزية ما نطمئن منه إلى قدرته على صب ذوب نفسه وعصارة قلبه في مراثيه، كما سنتوقف مع رثائه لابن شقيقته «علي» ليكون لنا منها برهان آخر على ما ذهبنا إليه، في حين أنني أرى أن بعض رثائه لم يكن كله على ما زان معظمه..

ولي أن أتساءل هنا: لِمَ لم نجد بين مراثيه رثاءه لأمه التي كان يحبها إلى درجة التقديس، ولا إلى حفيده «عمر بن شافع» الذي مات غرقًا وكان يحمل اسمه واسم أبيه، بينما هو يرثي إميل البستاني الذي بنى لنفسه قبرًا من مرمر لكنه مات غرقًا ولم يدفن فيه.

وقصَّ فبرع وأحسن في قصِّهِ، وقد لمسنا فيه قدرته على التقاط جزئيات ما صوره، وأحسب مرة ثانية لو أنه خير في أن يختار صفة لشعره واحدة لقال بكل البساطة «التصوير» وستكون لنا وقفة وافية مع عمر والصورة إن شاء الله.

وفي التزام عمر المبدئي نراه قد التزم بالمثل العليا داعيًا إليها فكان، التزامه مثار الإعجاب، وموضع التقدير وبخاصة ما كان منها في مجال السياسة والتعامل مع السياسيين كما كان إيجابيًّا في رثائه للمجاهدين الخالدين إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري كما كان سلبيًّا مع من هم على الرصيف الآخر، يقول في مؤتمر القمة على الذي تنادي إليه القادة العرب بعد هزيمتهم النكراء في حرب ١٩٦٧:

على آرائكهم - سبحان خالقهم -

عاشوا وما شعروا، ماتوا وما قبروا

خافوا على العار أن يمحى فكان لهم

على الرباط لدعم العار مؤتمرُ

وكان قبل ذلك أن قال بعد حرب ١٩٤٨ :

يا للسياساتِ كم أخزت مفاتنها

وكم كبارٍ على أعتابها صَغُرُوا!!

فَيمَّموها على كرهٍ وكل أخٍ

في حربه من أخيه خائف حذرُ

كما في مسيرته السياسية الكثير من المواقف التي طالما استمعنا إليه يحدثنا عنها وبخاصة ما كان مع «جون كينيدي» و«نهرو»، وغيرهما، لكنها لم تجمع في كتاب يمكن الرجوع إليه، كما حجب معظم ما قاله في جمال عبدالناصر الذي حمله ما كان من انكسارات وانهزامات.

سَخِر، فكانت سخريته مريرة عاصفة، وشواظًا من نار جهنم استطاع أن يوقظ من له أدنى نصيب من ضمير، ويحرك الإحساس بمن تحجّر لديه الحسُّ بضربة قاصمة من سهام سخريته النافذة، وأجرى دموع الكبار قبل صغارهم، والرعاة قبل رعيتهم، وسيجد القارئ بين طيات هذا الكتاب أمثلة على سخرية الشاعر المرة، والهادفة البناءة من جانبٍ آخر.

وتمرد!! فأفرد التاريخ صفحاته ليسجل مآثر ذلك التمرد، ومد البصر، فإذا به شاعرٌ إنساني، أمدته ثقافات الأمم الحية بالوعي والغنى فكان عمر أبوريشة بكل ما أصبح يتميز صاحب هذا الاسم وشعره.

لم يقف عمر على أبواب الصحافة يستجديها النشر لشعره، لأنه شعر العبقرية الفذة، فلقد احتل موقفه اللائق في القلوب والعقول بكل الجدارة، ومضت الألسنة تقبل على عطاءِ عمر الذي تناقله الجماهير قبل أن تزدان به الصفحات، وصفقت له القلوب قبل ضجيج المطابع ودورانها، واستوطن في الصدور قبل أن تتوشى به القراطيس.

يقول الأستاذ أحمد الجندي عن قصائد عمر:

«سرعان ما يتداولها الناس، ويتلقفها الواحد من فم الآخر، حتى تطغى موجتها على المدينة كلها».

وقد نظم العديد من المسرحيات، وكان له فيها منحى كبقية شعره، قد سعدت بسماع اثنتين منها في منزله العامر في بيروت لم يشأ أن يظهرهما، وقد كنت أختلف معه في عدم نشرهما لسبب لم أقنع معه به مع احترامي الشديد له ولآرائه، والصفتان اللتان تتجليان عنده بالإضافة إلى ميزة التصوير هما: وحدة القصيدة، طالت أم قصرت، ثم التركيز على البيت الأخير في القصيدة، إذ يصقله ويعده إعدادًا مميزًا ليكون مفاجأة يهنأ بها قارئه، إنه ينقلنا به إلى قمة شامخة نطل منها على عوالم أرحب، ويكون البيت الأخير من القصيدة وجودًا مستقلًا قائمًا بذاته غنيًّا بإيحاءاته، كأنما هو ابتداء قصيدة أو إقلاع جديد لعالم عمري جديد..

وقد يستوقف القارئ أكثر من بيت في قصائد عمر، غير أن للبيت الأخير خصائصه الجمالية التي تكاد تكون وقفًا عليه، مع الحفاظ ببراعة أصيلة على عضوية البيت في القصيدة الواحدة، ذات البيان المرصوص، والتكوين المتلازم المنسجم الجميل، ولا شك أن وحدة القصيدة ميزة من ميزات عمر العديدة.

وتلك سبيله، وذلك نهجه..

وإن عمر كثير الرجوع إلى شعره، يحاكمه بدقة، بل وبقسوة لا هوادة فيها، ويعيد النظر في القصيدة الواحدة مرات عديدة، وعلى فترات متباعدة، حتى أننا نجد أن كثير من الكلمات، قد توارت من قصيدة واحدة تقرأها في أكثر من موضع له، وحلت مكانها كلمات جديدة اصطفاها الشاعر بدقة أعلى، وطواعية أفضل في التوصيل، ولا ينشر قصيدة، إلا بعد أن يرتوي منها، ويأمن إلى نبوغها وإبداعها.

بعد هذا.. ألا يطيب لنا أن نجول - ولو بقدر - في عوالم هذا الشاعر من خلال إطلالة سريعة، نلتمس عند شعره البرهان، فيطمئن القلب وترتاح النفس؟!

أظنها دعوة مغرية بجاذبيتها الساحرة..

لكنني أود قبل ولوج عالم التجديد عنده أن نقدم لها بهذه الأبيات المختارة مما هو غيض من فيض وقليل من كثير متأملين هذه المشاهد وما فيها من صور تكاد تكون ناطقة، إلى جانب ما فيها من تراكيب غريبة عجيبة لم أجدها بمثل هذه الكثافة عند غيره مثل قوله: صدى النسيان، يجفل الغبار والعنكبوت، الكرى لم يتكئ على مقلتي، ونحو ذلك مما سنذكره في «عمر واللغة».

فكم جبلٍ يغفو على النجم خدُّه
وأذيالُه للسّائماتِ ملاعبُ

☆☆☆☆

لنا كِبرُنا كم تاه في التيه دربنا
وكم نفضتْ أقدامُنا من غبارِهِ
وقوفًا يرانا الموت نخفي جراحَنا
وليس يرانا ركّعًا في انتظارِهِ

☆☆☆☆

أرى بين جفنيكَ جسرَ الدموعِ
تسير عليه طيوفُ الألمْ

☆☆☆☆

إنـــنـــي راحـــــلٌ ومـــوكـــب أيَّـــا
مِـــي الخـــوالـــي لـم يـخـلُ مـن عشاقـهْ
سـوف تـدريـنَ مَـن أنـا، لـم يـكـنْ يـغـ
ـرفُ طـيـب الـبَـخُـور قـبـل احـتـراقـهْ

☆☆☆☆

إنـهـا حـجـرتـي!! صَـدى الـنـسـيـانُ فيها
وشـــاخ فـــيـــهـــا الـــســـكـــوتُ
وانـقـلـي الخـطـوَ بـاتـئـادٍ فـقـد يـجـ
ـفـلُ مـنـكِ الـغـبـارُ والـعـنـكـبـوتُ

☆☆☆☆

لا تـطـفـئـي المـصـبـاحَ إنَّ الـكـرى
لـم يـتـكـئْ بـعـدُ عـلـى مـقـلـتـي

☆☆☆☆

إيـه عـبـدَالـرحـمـن مـاج بـيَ المنـ
ـبـرُ فـارفـعْ يـديـكَ عـن أوتـاري

☆☆☆☆

لـن تمـوتـي فـكـاهـلُ الـدَّهْـرِ لا يقـ
ـوى عـلـى حـمـل نـعـشـكِ الجـبَّـارِ

☆☆☆☆

كـم وقـفـةٍ لـي دون دا
رك خـضَّـبـت بـالـذلِّ صـبـري!
أنـا إن ذكـرت نـشـرت عـا
ري أو نـسـيـت طـويـت عـمـري

☆☆☆☆

وأوينا إلى مخابئ كهفٍ
ردّ أيدي زمانه المغلولَهْ
في زواياه للعناكب مسرى
لم تشأ صحبة الأسى أنْ تزيلَهْ

☆☆☆☆

وبلوت الصبرَ المبرحَ حتى
لم أطقْ حملَهْ ولا تعليلهْ
فأتيتُ الحِمى وكان وشاحُ الليـ
ـلِ ملقًى على النجوم الكليلهْ
وحثثتُ الخطى، ووحشةُ أيامي
الخوالي على خطاي قتيلهْ
وتراجعتُ تاركًا في سماعِ الـ
ـليل أشلاء قهقهاتٍ طويلهْ

☆☆☆☆

أضرمتِ أشجاني ولا نجمةٌ
أسري على إيمائها المشفقِ
ما لي وللأوهام أطوي على
تضليلِها برد الصبا الريّقِ؟

☆☆☆☆

حسبي إذا ألقيتُ طرفي على
أمسي صدمت القلب بالأضلعِ

☆☆☆☆

عرفت شذاك فالتفتت
تسائلُ عنك أشواقي

وكـــنــتِ عـــلـــى خـــطًـــى مـــنِّـــي

فـــغـــابـــتْ فـــيـــكِ أحـــداقـــي

☆☆☆☆

ســكــتُّ وطـــرفـــي عـــلـــى طـرفـهـا

خـــفـــيـــضٌ، وفـــوق يـــديـــهـــا يـــدي

فـــأســـنـــدتِ الـــــرأسَ فـــي رقَّـــةٍ

عـــلـــى قـــلـــبـــي الـــثـــائـــر المـجـهـد

ولـــــمَّـــا هـــمـــمـــت بـــتـــقـــبـــيـــلـــهـــا

ورشـــفِ الـــرِّضـــابِ الـشـهـيّ الـنـدي

ســمــعــتُ نـــداءَ الـــضـــمـــيـــر الجـــريـــحِ

يـــتـــمـــتـــمُ يـــا وغـــدُ لا تـــعـــتـــدِ

لغات عمر وأوسمته[1]

ذكر عمر يرحمه الله ويغفر له أنه أتقن كلًّا من اللغات التالية:

الإنكليزية – الفرنسية – التركية – الألمانية – الإيطالية – الروسية – البرتغالية – الإسبانية – الهندية – الأردية.

ويؤكد السيد عصام الحلبي أحد أهم أصدقاء عمر أن اللغات التي أتقنها أربع لغات فقط.

وأما عن أوسمته وشهاداته فهي ١٧ وسامًا، وقد منح مثلها شهادات دكتوراه فخرية، وأن عددًا مماثلًا من شهادات الدكتوراه تحدثت عنه في شتى اللغات، وهذا ما كان يؤكده لنا في جلساته، إلى جانب بطاقة الدائرة المستديرة للثقافة العالمية التي لم تمنح إلا له وللدكتور طه حسين، فهو – كما يقول – شاعر العرب الأكبر.

---

(١) انظر كتاب عاشق المجد ص ١٢.

وسواء صح هذا أم لم يصح فهو من الشعراء الخالدين الذين أغنوا شعرنا العربي بعامة والسوري بخاصة.

أعماله الدبلوماسية

عمل عمر أبوريشة اثنين وعشرين عامًا في السلك الدبلوماسي، بدأها وزيرًا مفوَّضًا ثم سفيرًا في دول عدة، هي: **التشيلي، البرازيل، الهند، الأرجنتين، الولايات المتحدة، سويسرا** وعاد بعدها ليترك للشعر العربي قصيدته الرائعة عودة المغترب..

فمرحبًا به مقيمًا ومغتربًا وحيًّا له الصدارة، وميّتًا له المغفرة والرضوان بإذن الله. كما له منا طيب الذِّكرِ، ومحاولة إيفاء شعره الخالد، ولو بعض حقّه.

****

عمر في بعض أقلام الدّارسين

كيف رأى بعضُ دارسي شعرِ عمر شعرَ عمر!!

يصعبُ أن نحيط بكلٍّ ما قيل عن هذا الشاعر وما كتب عنه، فهو الذي كثر المعجبون به، وما زال عشّاق أدبه في ازدياد.. وإن صحّ قول «ابن زريق» في رائعته الخالدة «لا تعذليه» حينما صوّر تجواله وسعيهُ للوصول إلى مُبتغاه، فقال عن نفسهِ «مكلفٌ بفضاء الله يزرعهُ» فإن هذه الصورة أكثر ما تصحُّ تعبيرًا على أسفارِ عمر، فهو يصف نفسه بالشاعر الجوّال الذي هو عنوان ديوانه الأول باللغة الإنكليزية – كما يقول – ولم نعلم بعنوان ديوانه الثاني بالإنكليزية، والذي كان يذكره.

وسيرة هذا الشاعر الجوال ومسيرته منذ نشأته وحتى وفاته تحتاج إلى سفرٍ طويل، فإنه يتعذر حصرها والتوقف عندها في دراسة متواضعة كدراستنا هذه، لأنها تُشكل عملاً قائمًا بذاته، لكن هذا لا يمنعنا من أن نقتطف منها بقدر ما يتّسع له المجال هنا، على أمل أن تُترجم محتويات ذلك الملف الغني الزاخر بالغرائب لتأخذ طريقها إلى النور في كتاب مُستقل، وسيكون لمثل هذا العمل نفعٌ كبير، وفائدة جمة لأبناء هذه الأمة، أدباء وعشاق أدب ونقادًا ومؤرخين، ونأمل ألا يظل ذلك الملف مغلقًا ومحجوبًا.

ولنقف مع الأستاذ مارون عبّود، شيخ النقاد العرب – كما يسمونه – يقول عن عمر وديوانه الذي صدر عام ١٩٤٤م عن دار الأديب بلبنان في كتابه «مُجدّدون ومُجترّون».

«الحقَّ أقول: إن في ديوان أبوريشة شعرًا، طالما تمنّينا أن نقرأهُ ونسمعهُ، فشاعرنا يحدو الكلام ويزجيهِ على هواهُ».

ويُضيف في مكانٍ آخر في معرض حديثه عن شعر نازك الملائكة:

«ولولا ذاك البصير – عمر أبوريشة – لفضلتُك على شعراء الموسم».

كلامٌ رائع جميل، فكم ودَّ كل دارسٍ أن يكون سبّاقا في قولهِ عن عمر كما نود أن يكون الآن بعد غيابه.

ولهذا الناقد أعني (مارونًا) أيضًا كلام كثير عن الشاعر نراه موزعًا في ثنايا الدراسة المشار إليها.. فتارة يتحدث عن القصائد، فيقول: «إن قلب الفن ليطمئنَّ حين يسمع مثل هذه الأناشيد».

وتارة يشير إلى ما في الديوان: «وفي ديوان عمر نخوة، ولكنها غير مُبتذلة، نخوة على آثارها بيضٌ حسان، فهي مُضمّخة بطيوب عذارى الفن، وفيه ثورة جياشة، ولكنها تلبسُ مآزر البيان الوضاءة غلالات فنية فتّانة».

وإذا تحدث «عبود» عن الغنائية عند عمر وطواعية القصّ، فهو يقول:

«وهَبْ أننا وجدنا لعمر ندًا في الغناء، فإننا لا نجِد له ضريبًا في القصِّ على حقه» ويشرح ذلك قائلاً: «شاعر قصصي ظهرت لي ملامح عبقريته الشعرية في وثباتٍ وطواعية القص».

وقبل أن ندع كتاب «مجددون ومجترون» يحسن بنا، أن نتذكر أن ما قاله كان في أوائل الأربعينيات، وها هو يقول من جديد عن شاعرنا عمر: «إذا شِئت أن تتفكه.. فعليك بديوانه»، الديوان الذي وصفه بقوله: «أما الجمال فمِلءُ هذا الديوان الضخم، وفيه فوق الجمال الفني تحليل نفساني رائع».

أما الدكتور شاكر مصطفى وهو غنّي عن الإفاضة بالتعريف بأدبه وعلمه وثقافته فيضع لنا رأيًا مطابقًا لرأي عبود عن عمر يقول:

«إنهُ الشاعر الذي تخفق له حتى صخور بلادي، جبينٌ يلتهب بالعنفوان، وعينٌ كأن وراء نظاراتها ألف رؤيا، وشفتان منهما انهل تاريخ أمتي صورةً صورة.. بكل ما فيها من دموع وزغاريد ورَعْفِ جراح، ومنهما وعى قلبي الشعر وصوفية الشعر أول ما وعى».

ويقولُ عمر:

إن أسرته قد اعتمدت الشاذلية من تلك الطرق الصوفية فنشأ عليها عمر، غير أننا لا نجد أثرًا لها إلا في بعض شعره، فقد جعل صوفيته الموروثة صوفية شعرية صافية كأرواح أهلها، وأكثر ما تجلت به رثائياته لأبيه وابن شقيقته وابن عمه وكميل شمبير وحلمي الأتاسي، وغيرهم فإنك تجد فيها إشراق الصوفية وصفاءها، كما تجد ذلك في وطنياته وبعض غزلياته.

يحدِّثنا الشاعر عبدالله يوركي حلاق، صديقهُ وزميله ورفيق صِباه واصفًا شعره قائلاً:

«وراح عمر يُنشد فرائده البكر في الحفلات القومية، فيهزُّ المنابر هزًّا، ويخلب الألباب، ويقيم الحفل ويُقعِدهُ، وكان يؤثر تأثيرًا سحريًّا عجيبًا في سامعيه وعشاق أدبه». ثم يردف قائلاً:

«لقد جدد عمر في المعنى والصوت والخيال، وطلع على الفصحى بشعر هو مزيج من الحس المرهف، والنغم الحلو، والبيان المشرق، والتصوير الفني الصادق، فالشعر عند عمر يقوم على الإبداع والابتكار، لا على التنكر لعمود الشعر والأصالة العربية».

ويُضيفُ الشاعر حلّاق: «ولا ريبَ أن الشعر العربي مدين لعمر أبوريشة بأسمى ما في التجديد من معانٍ شريفة، وصور فكرية جميلة، وأخيلة مجنحة، ترفرف على جباه النجوم، وتحلق فوق نهر المجرة».

وللشاعر الأستاذ أحمد الجندي أيضًا حديثه عن رفيق صباه عمر أبوريشة في كتابه «شعراء سورية»:

«انطلق اسم الشاعر أبي ريشة في جو سورية انطلاقة البرق، أو الصاروخ - إذا شئت - فقد علا صوته، وبَعُدَ صيتهُ، وتحدث الناس به وبشعره في أمسية اليوم الذي تنشر في أول قصيده له».

ويُتابع «الجندي»:

«القدرة القادرة على صبغ الكلمات صِباغة شعرية، تتخذ لها ألوانًا برّاقة متنوعة لا عهد للشعر العربي بها».

ثم يقول: «والتفّ الناس ليجدوا شعرًا جديدًا، وكلامًا لم يسمعوه من قبل، فالتفّوا حول الشاعر يقدرونه ويرحبون به».

ولا يغيب عن الأستاذ الجندي تذكيرُنا، بما كانت عليه الحال في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ سورية التي كانت تعانيه من جرائم الاستعمار وأعوانه، فيقول:

«وكان الشعر في تلك الأيام بالغًا أوجَهُ، والشعر أداةٌ طيعةٌ في هذا الباب (يقصد الناحية السياسية) أو وسيلة فعالة لا يقف دون أثرها شيء، فكانت القصيدة تُلقى وتُنشر، وسرعان ما يتداولها الناس، ويتلقفها الواحد من فم الآخر، حتى تطغى موجتها على المدينة كلها، وكان لعمر في كل ميدان قنبلة، وفي كل معركة غنيمة وانتصار».

إن بحث الأستاذ الجندي، هو بحث مستقل، ويقدم دراسة مركزة شيقة جميلة وغنية، ولا ضير في أننا قد اجتزأنا هذه الفقرات مما جاء في ذلك البحث، مع التأكيد أن الجزء لا يغني عن الكل، ولا يغطي مناحيه، أو يستوعب شموليته، مقتنعًا أن الإشارة هنا قد تكون كافية عما كان من عمر ومن شعر عمر من خلال معرفة هؤلاء وأمثالهم، وأمثالهم كثيرون.

أما رفيق صبا عمر وصاحبه، الآخر المرحوم بإذن الله الدكتور سامي الدهان، فله دراسة مفصلة عن عمر أبوريشة في كتابه «الشعراء والأعلام في سورية» ولابد لنا من أن نقتبس بعض ما جاء فيها:

يقول الدكتور الدهان في شعر عمر: «فكأنه شعر غربي، بألفاظ عربية جميلة».

ويرأى أن هذا الشاعر:

«يقضي ساعات خياله مع الصور فيكسوها بالألوان والظلال، ويجسم بها مشاهده الواسعة، كأنها ألواح فنان رسام مصور مبدع، لا شاعرًا يعيش مع اللحظة ليربطها بأختها ويضع شطرًا يقفيه بقافية يرود فيها المعاجم».

ويذهب الأديب المهجري الأستاذ الشاعر جورج صيدح، إلى القول: «إن عمر شاعر مجيد، أتى بالرائع الجديد.. في شعره لذةٌ تغمر النفس، كأنه نسمة عابقة بالنعيم، وفيه فتنة تحرك العواطف، وتنتزع إعجاب القارئ فلا ينتهي من مطالعة قصيدة من قصائده إلا وهو يردد: الله أكبر.. إن من البيان لسحرا!».

ويزيد الشاعر المهجري زكي قنصل وهو صديق قديم لهُ عن قول صيدح السابق: «ومن هنا كان هذا الطابع الفريد في شعره الذي يكاد يكون وقفًا عليه دون الشعراء».

ويقول الشاعر حسن عبدالله القرشي وهو الآخر صديق قديم له، واصفًا إياه بقوله: «كان فردًا في هندسة القصيدة، وكأنه يرسم لوحة مستكملة عناصر الفن».

والشاعر بلند الحيدري وهو أيضًا صديق قديم له يصفه بأنه: «ذو خصوصية متميزة».

أما الدكتور شكري عياد فيقرر أنه: «أحد أعلام الشعر العربي المعاصر، وإضافة منفردة لتاريخه» ويؤكد هذا كل من الدكتور جميل علوش والدكتور حسن ظاظا.

أما شيخ مؤرخي الأدب العربي في العصر الحديث الدكتور شوقي ضيف فأشاد به أيما إشادة في الفصل الممتع الذي عقده في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر». مؤكدًا تفرده في زمن يرى أن التفرد فيه أمر عسير وشاق، ويرجع ذلك إلى طبيعة عصره الذي قلما يتيح لأبنائه التفرد، وقد شهد لعمر بالتفرد فتفوقه «كما يقول» تفوق غير عادي يتجاوز ظرفًا غير عادي استحق به عمر مكانة غير عادية.

وتلخص دراسة الشاعر الناقد عباس محمود العقاد المسهبة عن دراسة الشاعر إلى «أن عمر أبوريشة شاعر كبير له تفرده، وله خصوصيته، وأن شعره يترجم عصره وحياته على حد سواء».

ويقول الدكتور حيدر الغدير في كتابه «عاشق المجد» عن عمر إنه:

«جدد في شعره من خلال الموضوعات، والحرص على طرافة الفكرة، ومن خلال الوحدة الموضوعية التي برز فيها وتألق، والصورة الشعرية التي كان فيها صيّادًا بعيد المنال، والموسيقى التي التزم فيها في الجملة بالتقاليد المأثورة لأوزان الشعر العربي مع المرونة التي تتيح له التحرك من خلال ثوابتها، وقد كانت تلك أهم أمجاد الشاعر الفنية».

ثم يُضيف الدكتور حيدر الغدير متابعًا شهادته في شاعره عمر قائلاً: «وإذا كان الشاعر يشترك مع الآخرين في هذه الأمجاد فإنه يكاد ينفرد عنهم بمجدٍ خاص هو الحرص على الختام المفاجئ الباهر الذي كان يسميه «بيت المفاجأة».

ويقول أيضًا صديقه الشاعر زكي قنصل الذي عاشره زمنًا طويلاً في أثناء وجود عمر سفيرًا لبلاده في الأرجنتين، وتمتنت الصلة بينهما. فيقول في معرض ذكرياته عنه:

«إن الذكريات يزحم بعضها بعضًا فلا يعلم المرء من أين يبدأ الحديث عن عمر أبوريشة، وهل أستطيع أن أخوض فيه دون أن أودع غصّة وأستقبل غصّة».

ثم يقول عنه: «كان شاعرًا من الطراز الرفيع يتمتع بثقافة واسعة لا تقتصر على العربية بل كان ملمًّا بالكثير من ثقافات العالم وآدابها، ومن هنا كان هذا الطابع الفريد في شعره الذي يكاد يكون وقفًا عليه دون الشعراء.

وحينما يتحدث عنه سفيرًا يأتيك بالعجب عن نجاحه الكبير في هذه المهمة الكبيرة.

وينقل الدكتور حيدر شهادات كثيرة عما قيل عن عمر وشعره، ويتوقف عن شهادة للشاعر عبدالله يوركي حلاق الذي عاش إلى جانب صديقه عمر وشارك معه في بعض الأمسيات فيقول مقدمًا لشهادة حلاق بقوله: «لذلك كان عمر شاعر منابر من الدرجة الأولى لجرأته واهتماماته العامة وشعره الرائع، وإلقائه المتفرد».

ثم يأتي لنا بعد هذا التقديم بشهادة حلاق الذي يقول أيضًا عن عمر:

«وراح عمر ينشد فرائده البكر في الحفلات القومية، فيهز المنابر، ويخلب الألباب، ويقيم الحفل ويعقده، وكان يؤثر تأثيرًا سحريًّا عجيبًا في سامعيه، وعشاق

أدبه، فبنبرةٍ من صوته الجهوري، أو بنظرة من وراء نظارتيه، كان يدفع الأيدي إلى التصفيق، والحناجر إلى الهتاف، وكثيرًا ما دفع مستمعيه إلى التظاهر ضد الانتداب والمنتدبين، فكان يقول الحق، ويدافع عن الحق، دون أن يخشى لومة لائم، أو يخاف من سطوة ظالم، فالشجاعة النفسية فيه تحدوه إلى الصراحة، وتجعله ينتقد المفسدين، ويثور كالبركان على المستبدين الغاصبين».

ويردف الدكتور الغدير قائلاً:

«هذه الشجاعة التي تحدث عنها الأستاذ عبدالله يوركي حلاق جعلت من عمر شاعرًا جريئًا، وسياسيًّا مُقاتلاً، وجعلت له في كل ميدان قنبلة، وفي كل معركة غنيمة وانتصار» وهذا ما نقله الدكتور الغدير مما قاله صديق الشاعر عمر؛ الشاعر أحمد الجندي الذي طالما مرَّ ذكره في هذه الفصول.

ويذكر الدكتور الغدير موقفًا من المواقف الجريئة في فصل جعل مواقف عمر الجريئة عنوانه، فيقول حينما ألقى عمر قصيدته الرائعة في رثاء المجاهد ابراهيم هنانو يرحمه الله والتي مطلعها:

وطـــنٌ عــلــيــهِ مــن الــزّمـــانِ وقـــارُ
الــنّـــورُ مِـــلءَ شــعـــابــهِ والــنّـــارُ

وفيها من النقد أشده، ومن الجرأة مبلغها، ومن الغضب عاصفة على السياسة والسياسيين وكان في الحضور السياسي الكبير سعد الله الجابري؛ وكان نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للداخلية، وفي نهاية الحفلة تقدم سعد الله الجابري رحمه الله من الشاعر الغاضب الثائر، وقبّلهُ قُبلة الرضا والإعجاب وقال له: «إن شعرك يا عمر يقوم اعوجاجنا شئنا أم أبينا»، وتلك قوله حق من رجلٍ كبير في موقعٍ خطير لشاعرٍ صادقٍ مخلص وجريء.

ويرى الدكتور سامي الدهان أن عمر بعد عودته من الدراسة في بريطانيا مال كل الميل إلى الشعر كسابق عهده؛ ينظم رائعة لكل مفاجأة توحي إليه، أو تهز كيانه، وكان أكثر ما يهزه موت الزعماء من قومه سياسيين كانوا أم أدباء، أو مجاهدين فدائيين، فيقف لرثائهم واحدًا بعد واحد بما عز نظيره من الرثاء والتغني بالبطولات والقيم.

ويرى الأستاذ عبدالله بلخير وهو صديق قديم لعمر أيضًا بأن قصائده الوطنية كانت أهازيج وصواعق ورعود وبروق تدفقت على «الشعوب العربية الجافة البائسة فألهبت عواطف أبنائها وهم يتلوَّون تحت نيران الاستعمار والصهيونية».

ويرى بلخير أيضًا أن تلك القصائد هزت حالة الموات في الأمة العربية من محيطها إلى خليجها، وأشعلت نار الغضب فيها، ثم يصف صوت عمر بأنه «زئير شاعر جريح.. وأنه ظل يهز الأمة بشعره ويبارز شعراءها الأكفاء وهم قلة».

أما الأستاذ الدكتور شاكر الفحام فيقول عن عمر: «إنه شاعر عبقري من شعراء العرب الكبار، أوتي موهبة الشعر، وتمكن من ناصية البيان فغنى أجمل الأناشيد وأروع القصائد».

ويصف الشاعر فاروق شوشة قصائد عمر الوطنية بأنها «بمثابة طلقات الرصاص التي تُطلق على المستعمر وعلى التخلف العربي».

ويشيد الأستاذ عرفان نظام الدين كثيرًا بوطنية عمر في شعره ومواقفه فيرى أنه: «لم يكن مجرد شاعر يقرض الشعر، بل كان يمثل ضمير الأمة، ووجدان الناس، ولهذا أعتبره أعظم الشعراء العرب في العصر الحديث، ولم يكن الشعر سوى وسيلة دفاعه عن الحق، وتعبيره عن رأي الجماهير، وكأنه يقرأ التاريخ العربي الحديث ويعشق همومهم ومآسيهم يومًا بيوم، وللوطنيات في شعره مكان الصدارة والأولوية،

فهو في شعره صاحب رسالة تجمع بين التوجيه، وانتقاد الأوضاع السيئة، وإثارة الحماس والدعوة إلى الجهاد، والتنفير والتحذير من الخنوع والتواكل، وتأكيد دور العقيدة والإيمان، كما أنه كان شجاعًا في الانتقاد».

ويعود صديقه الشاعر المهجري زكي قنصل الذي لا يملُّ الحديثَ عن شاعره عمر فيقول: «كان عمر شديد الإيمان بوحدة الوطن العربي، سريع الانفعال لما يقع فيه، أو يطرأ عليه من أحداث وقد بدا ذلك جليًّا في آثاره الشعرية، ونستطيع أن نقول بدون مغالاة إن شعره يكاد يكون تاريخًا لحركة التحرر العربية منذ أوائل هذا القرن، وبخاصة لأحداث القطر السوري، ولا يزال الكثيرون حتى الآن يرددون شعره في مقارعة الانتداب الفرنسي، وفي الدعوة إلى خلع نير الاستعمار واستعادة المجد العربي».

ومرة ثانية نقف مع شهادة لأستاذ النقد العربي الدكتور شوقي ضيف الذي يعجب أيما إعجاب بشعره الوطني الذي «يثير العزائم ويحارب الاستعمار، ويقارع الطغيان فيبدو له وكأنه: «مجداف أهدي إلى سورية ليحرك سفينتها ويقودها في محنتها حين كانت تغوصُ أقدامها في ذل الاستعمار الفرنسي».

ويضيف الدكتور ضيف رأيه في المادة التصويرية عند عمر أبوريشة في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر» فيقول:

«ما نزال نرى مشاهد رائعة عند هذا الشاعر، الذي تشبه قصائده الطويلة أدقّ الشبه السياحات الكبيرة، ونقصد سياحات الخيال، وهي سياحات تملؤها بالمتعة، تملؤ نفوسنا وقلوبنا، وتدفعنا إلى أن نقرأ فيه، لأننا نجد فيه غذاءً فنيًّا، لا نلبث حين نقرأه، أن نتمثله، وأن نشعر بأنه يضيف إلينا ثروة جديدة، لا ثروة خيالية فحسب بل أيضًا ثروة نفسية، فهو يقوي من عزائمنا ويشد من إرادتنا».

ويتواصل القول عند د.شوقي ضيف فيقول: «ومن الغريب حقًّا مع هذه السعة في التصوير، أن اللفظة قل ما تسقط عنده، فهو ينظم في لغة رصينة جزلة، وقد ترقُّ فتعذُب، ولكنها لا تسفّ، ولا تهبط»..

هذا غيض من فيض مما قيل في عمر وشعره، كان معظمه لديّ مُفرّقًا، ورأيت جمعه هنا من الكتاب الجامع «عاشق المجد» للدكتور حيدر الغدير ليسهل الرجوع إليه لمن شاء، ولكي لا أُتّهم بانحيازي لشاعري عمر والتعصب له، فما قلته عنه أصبح أقلهُ هنا لأنني اكتفيت بهذه الشهادات التي أعتز بها لتطابقها شبه الكامل مع ما كتبته ونشرته عن عمر رحم الله عمرًا وزاده وزادنا من رحمته.

وإنه لإجماع مبين على عبقرية عمر، ونبوغه الشعري، المُلهَم المُلهِم الفذ، هذه العبقرية، وهذا النبوغ، الذي يتجسد في العطاءات البكر هي التي تمثل إضافات جديدة، وإبداعات رائعة تضاف إلى روائع شعرنا العربي وإبداعاته - كما أثبتت هذه الشهادات - وأمثالها كثيرٌ كثير، ومع ذلك فإنني سأحاول من خلال هذه الدراسة التذكير والكشف عما ذهب إليه النقاد والدارسون في بيان سمات شعر أبوريشة وصفاته ومنزلته، وتلك الطاقات المذهلة التي اختص بها، فكان المبدع الذي لا ند له وهو يجدد في المعنى والصوت والخيال، ويملأ دنيانا، ويغني أجيالنا بشعر مزيج من الحس المرهف، والنغم الحلو، والبيان المشرق والتصوير الفني الذي يقوم على الإبداع والابتكار الأصيل - كما مر -.

وإذ تتفق الآراء على مكانة هذا الصوت الشعري العملاق، وقدرته القادرة التي أبدعت شعرًا، لا عهد للشعر العربي به - كما رأينا -، فإن عمر قد هز القلوب، وأخذ بالألباب بسحره النفّاذ. وبيانه الرائع العجيب، فإن دراسة أعمال هذا الشاعر الكبير، لا تزال تدفعنا إلى مزيد من التعمق، والتأمل في قراءته ودراسته، ونحن

نكشف في كل مرة جديدًا مُبهرًا، يغني الشعر العربي، ويكسب الشاعر عُلوًّا في المنزلة والمقام، فيتبوأ قرير العين ذروة قمة النبوغ والإبداع.

ولنقف مجددًا مع ما قاله دارسه الناقد الكبير الدكتور حيدر الغدير في كتابه «عاشق المجد.. عمر أبوريشة شاعرًا وإنسانًا».

«إن مفتاح شخصيته هو الإباء والكبرياء، لذلك عاش عزيز النفس نزّاعًا إلى التمرد، مولعًا بالحرية، غيورًا على الدين والأمة، ويحمد له أنه رد للشعر كرامته، فقد أبى أن يكون الشاعر النديم فضلاً عن الشاعر المرتزق، لذلك خلا ديوانه من المديح، ولذلك كان شعره – معظم شعره – تجسيدًا لرجولته، وتعبيرًا عن همومه الخاصة، وهموم أمته العامة».

وهيهات أن ينسى ذكر نفسه في قصائده لا سيما الوطنية منها حتى وإن كانت رثاء.

ويقول الدكتور حيدر أيضًا: «عاش حياة عريضة خصبة في الأدب والسياسة والترحال، وفرض نفسه شاعرًا متفردًا لا على مستوى سورية وحدها، بل على مستوى الوطن العربي كله، له ذاتيته وحضوره وتفرده، ومرد ذلك إلى موهبته أولاً، وثقافته ثانيًا، وأسفاره ثالثًا، وظروفه المواتية رابعًا وتجويده لشعره وصقله له خامسًا، إذ أنه كثير النظر فيه حذفًا وتبديلاً وإضافة».. ثم يقول: «إلقاؤه فريد متميز بشهادة لك من سمعه».

ويحلو لي أن أذكر هنا دراسته التي نال عليها شهادة الدكتوراه ما نَصّه:

«وإذا كان الشاعر عمر أبوريشة يشترك مع الآخرين في هذه الأمجاد – ويقصد الغدير أمجاد الشعر كلها – فإنه يكاد ينفرد عنهم بمجدٍ خاص هو الحرص على الختام المفاجئ الباهر الذي كان يُسميه «بيت المفاجأة».

ويقتطف الدكتور حيدر الغدير في بحثه العلمي الذي جعله في كتابه هذا بعضًا مما قلته عن الشاعر عمر أبوريشة في العديد من مقالاتي عنه من دون أن يشير إلى مصدرها، فلقد تعددت مقالاتي عن عمر أبوريشة في مجلات عديدة منها العربي العدد الممتاز ١٩٧٨م والمجلة العربية العدد ١١ السنة الرابعة وفي عدد من الصحف مثل المسلمون، تشرين، الثورة وغيرها.. ومما آسف له أنني فقدت الكثير من أرشيفي بسبب نقل بيتي عدة مرات بعضها في غيابي.

ومما نقله الدكتور الغدير في الصفحة ٨٣ من كتابه «عاشق المجد أيضًا قوله» حتى إن الأستاذ مصطفى عكرمة يقرر أن الذي لديه مما يتصل بها «ويعني قصيدة أمتي أكثر من مئتي صفحة، كما ينقل الدكتور الغدير عني ما قلته عن قصيدة عمر في كتابه المذكور ص ١٥٩ ما يلي:

«ووصف الأستاذ مصطفى عكرمة قصيدة أبوريشة بأنها متكاملة ومنسقة يأخذ كل بيت فيها بيد ما قبله ليظل مرتبطًا بما بعده حتى يصل إلى ختام القصيدة التي أحسبُ أنه كاد أن ينفرد بل انفرد بها في معظم قصائده، فختام القصيدة أو بيت الصدمة كما كان يسميه هو عنده موظف أمين أحسن اختياره وتوظيفه فأحسن هذا الموظف خدمته، فإذا هو باهر كل الإبهار، ممتع كل المتعة، ومثير ملهم على نحوٍ عجيب أو فريد، لقد حرص كل الحرص على تكامل القصيدة ووحدتها وإقامة بنائها من غير نتوءات ولا ملحقات جانبية أو إضافات، فقد كان يرحمه الله ولوعًا بوحدة القصيدة وتناسق أعضائها، إذ كان كل بيت عنده عضوًا في جسد القصيدة، ولكم كان حريصًا على جمال هذا العضو وتآلفه مع بقية إخوانه الذين تتشكّل منهم قصيدته».

وما قلته مما نقله الدكتور الغدير هو توضيح لما كان يقول عمر نفسه، فهو الذي يقول دائمًا: «أنا شاعر قصيدة لا شاعر بيت كما يتوهم الكثير من النقاد، والقصيدة عندي وحدة لا تتجزّأ».

وكذلك يقول الدكتور ميشال جحا بأنه شاعر قصيدة وليس شاعر بيت، والقصيدة تدور عنده حول فكرة محورية محددة ترتكز على اللون والنغم والخيال.

كما أن الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي الذي يقف عند إحدى قصائده فيقول: «يحسّ بأنه أمام عمل متكامل متماسك يمنعه من أن يقتطف شيئًا من أبياتها كما فعل مع سواه فقال:

«ولا يمكننا في مثل هذه التجربة أن نقتطف منها بعض أبياتها كما فعلنا مع قصيدة أبي شادي لتماسك أبياتها تماسكًا يكاد يكون عضويًّا».

ونذكِّر هنا في هذا المجال بما سبق ذكره من أن الأستاذ الشاعر حسن عبدالله القرشي قد وصفه بأنه كان فردًا في تنسيق القصيدة العربية وهندستها.

وبعد هذا – وهو قليل من كثير – هل لأحد أن يتهمني بالتعصب للرجل الذي أحببته وأحببت شعره، وأحسب أنه كان يبادلني ذلك، إنني ومن خلال ما قدمت عنه وما أثبته عما قيل عنه لمقصر في معظم ما يستحقه منا، لكن كما يقال: «أخذ القليل خير من ترك الكثير» وهذا دافعي وشافعي وهو حسبي عن كل تقصير.

****

إطلالة

نحن الآن مع شاعر يلقي قصيدته في مهرجان المعري في مدينة اللاذقية.. العام ١٩٤٤.

الحضور: وفود من كل البلاد العربية..

ملعبَ الدهرِ لو ملكنا هُدانا
لبلغنا من الحياة مُنانا
سبقتْنَا إليكَ أجنحةُ الشو
قِ وشقَّتْ لنا سبيلَ خطانا

أعد.. أعد..

ويعيد الشاب والصوت لا أفصح ولا أندى..

وحنين المجهول أخيلةُ تُنْـ
ـبِتُ من كل صخرةٍ ريحانا
أي زاد سوى الظنون حملنا
وتركنا إلى هواه العنانا
لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الـ
ـله في نشوة الشعور عِيانا

أعد.. أعد.. أطربنا يا عمر.

من هذا الذي وقف يصفق ويقول: أعد.. أعد..

هل أخفت نظارتاه شخصيته عنك قارئي؟!

إنه الدكتور طه حسين.

وشاعرك هذا هو الذي دعاه أبوهاتين النظارتين «شاعر العبقرية والجمال».

وها هو الآن أمامك بقامته المنتصبة الشامخة يلقي من على مبنى الثقافة في حلب قصيدته «أمتي» سنة ١٩٤٨ بعد الجلاء الذي ناضل من أجله بشعره، ومواقفه، وقد سمِّيت تلك القصيدة بالنارية، وها هو الجمهور أمامه وفيه عددٌ غير قليل من كبار المسؤولين العرب الرسميين، وممن تناولتهم هذه القصيدة بأسمائهم صريحة وواضحة، وصب عليهم جام غضبه وثورته الحارقة، أجل الحارقة فقد سرت بين الناس سير النار في الهشيم، وها هي الجماهير أمامك تهتف له كما هتف طه حسين من قبل.. وها هم المسؤولون الرسميون يتميزون غيظًا ويتمايلون متململين مما يَصب على رؤوسهم هذا الثائر المتمرد على ذلك الواقع الأليم الذي أوصلوا البلد إليه، أولئك الذين سيرحلون عن كراسيهم بعد فترة وجيزة جدًّا من إلقاء هذه القصيدة التي طغت موجتها وانتشرت بين السوريين وغير السوريين، ولم تزل تتردد أصداؤها، ويعارضها المعارضون إعجابًا وتقديرًا، كما يستشهد بأبيات منها الخطباء في الوطن العربي كله.

أمَّتي هل لكِ بين الأممِ
منبرٌ للسيفِ أو للقلمِ
أتلقاكِ وطرْفي مطرقٌ
خجلاً من أمسكِ المنصرمِ
ربَّ وامُعتصماهُ انطلقت
ملءَ أفواهِ الصبَايا اليُتمِ

لامـــســـتْ أســـمـــاعَـــهـــم، لـكـنـهـا
لـــم تـــلامـــسْ نـــخـــوةِ المـعـتـصـمِ
لا يُـــــلامُ الـــذئـــبُ فـــي عـــدوانِـــهِ
إن يـــكُ الـــراعـــي عـــدوَّ الـغـنـمِ

ولننظر ما الذي جدّ في حياة هذا الشاعر؟!

إنه يتقن الآن سبع لغات حية أخرى - كما قال - بالإضافة إلى لغته الأم، ولغة دراسته الإنكليزية، وأصبح دارسًا متعمقًا لعلمي النفس والأحياء - كما يقول - فهو رجل علم وأدب في هذه اللغات كلها، إنه إذًا العالم الذي يكتشف موجودات الكون، والشاعر الذي يخلق الجديد في عالم الأدب والفن ويقدم لك ما ليس موجودًا فيه.

أغلقت فرنسا المستعمرة أبواب الرزق في وجهه، وسدّت عليه أسبابه.

عمل في الحقل فلم ينجح، لأن في داخله شيئًا أو سرًّا ما يقول له: إنك لم تخلق للحقل يا عمر.

ولم يوفق في استثمار علومه، وليس له أن يوفق كذلك أيضًا.

فلقد هيأته الأقدار من خلال ذلك لغير ذلك.

والسلطة الفرنسية التي كانت تستعمر البلد آنذاك عذّبته، وشردته، واستمرت في إغلاق أبواب الرزق دونه، فكان لابد له من أن يسرع في خطواته على درب الشعر وهو المهيأ له أصلاً ليؤدي واجبه، ويبلغ رسالته جهادًا قوميًا، وكفاحًا إنسانيًّا، أجلّ جهادًا قوميًّا، وكفاحًا إنسانيًّا.. ورسالة تجديد وإبداع.

«والشعر هنا - كما يقول الأستاذ أحمد الجندي في كتابه شعراء سورية - كما مر معنا - في معرض حديثه عن عمل عمر في مجال الأدب «أداةٌ طيّعةٌ، ووسيلةٌ

فعّالة لا يقف دون أثرها شيء.. فكانت القصيدة تلقى وتنشر، وسرعان ما يتداولها الناس، ويتلقفها الواحد من فم الآخر حتى تطغى موجتها على المدينة كلها، وكان لعمر في كل ميدانٍ قنبلة، وفي كلّ معركةٍ غنيمةٌ وانتصار».

ساهم عمر في أغلب الصحف السورية واللبنانية، ودوّى صوته في آفاق عالمنا العربي في كل مناسبة.

دوّى صوته، واقترن اسمه بخلود هذه الأمة التي هيأ الله لها أن يكون نجيبًا من نجبائها، ونابغة من نبغائها الأفذاذ، مهر الخلود توقيعه، بما فتح لها من صفحات مجيدة في أدبها العربي الخالد، مضافة إلى سفرها العظيم.

ولقد ارتبط الشعر العربي ارتباطًا عضويًّا باسمه في النصف الأول من القرن العشرين، ووضع بصماته واضحة على كل من كتب الشعر في تلك الفترات، كما فتح صفحة جديدة لهذا الأدب في النصف الثاني من هذا القرن بما جدده في شعرنا العربي، وبما أعطاه من نماذج عزَّ لها النظير بعد أن توسعت ثقافته بما تهيأ له من اطلاع حي على آداب الأمم الأخرى بلغاتها التي أتقن العديد منها وعاش مع أدبائها.

كان عمر صاحب الكلمة الجارحة كحد السيف، في حين كان السيف في يد بعض مُدّعي الوطنية إكليل وردٍ وغار يهدى للغزاة المستعمرين، حتى إننا سمعنا ممن عاشوا تلك الفترة وشاهدوها أنه كان من رحّب بدخول فرنسا المستعمرة إلى سورية الحبيبة وأطلق عليها «الأم الحنون» ودبج لها المدائح، بينما كانت لعمر أيام حافلة بالمعارك الأدبية، كما كانت له مواقف لم تزل حديث الباقين من زملائه، وممن تتلمذ على شاعريته يتسامر بها السامرون، ويتناقلها المعجبون على الرغم من بعد العهد وتوالي العقود.

أذكر أنني كنت في زيارة للشاعر اليمني الكبير عبدالله البردوني وكان في مجلسه عدد من الشعراء، كان يقرأ أحدهم قصيدة من شعره، وعندما انتهى قال لي البردوني: «بمن تذكرك هذه القصيدة يا مصطفى؟» قلت: «إن تأثره واضح جدًّا بشاعرنا عمر أبوريشة». قال: «أحسنت» قلت للشاعر: «هل قرأت كثيرًا لعمر؟ فقال: «لا.. لكن ما قرأتهُ له ترك فيَّ ما لم يتركه سواه»، قال هذا في حضرة البردوني غير آبهٍ لغيرة البردوني الشديدة.

إن لعمر عددًا غير قليل من القصائد التي حملت إلينا أبياتًا مفردة منها ما كان من تلك المواقف النضالية العمرية التي تعود بنا الذاكرة إلى ذلك العهد، وما كان منه ومن عمرها، فلم يكتب عمر الشعر لهوًا وعبثًا، وبخاصة في تلك الحقبة من النضال ومقارعة المستعمرين والتصدي لأذنابهم كما يقال، فالشعر كان عنده رسالة ومسؤولية، كما كان محطات روحية يتنفس عندها أولئك المجاهدون الذين وجدوا في شعره طموحاتهم، فحملوا رسالته، وجعلوها أمانة في أعناقهم. وحسبهم قوله:

تقضي الرجولةُ أن نمدَّ جسومَنا

جسرًا فقل لرفاقِنا أن يعبروا

ومدرسته هذه كانت قلبًا دفع دمه حارًّا وسخيًّا دفّاقًا في جسم شعرنا العربي الحديث من بعد سباته عبر عصور الانحطاط، أو في نتاج المتشاعرين الذين لم تكن تتجاوز أصواتهم حلوقهم، ولم تسافر إلى أبعد من أنوفهم، إنني أعتقد مع المعتقدين أن مدرسة عمر هذه هي التي عاشت وبقيت حيّة، وستعيش أكثر من بقية المدارس الأخرى، فهي التي اعتمدت الواقع وانطلقت من خلاله تنقل الناس إلى العالم الأفضل بخطى واثقة، وبمقتضى خطة اشتركت في رسم معالمها تجارب الإنسان عبر مسيرة الحياة في الكثير من مجالاتها، فلقد كان مزودًا لها بما كان من

نشأته الأولى، وبما وعاه من ثقافات وليس معنى هذا أنني أنكر عطاء من أعطى وأبدع، لكننا وفي اعتقادي، وبما تبيناه من شهادات به وبشعره لم نجد من أعطى من الشعراء وعلى مستوى الإبداع كما أعطى عمر واستمر في عطائه، والأمر نسبيٌّ أيضًا، فلم تكن عطاءاته متزايدة كما كنا نتوقع بل ربما كانت على العكس من ذلك، في حين أن جيد عمر أكثر من جيد أي شاعر آخر - إذا لزمت المقارنة - إذ تكاد ألا تنحصر الظواهر الحياتية التي صورها أدق تصوير، فقد عالج نزعات النفس، وأظهرها على لوحة شفافة رائعة الألوان منسجمة الظلال بكلمات حية مطمئنة مؤنسة ودود، وهيهات أن يكون قد غادر جرحًا من جراح أمته إلا ومسح عليه، أو دل على أساته إذا لم يتمكن من أن يعمل مبضع الجراح فيه أليس هو القائل:

درن النفس ليس يُمحى إذا لم
تجرِ فيه مباضعُ الجرّاحِ

وما أجمل الألحان التي صدرحت بها حنجرته الذهبية بأوتارها المرنة فأسمعت عشّاق الشعر أعذبها، وأسلسها وأيسرها نفاذًا إلى النفوس.

أما مع التجارب الإنسانية فله معها جولات وجولات تُميزها مسيرته المفردة في معالمها الفسيحة التي كبا على دروبها الكثيرون[1] ولا أدل على هذا من قصائده التي توشي ديوانه، أو مسرحياته المخطوطة التي سعدت بالاطلاع على بعضها وغاب عنا ولم ينشرها لأسباب كان في اعتقادي الذي صارحته به أنها واهية، ونتمنى بعد أن زالت أسباب عدم نشرها أن ترى النور قريبًا.

لقد أسبغ عمر على ما أراه من جمال في الحياة وفي النفوس فزاده جمالاً، وعلى الرائع البهيج فزاده روعة وبهجة.. وهذا شأنه فيما سيرد ذكره، وما سيتم اختياره.

---

(١) ارجع إلى رأي الأستاذ الجندي في هذا المجال.

أما المتعة الفنية، واللحنُ الطروب، والكلمة الطيبة، والفكرة النقية المسؤولة فهي عُدتّه في نقلك إلى العالم الأفضل، وأية قصيدة له ما زادت القارئ غنى، وأشاعت في نفسه المتعة؟!

تقرأ شعره فينطلق بك في رحلة ممتعة في عوالم خياله الرحيبة، فتشعر أنك في دنيا غير الدنيا، وعالم غير العالم وتشعر أنك تصل معه إلى هذه العوالم ربما بأبيات قليلة، وتلك هي عبقريته الفذة.

وتحين منك التفاتة صغيرة فترى أن الواقع بجانبك، أو قريبٌ منك، وأنك قد انطلقت معه في الرحلة الممتعة وأنت جاثم بين يديْ شعره.

إن الواقع والخيال عند أبوريشة متلازمان تلازم جناحي الطائر.

أما الوضوح فإن عمر واضح حتى في كثير من رمزه، في حين أنه لا ينسى أن يطلب منك الملازمة والتريث للوصول إلى ما خبّأه لك من المعاني المبتكرة التي يشيع الوصول إليها في نفسك متعة لا تجدها في الوضوح، فهو أحد الشعراء القلائل الذين استطاعوا أن ينقلوا إلى شعرنا العربي أسمى ما في الآداب العالمية بكفاءة ومقدرة من دون أن يؤثروا ذلك على جمالية شعرنا العربي ورهافة الحس عند قارئه، ومن هنا فقد كان شعر عمر أبوريشة المرآة التي تنعكس عليها صورة مجتمعه الذي يعيش في ذهنه «خزانه الأكبر» تلك الصورة التي سعى زمانًا كي يرينا إياها على أرض الواقع، فلقد سعى جاهدًا إلى تحقيق ذلك من خلال ما أبدعه، وليس من خلال ما يثيره المجتمع ويحاول فرضه فحسب، وأحسب أن ذلك كان شاغله ودأبه.

والشاعر الحق لا يحدُّه زمانٌ ولا يقيّده مكان.

تقرأ مع عمر التاريخ.. فيوغل بك ويوغل بعيدًا بعيدًا، فتعيش معه الماضي واقعًا حيًّا وكأنه بعث من جديد، فتحياه لحظة لحظة، وحركة حركة، فلا غبار عصور، ولا أكدار ظنون، ولا حقد جانح، ولا هوى جامح بعيدًا عن التهويمات والأخيلة الغريبة وما يلزم معها من تأويلات وشروح تستغرق من القارئ وقتًا هو من حق تفاعله وانسجامه مع ما أثاره فيه شعر عمر.

يقول الأستاذ محمد قجة وهو من عارفي الشاعر عمر أبوريشة ودارسيه، ومن مدينتهما حلب في معرض دراسته عن الوطن في شعر «عمر أبوريشة» يقول:

«وقد تلقى أبوريشة تعليمه في أسرة عريقة، في عروبتها وثقافتها الإسلامية، وعمق تجربتها الصوفية، فكان له حظ وافر من استيعاب التراث الحضاري الثري للأمة العربية، وربط هذا التراث بالقضايا المعاصرة التي عاشها». ويتابع الأستاذ محمد قجة عن موقف عمر من التيارات والاتجاهات التي اصطخبت في تلك الفترة فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى التي كانت مرحلة مخاضٍ فكري واجتماعي حول القضايا العامة. فيقول:

«ولم يستطع واحد من هذه الاتجاهات والتيارات أن يستقطب عمر أبوريشة ليكون الناطق باسم هذا الاتجاه أو ذاك، بل نجد في شعره ضميرًا للأمة بأوسع المعاني وأعمق الدلالات».

اقرأ قصيدة «محمد» أو «المقدمة» كما سماها تعش معها النبوة الحقة الصافية التي تؤدي رسالة سماوية تنطلق بالإنسان من عالمه الأرضي إلى عالم الغيب والشهادة بكل الحب والرحمة.. بعيدًا عما يحسب المبالغون أن مبالغاتهم وجنوحهم إنما هو زيادة محبة لهذا الرسول الكريم صلوات ربنا وسلاماته عليه.

لقد حرّف أحدهم قول الشاعر:

لــــــولاك يـــا ســـيـــدَ الـــوجـــودِ

مـــا طـــابَ عـــيـشـــي ولا وجـــودي

فقال بدلاً من كلمة طاب وهي التي تصور، بل وتأكد أن محبته التي هي من محبة الله تعالى واتباعه هما ما تطيب بهما الحياة، ويقول شاعر آخر مخاطبًا الرسول ﷺ بقوله:

حـتـى امـتـلـكـتَ مـقـالـيـدَ الـسـمـاءِ على

رأسِ الـنُّـبـيـيـنَ مـن عـلـمٍ وعـرفـانِ

ترى لو كان قُدر لأحد من صحابة الرسول ﷺ أن يسمع هذا الكلام وهم الصفوة المختارة من المؤمنين الذين بلغوا رسالة الإسلام للعالمين، ترى ماذا يقول لهؤلاء وأمثالهم، هل هذا ما أُرسلَ به إليه، وإلى من آلت هذه المقاليد من بعد وفاته المنصوص عنها في كتاب الله عزَّ وجل، إن نبوة محمد ﷺ إنما هي نبوة حقة بكل ما يميزها من حمل رسالة ربه للعالمين.

ورسالة تحمل للعالمين رحمة وصلاحًا ليس يصلح معها تلك المبالغات فمحمد ﷺ تختصر صفاته بأنه، بشر رسول، «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولا» الآية ٩٣ الإسراء.

لقد اصطفاه الله لها بكل جلالها وعظمتها وسموّها وشمولها منطلقة من الواقع الحياتي وإنسانية الإنسان في جميع مجالات حالاته. لإقامة شرع الله بخلافته في أرضه.

لقد صور عمر الرسول ورسالته في تلك القصيدة وأخواتها بكل الصدق، وقدم للناس صورًا حيّة أخّاذة، ولم ينس أن يبين لنا الجمال الحق مع ضده أو إذا شئت الجاهلية وأهلها وعاداتها، مع عدالة الإسلام وسماحته وتسامحه.

يقول النّاقد شوقي ضيف مقارنًا بين قصيدة وقصيدة «مُحرم» في الرسول ﷺ:

«وبذلك لا يجلب شريط الموقعة كل ما كان فيها على نحو ما مر بنا عند «محرم» في صوفه للموقعة نفسها، وإنما يختار في خفةٍ، وبيدٍ يقظةٍ، ولا يلبث أن يوشح ما يختار وينتخب بالصور والاستعارات، فيلمع الشعر».

ومن يَعُد - كما ذكرنا - إلى «تاريخيات عمر» نجده يقف مع القارئ في محطات يشعره أنه يحياها مع أهلها ومعه، وقد يشير إشارات بسيطة إلا أنه من حقها أن تغني بتلميحها عن الايضاح الذي كثيرًا ما كانت ينفر منه عمر في غير هذه القصائد الطوال التي وظفها خير توظيف فكانت خير دليل على تفوقه وتوفيقه فيما أراد منها، وللشعر معها.

في قصيدته «خالد» يدق باب روايات الزمان دقًّا لطيفًا فيوقظها لتنتصب أمامه وأمامنا معه بكل ما لديها مما تؤثر أن تبوح به صادقة في قولها، أمينة في نقلها.

واستمع معي إليه وهو يحلل لنا عمق رأي الخليفة الفذ العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه حينما نحّى عمر خالدًا عن قيادة الجيش في أجلى مظاهر نصره وفتحه العظيم لبلاد الشام فيقول:

فنحاه الفاروق فانضمَّ إلى الجنْـ

ـدِ فخورًا بعزة الإذعانِ

وإذا راضـــت الــعــقــيــدةُ قــلــبًــا

فــمــن الــصــعــبِ أن يـــكـــونَ أنــانـــي

ولإعجابه بهذا الموقف الإيماني الحق يعبر عنه مرة ثانية، لكن هذه المرة بلسان خالد بن الوليد هذا المؤمن الحقّ والفاتح العظيم:

إنــا نجـاهــدُ كــي يـرضـى الجـهـادُ بنـا

ولا نجــاهــدُ كـــي يـــرضـــى بـنـــا عـمـرُ

وأمثلة هذا التحليل نجده أيضًا في قصيدته «جان دارك» وغيرها، فكما قلنا سابقًا إن ذاك شاغله وهذا دأبه إذ على القارئ أن يشق طريقه بين المقاتلين الذين حشدهم عمر بين يديه حتى يتمكن من معرفتهم التي قد أشار إليها عمر، ورسم ملامحه له.

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر»:

«وأنت تراه قد ألم بالموقعة، وكأنه يسقط هنا وهناك يلتقط خبرًا يلوّن به أجنحته، وهو طائر رشيق لا يستحضر من الأخبار إلا أطرفها وأروعها».

وللأمانة أقول: إنني كنت أريد أن أحذف المزيد مما حذفته من كل ما كنت قد كتبته عنه وأنا الآن متمسك بكل كلمة قرأتها، أو وقفة وقفتها معه أو مع شعره أو جلسة كانت لي معه جمعتني به - وما أقلّها وأكثرها، مخافة أن يقول إني متهور في حبه لعمر وإعجابي بشاعريته التي جعلتني أبالغ فيما ذهبت إليه مبالغة أخرجتني عن الدقة أو الموضوعية، كما سرعان ما أجد نفسي أني لم أقل إلا ما قد قاله من هم أعرف مني به وبشعره معرفة معايشة وتعامل ووجدت أنني أتهم نفسي لكن بالقصور، وكل ما قد يقال عني إنني مبالغ فيه وجدته لا يقاس بما قاله من سبقوني إلى محبته ومعرفته من أكاديميين ومتخصصين - وأنا قد اعترفت للقارئ

الكريم منذ البداية أن دراستي هذه إنما هي انطباعية موثقة وهي دراسة شاعر لشاعر يرى أنه ما تجاوز بعض الذي يستحقه هذا الشاعر الفذ، وأزعم أن من يتهمني بذلك لم (يُبتلى) بما ابتليت به لعقود طويلة من محبة عمر.. كل عمر.. «والحر من عذر».

****

عمر والتجديد

خواطر جمة ألحت علي لتسجيلها وأنا أقدم بهذا الفصل من فصول هذه الدراسة الانطباعية في مجملها وأعني التجديد عند عمر منها وأهمها:

أنهُ لماذا هذه الأمة هي المقصودة دون سواها بما يحاك لها.

فمن محاولات لتحريف قرآنها كتابها المبين إلى أحقاد تثار على سلامة عقيدتها، إلى وضع أحاديث مكذوبة على لسان رسولها الكريم الذي ما نطق عن هوًى قط، ولا قال غير الصدق والحق، وثالثةُ الأثافي محاولات تهديم لغتها بعامة وشعرها بخاصة وإلى النيل والتعريض بقيمها وعظمة فتوحاتها الإنسانية الرحيمة، كما تصورها كتب المغرضين الذين امتلأت كتبهم بما يبث الشك برسالة تلك الفتوح، ونشر عدالة الإسلام رسالة رب العالمين ورحمته للعالمين جميعًا.

ولقد كتبت كتبٌ كثيرة تردُّ على هذه الافتراءات وتُفنِّدُ ما جاء فيها من مزاعم سواءً كانت كما يبررها أنصارها إنها من غير قصد، أو ما ثبت أنها بقصد مما لم تعد مراميه خافية على كل مخلص للحقيقة، غيور عليها.

والشعر أحد أهم ما حفظ لهذه الأمة لغتها التي تشكل عاملاً مهما أساسيًّا في وحدتها وتوحيدها، فعانى الشعر هجمات وهجمات على عروضه ورويه وفصاحة لغته وسلامة النطق به وما إلى ذلك من ميزاته الجميلة الفاعلة في النفوس بما تثيره فيها من مشاعر انسانية، وإباء وكرامة يلمس قائله صداها الجميل المستمع والقارئ على حد سواء.

ولقد كان لي أن أشارك في ندواتٍ ومهرجاناتٍ كثيرة في معظم أقطار وطننا الكبير فكنت أشعر أنني بين إخواني وزملائي في بلدي الصغير لما ألقاه من تفاعل وتفهم يقيم بيننا كل معاني الأخوة والحب على بعد الديار، إذ لا شك في أن لغتنا العربية الحبيبة وحدها التي تشكل نسيجًا مميزًا بين لغات العالم، وحسبها أن جاء بها وحي الله الذي أنزله رحمة للعالمين جميعًا، وأنها لغة خير خلقه الوحيدة، وهي التي يخاطب بها الفائزين برضوانه.

ولما كان كتاب الله محفوظًا بحفظه فقد باءَت بالفشل كل محاولات تحريفه أو تبديل لفظةٍ أو حركة من حركات كلمة واحدة منه، ولأن اللغة التي يقرأ ويفهم بها فقد كثرت المؤامرات على هذه اللغة المقدسة للحد من فهم هذا القرآن الموحد لهذه الأمة في أنحاء المعمورة كلها، فقامت الدعوات لنشر العامية والكتابة بها، ترافقها دعوات ودعوات للنيل من عروض شعرنا وهو ديواننا الخالد، وترك رويه الذي كثيرًا ما يصل تأثيره في النفوس إلى أوجهِ فيفعل فيها فعل السحر.

ومما يؤسف لهُ أشدّ الأسف نجاحُ كثير من الدعوات في إبعادِ أجيال هذه الأمة عن لغتها الواحدة الموحدة فشاع الكلام باللهجات العامية التي تختلف باختلاف الأماكن الصغيرة في البلد الواحد ما بين ريفه ومدنه، فما بالُنا في أنحاء هذا الوطن العربي، ناهيك عن أرجاء عالمنا الإسلامي الذي نجد كثيرًا من أبنائه يتقنون العربية ويعرفون تراثها إتقان علمائها ومعرفتهم، ومنهم من أصبح عضوًا بارزًا في مجامعنا العلمية والعربية.

الدعوات إلى هجر هذه اللغة وإبعاد الأجيال عن شعرها وتُراثها تعددت أشكالها، واختلفت في ملامحها، ولكنها كانت متفقة في غاياتها الخبيثة المتمثلة بتحطيم هذه اللغة الخالدة، التي هي أهم مقومات هذه الأمة.. أمة الخير والرحمة للعالمين بإقامة الشرع الذي أنزله الرحمن الرحيم بهذه اللغة الكريمة.

ونعود للقول: «إن الدعوة الماكرة إلى التجديد في الشعر بهجر عروضه وقوافيه لم تعد خافية أحقادها على كل متبصر غيور، فقد تكشفت أسرارها، وظهرت نوايا أصحابها برغم سيطرة الكثير من دعاتها على أجهزة الإعلام بالمساحات الواسعة من مجالات نشاطها كالإذاعة والأفلام والمسلسلات، وحتى الإعلانات المسموعة والمقروءة، فندر أن تسمع من يتكلم العربية السليمة، أو أن يكتب بها ولو أسطرًا قليلة دونما خطأ في اللغة أو في الإملاء.

فالتجديد الذي تحتاج إليه الأمة في نهضتها إنما يتجلى في بعث الروح في حالة السبات التي فرضت علينا في غفلة من الزمن لاستعادة شخصيتنا الفاعلة، وتحقيق وجودنا وخيريتنا من جديد.. إنه وجود الذات العربية في الأمة العريقة بتاريخها وأمجادها وحضارتها الإنسانية التي حفظتها لغتها الخالدة، وهذا الانبعاث المنشود والمأمول أبعد من أن يكون له أدنى صلةٍ أو تلاقٍ بتلك الدعاوى المقنعة التي بات واضحًا أنه لم يكن القصد منها سوى إزالتنا من الوجود.

إننا ندعو إلى مراجعة متأنية ونظرةٍ عميقة، وغاية مخلصة ونبيلة للعودة إلى تراثنا الخالد، ونفض ما علق عليه من حقد الحاقدين، ولؤم الماكرين، وإظهار عظمة هذا التراث الحي الذي أبعدت عنه أجيال هذه الأمة لندحض بذلك دعاوى أولئك الناعقين العاملين في كل مجال على نسف تراثنا الخالد واقتلاعه من جذوره التي يرفدها شعرنا العربي الأصيل، وماذا يبقى لأمة تعيش بلا تاريخ ولا جذور؟!..

قدمنا بهذا لنرى أين يقف عمر أبوريشة كشاعر مناضل لبعث أمجاد هذه الأمة، وما كان من أمر تجديده في شعرها الذي علّمه الله جل شأنه - لحكمة منه - إلى نبغائها الخالدين.

لقد استعد عمر لذلك التجديد، فأعد له ما يلزم من مواد كفيلة بإنجاز بنائه على أتم ما يكون الإنجاز من دون أن يرفع المعول الذي طالما استخدمه غيره بقصدٍ

أو بغير قصد، لقد اختار عمر المكان المناسب لبناء ما يريد، وشرع بعد ذلك يؤسس ويبني مؤديًا بذلك مهمته الجديدة الجليلة، فأتقن وأبدع في الوقت الذي خابت جهود أولئك الذين لا يجيدون غير الهدم، فكانوا كمن يقيمون في الهواء ما لا طاقة للهواء بحمله متذرعين بآراء وأفكار بهروا بها ليبهروا ببريقها الخادع غيرهم.

إن عمر لم يخض في تلك الآراء التي تعددت وتباينت إن في السياسة أو في المدارس الأدبية التي راجت رواجًا كبيرًا، وقد كان يشير فيما قاله إلى ما تبناه من غير أن يتمسك برأي ما خلا ما بينه في قصائده عن الشعراء النجفي وشوقي وحافظ إبراهيم، وبما شنه على بعض مشاهير من المتشاعرين الذين امتطوا شعرهم وسخروه لمصالح وأهواء زائلة زائفة، وحسبه أنه كان يقدم البديل الحق، ويشيد الأبنية السامقة الشامخة المنعمة المترفة، ويدعو إليها كل من أراد السكن الهادئ الدافئ، فقد ألزم نفسه حقًّا فيما نهد إليه، والتزم بتجديده وقام بتحقيقه.

ومما يؤسف له أيضًا أن عددًا غير قليل من الشعراء الذين بدؤوا بدايات شعرية تبشر برفد هذا الشعر بالجديد المفيد نرى أنهم قد انساقوا وراء تلك المؤامرة.

وكم ألفت من كتبٍ وعُقدت من ندوات، وكم قامت حوارات لتضلل الموهوبين من الشباب وتبعدهم عن تراثهم الخالد بالدعوة التي لم تكن ذات جدوى، ففطرة الله في خلقه ألّا يصح غير الصحيح، ولا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس، أما سواه فليس سوى زبد رابٍ ما يلبث إلا أن يزول.

ومن الإنصاف أن نذكر أن عددًا غير قليل منهم قد استوعب هذه المؤامرة، وعاد إليه صوابهُ.

وأحسب أن عمر وقليلاً من أمثاله كان وكانوا أذكى من أن يقعوا بين براثن هذه المؤامرات ومنعرجاتها التي لم يأبهوا بها، ولم يغرهم بريقها فلم يعيروها أدنى اهتمام، وتبع هؤلاء بحمد الله وتوفيقه جيل مشى على آثارهم وتابع مسيرتهم، إن ما أنعم الله به على عمر من يسار، وما قضاه من سنوات عمره الخصبة في عواصم غربية شتى كان مساعدًا له ليصرف جل اهتمامه بالبحث عن المفيد، والعمل على التجديد، ولا بأس في أن يكون هناك دور كبير فيما لاقاه من اهتمام من كبار الدارسين والنقاد وإعجابهم بشعره الذي كانت فحولته فيه ظاهرة آثارها في متابعة مسيرته وانكبابه على التجديد والإبداع.

وقد مر معنا من هؤلاء النقاد كل من مارون عبود، وسامي الدهان، وشوقي ضيف، وأحمد الجندي، وعبدالله يوركي حلاق وسامي الكيالي وغيرهم ممن ازدحمت صفحات كتاب «عاشق المجد» بأسمائهم وكلهم كان شاهدًا له بالإبداع، فقد كان فيما قدمه البديل عن المهازل التي روج لها من قبضوا على أعناق الإعلام وصانعوه.

ومما يؤسف له أشد الأسف ويثير الحزن والأسى أن أفتى الأعاجم بجواز الصلاة بالفارسية، والأذان بالتركية بعد أن سقطت الخلافة العربية في بغداد لتتسع لهؤلاء مساحة العمل على تهديم اللغة العربية لغة الوحي والتراث، ولتنشط المذاهب الغريبة والأقليات بمطامعها المريبة إذ لا يمكن أن ينسى ما فعله التتار الذين أعملوا القتل في العلماء والأدباء، والحرائق التي التهمت خزائن الكتب ودور العلم والمساجد، التي كانت توحد الأمة كلها، وكان كل ذلك بحقد أكبر الحاقدين وأخطرهم على أمة التوحيد وتراثها الخالد العظيم.

ثم جاء دور المتعصبين للتركية الذين أرادوا تتريك اللغة العربية، ثم أتى دور الغزاة المستعمرين الذين كانوا أخبث طوية، وأشد بلاءً ومكرًا فجعلوا نصب أعينهم

خلق الهوة التي كانت تتسع بين المبهورين بثقافتهم والمغلوبين على أمرهم فكانوا مع من سلطوهم واستخدموهم قد جعلوا شغلهم الشاغل القضاء على قداسة القرآن الكريم، وتعطيل فهمه بالقضاء على العربية، ففرنسوا الجزائر إذ حذروا على أبنائها العرب المسلمين التكلم إلا بالفرنسية، وفعل مثلهم إخوانهم الإنكليز، ومن قبلهم رسلهم من المبشرين، لكن العربية المقدسة وقفت لهم بالمرصاد بالأفذاذ من رجالها الأوفياء فصدت وما تزال تصد تلك الهجمات، بحفظ الله لكتابه المبين الذي ما كان نزوله من عند الله إلا رحمة منه للعالمين، ففطرة الله تأبى أن يصحّ غير الصحيح، وألا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس، وما سواه فليس سوى زبدٍ رابٍ ما يلبث أن يزول.

ومن الجدير ذكره أيضًا أن هذه المؤامرات كانت تبرر الدعوة لنفسها باسم التجديد حينًا، والتطوير أحيانًا أخرى، ومسايرة روح الحضارة ومواكبة العصر.. والغاية منها كلها واحدة.. ألا وهي تحطيم العربية ومحوها من الوجود، لإزالة أمة الضاد عن الوجود.

ومن الطبيعي، أنها قد وضعت الشعر العربي في رأس القائمة، وجندت قواها الخفية والمعلنة لضربه بكل خصائصه ومزاياه وما يتصل به، ويدخل في هذا النطاق إنكار منزلة عباقرة هذا الشعر، والتشهير بهم، والترويج للهجين منه، إلى هجر القوافي وتحطيم الأوزان وتشجيع العامية - كما أسلفنا - وصولاً إلى حال لا لغة.. ولا تراث.. ولا جذور!..

عناوين بارزة، ودعايات تضج بالألوان والديكورات، لم يأبه عمر بها، وانكب يبدع من دون أن يقول إنني جددت، في حين أنه أوقد جذوة التجديد، وجعل سبيلها ميسرًا لمن كانت له البصيرة التي تؤهله للتجديد، وكان من هؤلاء بحمد الله وتيسيره نفرٌ كريم أخذ دوره البناء في المحافظة على الأصالة فظلت قافلة الخير تسير لا يضير مسيرتها الناعقون.

لقد شقَّ عمر سبيل التجديد، ومضى فيه ثابتًا واثقًا من خطاه، لا يلتفت إلى الوراء يستمد من موروثه الأصيل، وثقافته الواسعة زاد الطريق الطويل، طريق التجديد الحق، الذي لم يكن مجرد نظريات، فالنظريات مهما بلغت من الدقة لا تلغي من القصيدة ما فيها من العمق أو الغموض أو السطحية التي هي أصلاً من خصائص شعر الشاعر لا من خصائص ما تصنف به الشاعرية كما لا يمكن لها أن تضيف لها ما ليس فيها .. فالشعر فن جميل ومثل رفيعة، به ومن خلاله يتنفس الشاعر الأصيل، ويتنفس الناس معه، فمن لم يترنم بقوله طرفة:

ستبدي لكَ الأيامُ ما كنت جاهلاً

ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّدِ

ومن لا يطيب له أن يردد مع امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل..؟!

ومع زهير:

ومن لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحهِ

يهدّمْ، ومن لا يتّقِ الشتمَ يُشتَمِ..؟!

ومع قيس:

أمرُّ على الديار ديارِ ليلى

أُقبّلُ ذا الجدارَ، وذا الجدارا

فما حبُّ الديار شغفنَ قلبي

ولكنْ حبّ من سكنَ الديارا

ومع جرير:

إن العيونَ التي في طَرْفِها حورُ

قتلْنَنا ثم لم يُحيينَ قتلانا

ومع ابن أبي ربيعة:

لـيـت هـنـدًا أنجـزتـنـا مـا تَـعِـدْ
وشَـفَـتْ أنـفـسـنـا ممـا تجـدْ
واسـتـبـدّت مـرّةً واحـدةً
إنمـا الـعـاجـزُ مـن لا يـسـتـبـدْ

إن من رسالة الشعر ومهمته أن يمنح السامع والقارئ المتعة الروحية، والانتشار في تكوين فني يسمو بآفاقه الخلابة، ومعانيه الجميلة الآسرة.. وفي هذا يستوي قديم الشعر وجديده.. فالشعر يبقى شعرًا..

إن بعث التراث وتحديثه.. تجديد..

وإن البحث العلمي، وقراءة ما في الكوين.. تجديد..

وإن التحليل النفسي.. تجديد..

وإن التنوع والانسجام مع متطلبات العصر.. تجديد..

ومثلها اللون والظل والحركة.. تجديد..

ترك المديح إلا ما كان حقًّا، وهجر الأطلال، بمضامين جديدة.. تجديد.

العمل على الانتقال بالمجتمع إلى مجتمع أفضل بما يحضُّ عليه من إيجابيات، وبما يبعثه من إباءٍ يفرز الكرامة الإنسانية وكلٌّ هذا تجديد.

ما عدا ذلك، مما طلعت وتطلع به علينا بعض الصحف والمجلات من بدع ومتاهات يستحيل فهمها، فهو مما لا يمكن أن يكون من التجديد في شيء، وعلى هؤلاء أن يبحثوا عن هوية لهم في اتجاه آخر معاكس تمامًا ومناقض كل التناقض للتجديد الذي نؤمن به وبرسالته، ولا يغيب عنا أن من علامات التجديد الأصيل

أن يأتي نابعًا ومنسجمًا مع البيئة، فما يصلح لبيئة خاصة، لا يتفق مع بيئة أخرى، ومراعاة هذا الأمر لا يختلف في شأنها اثنان. إلا ما اتفق على ما فيه من إنسانية وقيم نبيلة مشتركة كقصيدة شاعرنا في «جان دارك» وما كان منها مما صوره وأحسن نقله وتصويره، وفي أخوات لها «كإفريست» و«كاجوراو» وغيرها.

ولقد لجأ عمر إلى تجديد خاص في بعض القصائد فراح يطور ويجدد في الشكل والتفعيلة حينًا، وفي القوافي حينًا آخر كما ترى ذلك في: عودة الروح - شطآن بلادي - الخزان الأكبر - ومراهقة وغيرها، فيما ابتكره من المحطات الصغيرة في القصائد الطوال فكانت بمثابة محطات استراحة للسامع أو القارئ ليتابع معه رحلته الممتعة بشغف واهتمام، ولئن تفنن عمر بإكساء قصيدته شكلاً جديدًا، فقد حافظ على الأهم والأسمى، وأعني هنا الأصالة، فلقد أغنى عمرُ المضمون غنًى لا مفر من التسليم به، والإعجاب بروعته، ولئن كانت موسيقاه وأوزانه جديدة بعض الشيء عما عودنا عليه في جُل شعره، فقد بقي تأثير شعره قويًّا، وظلت شخصيته ماثلة، ولئن أخذ بعض اللغويين على عمر عدم اهتمامه ببعض الألفاظ وعدم دقة استعماها باللفظة في بعض الأبيات فلأنه قد صرف اهتمامه إلى رسم الصورة حينًا، أو حشد الصور حينًا آخر، أو الإصرار على توضيح الفكرة طورًا ثالثًا، أو الانصراف إلى المعنى في أطوار أخرى، مما لا يعد مأخذًا كبيرًا عليه في بعض الآراء المقابلة، فعمر مجدد، وليس بمقلد أعانته على ذلك قدرته على الاشتقاق والتوليد، ونحن نتمنى مع هؤلاء اللغويين ما أرادوه لعمر مما أخذوه عليه، لكننا نجد العذر ولو بعض العذر لعمر أيضًا، وإلا فما الذي يميز عمر عن أقرانه إن لم يكن مجددًا في مجالات التجديد كلها؟!

ولست هنا مدافعًا عما أخذه عليه اللغويون والعروضيون، وحسبي أن أقول هنا: إنني أستعرض ما بين أيدينا من نتاج عمر، وما قيل عنه من دون أن أغفل ما لهذا النتاج من جوانب إيجابية وأبعاد إبداعية مرورًا بما أخذ عليه.

يقول الشاعر الأستاذ أحمد الجندي، في كتابه (شعراء سورية):

«أما عيوب عمر الشعرية، وجل الذي لا عيب فيه، فهينة بسيطة، فقد يؤخذ عليه أحيانًا التفاته الكلي إلى الصورة أو المعنى، وتهاونه في أمر الأسلوب والموسيقى» ومن ذلك استعماله فعل «تدري» فجزمه وهو غير مجزوم، ومنه قوله «وانطفت بدمي» وفصيحها انطفأت، وتذكيره «لظى» وهي في القرآن مؤنثة «كلا إنها لظى» ومنها جمعة «سماوات» بـ«سماوت» ومنها تذكير كلمة «أشواك» والأصل لو قال: «وتبقت أشواكها» ومنها جمع ظلال بأظلال وما ماثلها من الجموع، ومنها تسكين عين كلمة عبق وهب. وغير ذلك قليل إن لم نقل نادر، ومن ذلك أيضًا قوله: «وأطبقتها الجفون الكسولة» وقوله:

انظري النَّعشَ كيف قدْ

لبسَ الورْسَ وائتزرْ

فقد قلقلت هذا البيت كلمة «قد»، وليته قال مكانها «إنه» لكان خلصنا من هذه القلقلة، كما لا يخلو شعره من أمثالها. لكن استطاع من خلالها أن يؤدي المعنى الذي أراد أو الصورة التي رسم، ومن ذلك أيضًا استعماله كلمة «عروسة» و«عروس» في قصيدة واحدة، والأصح «عروس».

وكما قال أحمد الجندي: «جُل الذي لا عيب فيه» وما أهون هذه «الهنات الهينات» وأقلها أمام إبداعاته وتجديده.

ومما يؤخذ على عمر أيضًا تعمقه بالمعنى أحيانًا لدرجة الإغراق، فهو يضيع على القارئ لذة المتابعة بين ألفاظه المتراكبة، ومعانيه المتعاقبة بالبحث عما أراده مما لم يكن القارئ مهيّأً لسماعه.

وللناقد الكبير مارون عبود بعض المآخذ على ما في ديوانه «من عمر أبوريشة»، الذي صدر عن دار الأديب عام ١٩٤٧، يخلص فيها إلى القول مخاطبًا الشاعر: «لقد قال القدماء، كما قلت أنت اليوم، ولكن شعرًا كشعرك مارحًا سارحًا يجب أن ينزه».

ولنا وقفة مع بعض تلك الهنات التي أحصاها الناقد عبود في بحث «عمر واللغة» وهذه «تجاوزات» إلى أسلوب جديد، تعامل الشاعر فيه مع الفكرة، والمعنى، والصورة، والنغم، بتزاوج مدهش، وعندما نأخذ البيت التالي الذي توقف عنده عبود:

هـيـهـات تُـــروى والحـــيـــاءُ خـديـنـهـا هـيـهـات تُـــروى!؟

فالأصح لو أنّ عمر قد قال:

هـيـهـات أن تُـــروى....

إلا أن عمرًا قد تجاوز – إن – هنا مرتين، وهو عارف بأمرها، فقد استعملها في مكان آخر على وجهها الصحيح، وحذفها هنا جاء لغاية جمالية منحت البيت عذوبته ورقته ورونقه، والشعر عند عمر ليس فراغًا نملؤه بألفاظ منمقة مزوقة في مناسبات متباينة – كما يقول في إحدى مقابلاته ولقاءاته – وإنما هو الشعور الحي، والحسُّ المتدفق بالحياة، يحمل الفكرة بإبداع ونبوغ، وإننا نتفق مع الجندي، بأن هذه التجاوزات بسيطة قياسًا على ما تركه عمر فيقول: «وسادتنا اللغويون لا يعذرون الشاعر، إذا هو أخطأ خطأ يمسهم ولو حلق في السماء».

وإذا كان عمر قد تمرد على جمالية البيت أحيانًا، فقد عوضنا عنها بأمور أخرى، اعتمدت وحدة القصيدة ليكون البيت عنده لبنة في بناء متكامل متناسق هو القصيدة بمجموعها، من غير إنكار لجمالية البيت وفنيته، فلعمر من الاهتمام بجمالية البيت ما قد يفوق على جماليات أشهر الأبيات الجميلة عند غيره، وما أجمل تمازج الوقائع التاريخية مع روح الموجود بروح التجديد، الذي يكشف عن

عبقرية الشاعر في التوليد والخلق والابتكار، وهذا ما رأيناه في مطولات عمر، «مقدمة ملحمة النبي صلى الله عليه وسلم» وقصيدته الرائعة «خالد» التي قدم خلالها المثل الرائع للمقاتل المؤمن الذي تجلى بقبول خالد راضيًا أمر تنحيته عن القيادة الباهرة النادرة التي خاف عمر رضي الله عنه أن يُفتن الناس بها فيحسبون أن النصر من عند خالد، وليس من عند الله، فخالد في حقيقة الأمر يقاتل عن إيمان وعقيدة، وليس حبًّا بالقيادة التي تحرر منها «ليقاتل الأعداء من أدنى مدى» كما قلتُ عنه، وليستقبل جسده أكثر من طعنة ورمية تجعله يطلب المزيد منها طالما أنه يُرضي الجهاد بها.

فـنـحَـاهُ الـفـاروقُ فـانـضـمَّ إلـى الجُـنْـ
ـــدِ فـــخـــورًا بـــعـــزَّة الإذعـــانِ
وإذا راضـــتِ الـعـقـيـدةُ قـلـبًـا
فـمـن الـصـعـبِ أن يـكـونَ أنـانـي

ومما أخذ عليه ضربه في البيت الثاني «أناني» فهم يرون أن تكون أنانيًّا، وقد تكرر مثل هذا في شعره، كما جاء قليلاً في شعر بعض الأقدمين.

وقد تناسى الآخذون عليه ذلك أنه قد انفرد بقوله في هذين البيتين «عزة الإذعانِ» وما فيها من دقة التعبير عن حقيقة الإيمان عند خالد الفاتح العظيم.

ولم يكن التجديد عند عمر على حساب الوزن الساحر، والإيقاع الجميل، أو على ما يمسُّ الذوق الرفيع والحس الرهيف، وإنما جاء التجديد فنيًّا رائعًا مبتكرًا صادرًا عن أصالة الشاعر التي فطر عليها، وحافظ على روعتها وبقي المضمون عنده مضمار التجديد الحق.

لقد حرص عمر أبوريشة أن يجنب جمهوره ما سبق لهم أن قرأوه أو سمعوا به، أو عنه، وإذا حدث ذلك فلابد من أن تكون هناك إضافة روحية، أو نقلة إبداعية

تكسب القديم جِدة، وتخلص القارئ من سأم التكرار وملل الإعادة ورتابة الكلمات ورصها.

ولقد شمل التجديد معظم أشكال عطاءاته وأحسسنا بذلك حتى في موضوعات تبدو لنا عادية، ولنأخذ رثاءه لوالده، فماذا يقول في رثاء والده الذي كان بالنسبة له أعظم من أب وأكرم. فكان لزامًا عليه أن يفديه، ولننظر بماذا فداه؟! لقد فداه بالشوق، وهل أعظم من أن يُفدى الأب بالشوق، ليعيش ابنه بلا شوق. وهل تُطاق الحياة ثانية واحدةً بلا شوق!.

وما هي حدود قبره؟ إنها عنده الدنيا وآفاقها..

يا للفداء؟! ويا للمفدّي ويا المُفدّى!!

نـــــاداكَ تحــنــانــي فــمــا أســمــعــكْ
فــاذهــب فـــداكَ الــشــوقُ قــلــبــي مــعــكْ
ســرنــا مــعًــا حــيــنًــا... وخَــلَّــفْــتَــنــي
وحـــدي عــلــى الـــدربِ الــذي ضــيّــعــكْ
أرنــــــو إلــــى الــدنــيــا وآفــاقــهــا
فــمــا أراهـــا جـــــاوزتْ مَــضــجَــعــكْ
حــســبــيَ مــنــهــا مــوعــدٌ فــي المــســا
أفـــهـــمُ مــنــه ســـرَّ مــا اســتــودعــكْ

أمر طبيعي أن يرثي الشاعر أباه، لكن الإبداع والتجديد هما ما حرص عليهما، فلم يكن هذا الرثاء تقليديًا وقد نافسها في هذا التجديد في الرثاء رثاؤه العجيب لابن شقيقه «عليّ» وهي مما سيجده القارئ الكريم في المختارات اللاحقة.

وإذا التقى عمر مع بعض الشعراء مصادفة أو غير مصادقة بما أبدعوه من الصور والمعاني فستتبين ما كان من هذا، إذ لابد من أن تكون له بصمات ظاهرة في هذا التشابه من حيث ظاهره، فها هو الآن يلتقي مع المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس كما يقال له إذ يقول:

أسوقها بين أصنام أشاهدُها
ولا أشاهدُ فيها عفّةَ الصّنمِ

ويقول عمر فيما يشبه هذا البيت:

أمتي.. كم صنم مجّدته..
لم يكنْ يحملُ طهرَ الصّنمِ

بدأ المتنبي بيتهُ التقريري بقوله: «أسوقها» ويقصد به الناقة التي يصفها، من دون أن تظهر لنا في هذا البيت، وقد جاء وصفه لها عامًا لا تظهر فيه العاطفة، ولا يحسنه الخيال، إنما هو وصف مشاهدة لمجرد المشاهدة، أما الثاني، فهو قائم بمفرده يضج بروعة التساؤل والاستغراب والخصوصية، مع الفارق الواضح بين الأصنام التي شاهدها المتنبي، وبين الصنم الذي مجدته أمة عمر.. وقد جاءت «أصنام» جمعًا في صدر بيت المتنبي، بينما اختتم عجزه بإفرادها، وهذا مما لم تستسغه رهافة الأذن العربية، في حين جاءت الكلمة «صنم» مفردة في صدر بيت عمر وعجزه، فاكتسب البيت تآلفًا أشد، وشُحن بموسيقاه المميزة، وبشرت بداية البيت بنهايته برفق ولين وعذوبة، ولا يغيب عن الملاحظة الدقيقة، أن تكرار الأحرف والكلمات جاء ثلاث مرات في البيت الأول، فـ: (ها) تكررت في (أسوقها - أشاهدها - وفيها) مع ما فيها من مد مريح في الإلقاء، كما اشتمل البيت على خمس هاءات، فضلاً عن تكرار أشاهدها وأشاهد في الشطر الأول والثاني، وكان يمكن الاستعاضة عن هذا التكرار بما يزيده روعة وجمالاً.

إذ لم يقابل كل هذا عند عمر إلا تكرار كلمة صنم في شطري البيت مما دل صدره على عجزه، وهذا مما يطرب له العرب ويحبون منه بلاغته.

شيء آخر، إن الصنم ليس عفيفًا كما ورد في بيت المتنبي، فالعفة ليست من صفات الأصنام، كما أنها لا تُشاهد، وإنما تعاش.. بينما يجوز أن يكون الصنم طاهرًا كما ورد في بيت عمر أو غير طاهر.. في حين أن تمجيد الصنم مألوف ومعهود وهو عكس صفة «عفة» التي جاءت ليُكمل المتنبي بها وزن البيت وحركة رويّه وليس إلا.

هذه لمسات سريعة في بيتين، تشارك الشاعران في معناهما الظاهري، أما التقاء عمر مع أبي صخر الهذلي في العديد من الصور، فإننا نجد أيضًا فارقًا آخر، يميز كل بيت عن شبيهه؛ يقول أبوصخر:

وما هي إلا أن أراها فَجاءةً
فأُبهتُ لا عُرْفٌ لديَّ ولا نُكْرُ

ويقول أبوشافع:

«وبقايا ذكرياتي تَعِبتْ
فهي لا تبكي.. ولا تبتَسمُ»

انتهى البيت الأول حين وقف أبوصخر مبهوتًا لما رآها فجأة، ولم يعرفنا من هي التي رآها فجأة في هذا البيت إذا قرأناه مستقلاً، إنه بيت بسيط ورائع. لكننا نلمح الخلفية الجميلة في البيت الثاني بوضوح واستقلالية.

لماذا تعبت تلك الذكريات، أو بقاياها بتعبير أدق؟!

لقد علمنا لماذا بهت أبوصخر وجهلنا علام تعبت ذكريات أبوشافع.

أبوصخر وصف حاله، بينما جسد عمر بقايا ذكرياته التي «تعبت» ووصف حالها..! صورة محدودة عند أبي صخر «بما بهت به» بينما هي عند عمر موحية تسرح بخيال القارئ لا تبكي! ولا تبتسم!.. ما شأنها إذًا؟!.

لقد ترك لك أن ترسم بنفسك وبمشاعرك ما آلت إليه بقايا ذكرياته.

فنية عالية في تحديد الإطار، إنه يُسلم الريشة بألوانها للقارئ.. ليرسم رؤاه على ضوء ما قدّمه له عمر بفنيّته المعهودة.

وأبوصخر لم يستعمل سوى فعلين (أبهت – وأراها) في بيته الطويل.. بينما تميزت الأفعال (بقيت.. تبكي.. تبتسم) بحيوية أعلى وأشف، فضلاً عن السرحة الموسيقية التي كانت أكثر سلاسة وعذوبة بتماسك البيت واتساق الأحرف، وتكامل الكلمات فيه، واتساق الأحرف، وتهادي تفعيلات بحر الرمل وغنائية «فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتْ». بينما جاء بيت أبوصخر من البحر الطويل بقصر تفعيلاته وطولها، أو إذا شئت خفضها وارتفاعها «فعولن مفاعيلن» أو تكرار تقابله، ويبدو من الممتع أن نعيد قراءة البيتين:

وما هي إلا أن أراها فجاءة

فأبهت لا عرفٌ لديَّ ولا نكرُ

☆☆☆☆

وبقايا ذكرياتي تعبتْ

فهي لا تبكي ولا تبتسِمُ

وماذا لو توقفنا عند لقاء عمر وشوقي في فكرة واحدة في البيتين التاليين:

يقول شوقي رحمه الله:

قد يهون العمر إلا ساعةً

وتهون الأرضُ إلا موضعها

ويقول عمر رحمه الله أيضًا في هذا المعنى:

قـــد تجـــفُّ الحـــيـــاةُ إلا وريـــدًا

ويـــضـــيـــق الـــوجـــودُ إلا مـكـانـا

ثمة فوارق واضحة وضوح روعة البيتين:

فالحياة بما في هذه اللفظة من مدٍّ وإيحاء وفرصة تصور هي غير كلمة العمر التي توازيها عند شوقي، لقد تكررت «الهوان» في الشطرين عند شوقي، وهو غير الجفاف في بيت عمر الذي جسّد به الحياة، ثم ليس الهوان كالضيق، كما أن «ساعة» لا تماثل «وريد» على الرغم من تناسب الساعة مع العمر في البيت الأول، وما قابله من انسجام «الوريد» مع الحياة، في البيت الثاني وفي هذا من العمق والتملي غير ما في الساعة والعمر من سهولة وليونة، مع التسليم بروعة البيتين الخالدين للشاعرين العظيمين.

لقد حرص شوقي على الغنائية، فاستعمل هاتين اللفظتين اللينتين اللتين تجريان على الألسن جريًا يسيرًا يناسب الحالة التي كان عليها بطل بيته، في حين نجد عمر قد وجه - كما أسلفت - اهتمامه نحو المعنى والحالة التي يخاطب بها المعري بطل بيته، وكأني به أراد أن يُذكرنا بمعاناة المعري مع الحياة، فاستخدم «الوريد» و«الحياة»، المعنيان رائعان وجميلان لدى كل من الشاعرين - كما أسلفنا - إلا أن التجسيم والعمق وحركة الكلمات في البيت الثاني، كانت الدافع إلى هذه المقارنة، وهناك معنى آخر مشترك لديهما شوقي وعمر، يقول أميرنا بحق شوقي رحمه الله مادحًا النبي محمد صلوات ربنا وسلامه عليه بقوله المشهور:

ولـــد الـــهـــدى فـالـكـائـنـات ضـيـاءُ

وفـــمُ الـــزمـــانِ تـــبـــسّـــمٌ وثـنـاء

ويقول عمر في الموضوع نفسه:

وإذا الأرضُ والسماءُ شفاهُ

تتغنّى بسيّد الأنبياءِ

وأستسمح القارئ الكريم هنا لأضع بين يديه ما أرى أنه فارقٌ بين البيتين الرائعين في ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يرى شوقي رحمه الله أن ولادة الهدى كانت مع ولادة الرسول كما هو مفهوم من عموم القصيدة وليس من هذا البيت بمفرده، و«الهدى» لم يولد في تلك الولادة ولا معها، إنما قد تم الهدى بما كان بعد من تلك الولادة المباركة، وقد نص القرآن الكريم في آيات كثيرة على أن النبيين جميعًا عليهم صلوات الله قد جاؤوا بالهدى من ربهم، وهذا البيت تقريري إنشائي، ولا أحسب أن الكائنات ضياء كلها كما قال شوقي، إذ ليست مهمة تلك الولادة المطهرة أن تضيء ساعتها الكائنات جميعًا، مع أنها جاءت لتكون رحمة للعالمين جميعًا، ثم إن فم الزمان تبسم وثناء صفتان تقريريتان جميلتان فيهما من البلاغة ما فيهما.. وأحسب أن الفارق واضح بين التبسم الثابت على فم الزمان وبين الأرض التي نبت منها هذا الرسول الرحيم، والسماء التي جاء منها رحمة للعالمين فأصبحتا تتغنيان بسيد الأنبياء الذي جاء ذكره واضحًا في هذا البيت، بينما لم يُعرف البيت الأول عمن قيل فيه بشكل واضح، وإن كانت القصيدة كلها تتحدث عنه.

وهذا التلاقي في المعنى الواحد عند الموصوف نفسه أرى أنه جاء مصادفة، إذ لم يقصد عمر أن يعارض شوقيًّا في هذا المعنى، وإن كان غير هذا فما أجملها من مداعبة لطيفة أطلعتنا على ما تبيناه مجتهدين من فوارق في البيتين الرائعين، فلقد لاحت عند عمر ملامح التوليد والابتكار اللتين هما عند عمر من صفات التجديد الحق عنده ومقتضياته.

لقد تمكنت شاعرية عمر وقدرته على التوليد في هذا البيت وما ماثله مما ذكرناه، ومما لم نذكره مما مكنه أن يضيف إلى القديم ما ليس فيه من روح العصر ومقتضياته، وما تنشده النفس المعاصرة، خذ مثلاً كلمة «تتغنى» وانظر إلى ما في هذا الفعل المضارع الذي يعني ما يعنيه من استمرارية التغني بسيد الأنبياء.

وشاعرنا عمر لم يُمذهب شعره في مذهب معين، ولم يتقيد بمدرسة محددة.. وكان الرأي والمذهب في شعره، فهو مدرسة أتم التجديد وفيها تلمذته، وكانت نعم التلمذة، وقد يكون فيما سبق من مقارنات دليل على صحة ما ذهبنا إليه، ولا نجد مانعًا من عقد مقارنة أخرى، ففي قصيدتي عمر «أوغاريت» و«طلل» وهما قصيدتان تشابهان سينية البحتري المعروفة موضوعًا نجد أن عمر يجنح في عرض الموضوع بأسلوب جديد «مترع» بالتشويق، حيث يرى نفسه قد تجسدت في الطلل وانسجمت معه:

قِفي قدمِي.. إن هذا المكانَ
يغيبُ به المرءُ عن حسِّهِ
أُقلبُ طرفي به ذاهلاً
وأسأل يوميَ عن أمسِهِ
أأستنطقُ الصخرَ عن ناحتيه
وأستنهض الميت من رمسِهِ!
أكانت تسيل عليه الحياةُ
وتجري المقادير في نَحسِهِ!

لقد وصف الطلل، واستنطق الجماد، وجسده، وجعل من جموده وسيلة يعبر من خلالها عن مشاعره وعواطفه الإنسانية.. ولقناعتي بأن هذه الأبيات لا تغني عن القصيدة فسأثبتها فيما اخترته من روائع عمر في نهاية هذا الكتاب إن شاء الله.

وقد عبر «أبوعبادة البحتري» عن الذهول والاستغراب لما رأى تلك التماثيل الجديدة بالنسبة له. لبراعة ناحيتها ودقتهم فصورها لنا بقوله:

يـغـتـلـي فـيـهـمُ ارتـيـابـيَ حـتـى
تـتـقـراهـمُ يـــداي بـلـمـس

والبيت مشهور، وقد تناوله كثير من النقاد والشراح، بينما أعطى «أبوشافع» هذا الذهول طعمًا آخر، إذ جسد قدمه، وأعطاها العقل، وطلب إليها أن تقف.. فياله من ذهول ينادي به قدمه طالبًا منها أن تتوقف، فالمرء يغيب عن حسه أمام ما يرى، صورة يجد المرء نفسه حيالها ذاهلاً كمصورها، ولو أن القارئ توقف عندها قليلاً لوجد روعة البيت وتكامله، وصورته الزاهية، التي برع الشاعر الكبير برسمها على نغمات الكلمات وإيقاعاتها الموسيقية وغنائية بحرها:

قـفـي قـدمـي إن هـذا المـكـان
يـغـيـبُ بـه المـرءُ عـن حـسِّـهِ

وليس الأمر أمر هذا البيت فقط، إنما تسير القصيدة على هذا النحو الذي سنقف عنده مرة ثانية، ففي «أوغاريت» حيث اكتشفت أول أبجدية في التاريخ، ينفذ الشاعر من خلال إيحاءات وقائع الماضي البعيد، فيجسد «أوغاريت» بكلماته المصورة حتى لتحسب أنك تراها حية. كما كانت، ثم ها هو يخاطبها ويصغي إليها بعد أن استنطقها بكل مشاعره:

مـا تـبـصـريـنَ؟ تـأمّـلـي
مـا تـشـعـريـنَ؟ تـكـلّـمـي!
الـرَّبـعُ ربـعُـكِ.. فـانـحـنـي
عـطـفًـا عـلـيـه وسـلِّـمـي..

ويتدفق الحوار حارًّا حيويًّا مشبعًا بالفيض الإنساني الجياش:

مــا لـــي أراك كـئـيـبــةَ الـنْــ

ــنَــظــراتِ .. لــم تــتـبـسّـمـي!!

هـــــذا الــــذهـــــولُ يـــنـــمُّ عــن

ذاك الجـــــوى المــتــكــتِّــمِ

ويـــــكـــــادُ يـــســـــألُ مـــن أنـــا

ويـــــكـــــادُ يــخـــذلـــنـــي فـــمـــي!!

إشراق كلمات منتقياتٍ بدقّة، لقد أعياها النطق، فلم تجبه بلسانها، لكن بلسان حالها قالت ما لم تقله الألسنة الفصاح، ألم يحاورها؟ ألم يستمع إليها رغم صمتها! ولأن المصير قد وحّد بينهما، فليقترب منها أكثر وأكثر، ويبث إليها قصة الغجرية مستحضرًا قول امرئ القيس «وكل غريب للغريب نسيبُ».

فليقل لها من هو، عساها تذكر ماضيها من خلال الواقع الذي يعيشه، كما عاش تاريخه الماثل في ذاكرته، المنظور أمام عينيه: أليس الأسى يبعث الأسى؟!.

أنا يا ابنة الأمجادِ مثلك واقفٌ في مأتمي

أنـا مـن بـقـايـا أمـة هـي والـعـلـى مـن تـوأمِ

مرّت على الدنيا مرورَ الغيث بالحقل الظمي

وتـنـاقـلـت آيـاتُ رحـمـتـهـا شـفـاهُ الأنـجـمِ

ردت إلـى مـغـنـاك عـهـد ربـيـعـك المـتـصـرّمِ

فإذا شممتِ الطيب فهو نثير ذاك الموسمِ

ولا بأس إن أخبرها .. وقد أفلتت من العقال – بما جد خلال نومها:

لا تسألي أين انتهت.. لا تسألي تتألمّي

الـشـمـلُ بـيـن مـشـتّـتٍ.. ومـمــزقٍ.. ومـثـلّـمِ

والأرضُ مـا زالـت مـهـاد الـظـالـم المتظلّمِ

وما عليه الآن إلا أن يوجه إليها نصيحته والحكمة مما تعلمه وما يراه مناسبًا لها الآن فينصحها ويرشدها بكل العطف قبل أن يودعها قائلاً:

عودي إلى حرم الغياهبِ واهجعي.. لن تندمي!

وهكذا يغادرها والحسرة تملأ نفسه حزنًا عليها بعد أن جسدت له ما جسدت، وأوحت إليه ما أوحت، تاركًا القارئ يحيا هذه المقارنة والمناجاة الشجية الحارة، فلعله لا يضن بالحديث إلينا عن لوعة الحرقة، التي عاناها في دعوته إليها، أن تعود إلى حرم الغياهب وتهجع فيه مؤكدًا لها أنها لن تندم.

الموضوعان اللذان توقف عندهما من حيث الشكل مع سينية البحتري في وصف إيوان كسرى، متشابهان ظاهرًا، إلا أن الجدة هنا تكمن في الصورة المعبرة، وغنى القصيدة بالإيحاءات، وقدرتها على النفاذ إلى ما وراء الأشياء والمرئيات الظاهرة.

تمثل فذ للقديم بصياغة رفيعة عالية تسري فيها المعاصرة برشاقة فنية يبرز فيها وجه آخر من وجوه تجديد «عمر أبوريشة».

إن تعامل «عمر أبوريشة» مع الرمز والتصاقه بالتجارب الإنسانية وإدراكه للمفاهيم العلمية، وقدرته على الغوص، واستيعاب الفكرة بعمقها ودلالتها، إلى جانب موهبته النابغة، وقدرته على خلق الصورة، وإبداع تشكيلها وتلوينها، كل هذا دليل الطاقة غير المحدودة على التجديد الأصيل.. التجديد الذي نستطيع أن نطلق عليه، دون تردد «التجديد العمري» سواء على صعيد مطولاته ذات النفس الملحمي الرائع، أو في قصائده التي هي آيات فنية باهرة بما تحتويه من فكرة متكاملة رغم قصرها، أو فيما قرأنا من مسرحياته التي كانت غايته من شخوصها تصوير خباياها لقرائه، ونقلها لهم بأمانة، ولا يجادل في الحق غير المبطلين.

مرّة ثانية نقف عند القول: إن عمر قد تمكن - كما دلت مطولاته - من الأخذ بناصية اللغة، إلا أنه لم يحجم عن استعمال بعض جوازاتها وكأنه أراد أن يقول: إن هذه اللغة تحيا بقواعدها، وإن القواعد تعتمد الاشتقاق، والاشتقاق سبيل التطور ومصدره، فطبق بذلك ما اشترعته قواعد اللغة في شعره بصفته رائدًا من رواد التجديد[1].

وقد تجد في شعر عمر مما سبق أن قرأت له مثيلاً - كما بينا - أكان ذلك صورة أم فكرة، غير أنك واجد - ولا شك - إذا أمعنت النظر.. عمر وريشته، وأسلوبه.. فمثلاً حين نقرأ هذا البيت:

تأبى الرّوادفُ والثديُّ لقمصها

مسّ البطون، وأن تمسَّ ظهورا

تجد عند عمر صورة مشابهة من حيث الشكل، وذلك في قصيدته «كاجوراو» تلك القصيدة التي توشك أن تكون فريدة في أدبنا العربي لولا بعض أخوات لها في شعره أيضًا، ولكم دعته الصحافة الهندية بسببها (شاعر كاجوراو) ولكم نال عليها من تكريم وصداقة مع نهرو ومن أتى بعده من حكام الهند الذين أصبح مستشارًا سياسيًّا لهم لقربه منهم، وثقتهم بعبقريته.

يقول عمر:

يهفو القميص لمسِّ خصريْها.. وتأبى الحلْمتانْ

أرأيت كيف أصبح القميص يهفو.

أتصورت الحلمتين وقد نفرتا وتأبتا!!

---

(١) أفردنا لعمر واللغة بحثًا خاصًا في هذا الكتاب.

أرأيت كيف امحت صورة الروادف الشاردة، واستبدلت بالخصر الرشيق الأنيق الدقيق فشفت الصورة، التي أصبحت بمقدورها أن تفعل ما لا يفعله غيرها.

ثم نقرأ بيت المتنبي الشائع:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يَظْلِمُ

وتقرأ لعمر في قصيدة كاجوراء أيضًا هذا البيت:

كاجوراو لولا العجز والحرمان ما كان الجبانْ

الشاعران أرادا أن يعبرا عن استكانة الإنسان، فجاءت عند المتنبي عنيفة شاملة لكل النفوس التي اعتبر أن الظلم فيها فطرة متأصلة، فكل من لم يظلم سواه فإنه مخالف لتلك الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها، فالله حرّمَ الظلمَ على نفسه وجعله محرمًا بين عباده فكيف يمكن أن يكون الظلم فطرة أو شيمة من شيم مخلوقاته، بينما صور لنا عمر تلك الفطرة بما يشبه الحكمة إن لم تكن الحكمة نفسها، فلقد أرجع الاستكانة إلى العجز الذي حذر رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه منه.

كاجوراو لولا العجز والحرمان ما كان الجبان

والعجز والحرمان يمكن التخلص منهما، أما الفطرة فيكاد يكون مستحيلاً التغلب عليا.

إذًا فإن عمر هذا هو الذي هيأته الأقدار ليكون شاعرًا مجددًا في شعر هذه الأمة في أخطر مرحلة من مراحل حياتها، وفرض وجودها حيث ما زالت كل قوى الاستعمار دائبةً على تبديد هذه الأمة التي لها مركز الصدارة لما في طبيعتها من مقومات، ولما لها من قدرات متجددة لم تتوفر لغيرها من الأمم الأخرى، فكان

شعره بذلك فتحًا جديدًا، وكان بذلك رائدًا كما كان أجداده من قبل رواد أعظم حضارة علمية إنسانية عبر التاريخ بما أبدعوه وبما نقلوه من علوم الأمم الأخرى، وبما أضافوه إلى تلك العلوم مما لم يكن فيها مما تميزت به إذ ذاك، ويبقى بيت الحكمة في بغداد وما كان منه أكبر دليل وأصدق شاهد على ما ذكرناه، ناهيكَ عما خلدوه في الأندلس من أوابد تظل ناطقة عبر الدهر بالعظمة والجلال.

ونقول من جديد إن قارئ شعر عمر لابد أن تستوقفه وتشد انتباهه صورة بكر، أو مجتمع صور، أو فكرة جديدة، أو تعبير، أو خلاصة تجربة، أو نغم، فالقارئ دائمًا أمام مناجاة جديدة أو قارورة عطرٍ تتكسر بين يدي فينسفح العطر ويغمره العبق.

ولعلنا نذكر أننا قلنا قبل قليل إنه يترك لقارئه لذة التعمق والاكتشاف بعد أن يشده إليه واعدًا بكل جديد.

ففي قصيدته «في طائرة» يترك قارئه على أشد ما يكون من التعمل بعد أن سلمه مفاتيح قلاع حديثة الاكتشاف فيها من كل بديع زوجان.

قالت الإسبانيولية بعد أن وصفت أجدادها العرب القدامى الذين فتحوا بلادها بالحق قبل الحرب، ونقلوا إليها إسلامهم العادل العظيم.

هـــؤلاء الـصِّـيـدُ قـومـي فـانـتـسـبْ

إن تجــدْ أكـــرمَ مـــن قـومـي رجــالا

ماذا كان جوابه!!

أطـــرقَ الـقـلـبُ وغـــامــتْ أعـيـنـي

بـــرؤاهـــا.. وتجـاهـلـتُ الـسّـؤالا

أي شرح لا يفسد على القارئ لذة التعمق والاكتشاف في هذه الخاتمة!.

وفي قصيدة «يا رمل»:

مـن يـحـمـلُ الـسـيـفَ لا يـبـري بـه قـلـمـا

ماذا يفعل به إذًا؟!

وفي قصيدة «لبنان»:

حـمـلـوا الحـرف الـذي انـشـقّـت عـلـى
لحـنـهِ الـبـكـر شـفـاه الأبـدِ
فَـتَـلَـفَّـتُ فـلـم تـلـمـحْ سـوى
أمّـةٍ تـهـدي، ودنـيـا تـهـتـدي

كيف تمت عملية انشقاق شفاه الأبد على اللحن البكر.

وكيف تهدي الأمة، وكيف تهتدي الدنيا!!

وفي «أوغاريت»:

عودي إلى حرم الغياهب، واهجعي.. لن تندمي

لماذا لن تندم!!

وفي «عودي»:

وصحت يا فتنتي! ما تفعلين هنا؟!
البرد يؤذيك عودي...
لن أعود نا!

من الذي لن يعود!

ولماذا؟!

وفي «بقايا ذكرياتي»:

بـــقـــايـــا ذكـــريـــاتـــي تـــعـــبـــثْ

فـــهـــي لا تـــبـــكـــي ولا تـــبـــتـــسـمُ

ماذا تفعل إذًا؟!

أعود لأسألك قارئي:

أين غامت عيناك؟

هل في التاريخ؟!

أم في رؤى الاسبانيولية الحسناء؟!!

أم في قلب شاعرك المطرق حياء ووجلاً!!

أم في عينيه الغائمتين برؤاها؟!

أم في رؤاها؟!..

وإذا كان هذا شأنه مع تلك الفتاة الإسبانيولية في أوائل الخمسينيات التي تحررت فيها معظم بلاده من الاستعمار، ترى ماذا سيكون رده الان بعد أن فقدت هذه الأمة خصوصيتها التي حررتها من معظم ما كانت عليه من استعمار وانتداب لتعاني من جديد ما هو أشدّ وأدهى!!.

أليست هي اليوم في حالة أشد بلاءً وأسوأ مصيرًا؟!

أجل إنها في حالة ألف أسوأ، لكنها في الوقت نفسه ما زال إيمان شبابها متفائلاً بالخير الموعودة به أمته، وما شدة النكبات عنده إلا دليل نصر قريب.

ولنعد قارئي إلى ما خبأه وما أراده مشتركًا بينك وبينه، ولنعد تحديدًا إى حيث تلك المفاخرة بأجداده وأجدادها، ولنتوقف عند رؤاه ونبحث في أي عالم قد غامتا.

ذلك ما آثر أن يتركه لك قارئه لتشاركه لذة اكتشاف ما خبأه لك.

ونخلُص إلى القول: إن بإمكان دارس شعر عمر أبوريشة أن ينقل الكثير الكثير منه إلى أية لغة أخرى من دون أن يفقد الكثير من جماليته، ودقة معانيه، فالأنا التي أتخمت الكثير من الشعر العربي قد تفقده الكثير من جمالياته إذا قُيض لها أن تنقل إلى لغات أخرى، وعمر إن تحدث عن «الأنا» التي هي ركيزة في أدبه أيضًا فإنني أرى من خلالها الإنسان الذي عاش معه عمر، وهو عمر نفسه.. وما ذلك إلا لتأثره الظاهر بما تجذر في نفسه من الآداب التي اطَّلع عليها مضافة إلى موروثاتها في نشأته الأولى.

ترى هل يقول النقاد الأجانب إن بضاعتهم قد ردت إليهم؟!

لا.. إن عمر كان وما يزال معتزًّا بعروبته متمسكًا بأصالته، إنه عربي الهوى والرؤى والفكر، وإن يكن أصبح إنساني النزعة والخيال.

ولم يكن الشعر عند عمر إلا عملاً من أعماله فهو شاعر ودبلوماسي وكان قبلها ثائرًا متمرِّدًا.

ولعل القارئ لا زال يذكر رأي الدكتور شوقي ضيف في كتابه «دراسات في الشر العربي المعاصر».

«كأنه مجدافٌ أهدته الطبيعة إلى سورية ليحرك سفينتها، ويقودها في محنتها».

وأتمنى مُخلصًا لو أن هذا الناقد الكبير قد خلصنا من كلمة «الطبيعة» فالطبيعة لا تهدي؛ ولكن الله وحده هو الهادي، ومنه العطاء، وله المنة وحده.

لقد صدق شاعرنا بما التزم، فطوى صفحة العدم.

****

الدِّين في شعر عمر

من نافلة القول أن نكرر ما قيل عن مولد عمر ونشأته الأولى على الصوفية الموروثة من أمه بالدرجة الأولى فهو شديد التأثر بأمه الى عرفت كيف تؤثر في مشاعر ابنها وتسلمه إلى درجة عالية من مراتب الصوفية، وتملأ وجدانه بقدسية الذات العليا، وتزرع في قلبه الحب المطلق، ولم يكن قبول والدها الشيخ الشاذلي، ولا قبولها بزواجها من شافع أبوريشة لو لم يكن هناك تماثل أو تقارب بين الأسرتين.

وعمر وأخوه د.ظافر شاعر، وأخته زينب شاعرة أيضًا يرحمهم الله جميعًا فهم نتاج هذين الزوجين الكريمين، هذه النشأة وتأثيراتها الإيجابية يمكن أن نتلمسها بوضوح لا سيما في مرحلة شعر عمر الأولى التي كان فيها مقلدًا، وقد طبعت الكثير من شعره القديم الذي (تنكر) لمعظمه – كما اتُّهم بذلك –.

لقد استطاع عمر في تلك الفترة أن يشد الناس إلى شاعريته التي جعلت الناس والنقاد تتحدث عنها، وكانت مثار اهتمام كل من كان لهم أدنى اهتمام بجيد الشعر، لاسيما تلك القصائد الوطنية اللاهبة التي تفيض بالقيم الجهادية..

وعمر كثير الاعتزاز شديد الكبرياء يرى بعض الدارسين أن مرجع ذلك إلى عزة المؤمن بربه وبدينه وبموروثاته وقوة شخصيته، لذلك نجده في مسرحيته «رايات ذي قار» وهو أول عمل شعري يظهر له أنه عير كسرى أنوشروان كبير الفرس وأعظم رجال عصره بدينه وأخلاقه التي لم تؤهله لخطوبة الخرقاء ابنة

النعمان الذي رفضه زوجًا لابنته ربيبة الصحراء وقسوتها في حين لم يكن فيما نحسب أن هناك أبًا إلا ويسعى لمصاهرة عظيم زمانه.

لكن الإباء العربي والكرامة التي انتصر لها عمر في تلك المسرحية التي ربما لم يكتبها في ذلك الزمان إلا ليذكّر قومه بقيم أجدادهم وعزتهم التي عبر عنها ذلك البدوي، معززة بكرامة ابنته فيقول عمر منتصرًا كل الانتصار مفاخرًا بهذا الموقف العربي العريق:

ومِن كسرى أنو شروانَ حتى
تزفُّ له المكرّمة الغَروبُ!!
إباحيٌّ غصوبٌ مزركيٌّ
فبئس الدين والفَدْمُ الغصوبُ

ثم يمتدح النعمان لهذه القفة المشرفة فيقول:

وما النعمانُ إلا نفسُ حرٍّ
لها للمجد والعليا وثوبُ
لعمري لن يلبِّي أمر كسرى
وفي أعراقه نبضٌ يَجوبُ

ويستمر في إظهار اعتزازه بالعرب وقيمهم التي جاء الإسلام ليتممها لهم وبهم فيقول:

يفرِّقُهمْ إذا انتصروا سلامٌ
وتَجْمَعُهم إذا قهروا الحروبُ
همُ الغرُّ الميامينُ الدواهي
إذا ناداهُمُ اليوم العصيبُ

هـم الـفـرسـانُ إن صـهـلـت خـيـولٌ
وإن عـضّـتْ عـلـى الـشّـكـم الـنّـيـوبُ
لـهـم مـن كـل مـكـرمـة نـصـيـبٌ
ومـا لـلـجـبن عـنـدهـمُ نـصـيـبُ

توقفنا عند هذه الحادثة لما فيها من أصالة وقيم هي مادة الدين الذي نبحث فيه، وموقف آخر نتبينه فيما رواه صديقه د.سامي الدهان في كتابه الشعراء الأعلام ص ٣٠٨ إذ أهدى مسرحيته الأولى إلى رجل العراق العالم الكبير الأستاذ محمد حبيب العبيدي الذي عمل في سبيل العرب والإسلام فألف كتابه - جنايات الإنكليز على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة.

وهذان الموقفان من عمر هما دليل اهتمامه بأمر الدين ورجاله، ووحدة الأمة، ولعل تأثر عمر بهذا الرجل العراقي جعله يكتب مقالته في بريطانيا عن التبشير بدافعٍ ديني مشهود.

إن اعتزاز عمر بشبابه وبما طبع نشأته الأولى جعله كثير الاعتزاز والثقة بنفسه وبموقفه في الحياة. فها هو يخاطب شبابه قائلاً:

أشـبـاب يـا زهـوَ الـحـيـا
ةِ ويـا نـشـيـد الـعـنـفـوانِ
لا كـنـتَ إن أرخـيـت مِـعـ
ـطـفـكَ الـنـضـيـرَ عـلـى جـبـانِ

ومن فخره في شبابه وتطلعه إلى المجد والرفعة قوله معاهدًا نفسه:

آلـيـتُ ألّا أنـثـنـي عـن مـدى
يَـجـأزُ فـيـه كـبـريَ الأوحـدُ

ما أرخص المجدَ إذا زارني
ولم يكن لي معه موعدُ

وقوله:

معاذ خلال الكبر ما كنت حاقدًا
ولا غاضبًا إن عاب مسراي عائبُ
فكم جبل يغفو على النجم خدّهُ
وأذيالُه للسائماتِ ملاعب
نظرت إلى الدنيا فلم أرَ عندها
كبيرًا أداري أو صغيرًا أعاتب
وما هان لي في موقف العزِّ موقفُ
ولا لان لي في جانب الحقِّ جانب

وهذه الثقة بالنفس، وهذا الطموح الشبابي مبعثه عندي الدين الحق.

وكثيرًا ما شغل عمر نفسه وشبابه بهذا الطموح واللعب مع النجوم في الوقت الذي كان له من شبابه ما هو مختلف عن هذا الحماس الديني فيقول - وهذا من زمن الشباب الذي كان يعتقد أن سيكون شافعًا له:

حيث الهوى فرضٌ علي وقبلةُ الوجنات سُنَّهْ
أغوينني بعد المتاب عن الهوى فتبعتهنّه
ورتعتُ في نعم الشباب وما ثنيت له الأعنّه
في الصبح أبرمت العهود وفي المساء نقضتهنّه
هذي ذنوبي إنما العشرون تشفع لي بهنّه

ولعل ما يؤكد لنا عمق إيمانه بقضاء الله وقدره ما جاء في رائعته «خاتمة الحب» فبعد أن حصل على موافقة والديه - وهي من البر - على زواجه من الفتاة

الإنكليزية هرع إليها يحمل لها البشرى.. فكان الرثاء العجيب الذي ختمه بتسليم أمره لله في تلك الفاجعة الأليمة القاسية، ولولا ذلك الإيمان بقضاء الله وقدره غيّرت تلك الفاجعة مسار حياته كما فعلت ليلى العامرية بقيسها المسكين.

فيقول وكان ذلك في عام ١٩٣٢ وهو في ريعان شبابه المتفجر عنفوانًا وكبرًا وترفًا ونعيمًا..

حكمة الله أن أجر على صبح نعيمي غشاوة من ظلامِ

حكمة الله أن تسدَّد في القلب سهام الأحزان والآلامِ

حكمة الله هذه ملؤها الرأفة والعدل وكل الإنصاف في الأحكامِ

ليس لي ما أقول يا مبدع الكون فوقع السكوت فوق الكلامِ

بعد ذلك تهب علينا نفحات الإيمان الذي شده إليها الفاتح العظيم خالد بن الوليد لنراه المفاخر بخالد بمواقف خالدٍ التي جسدت له الإيمان الحق الذي يموج في نفسه عزّة وإباء، ولعل قصيدته بل «ملحمته» في خالد هي من أهم شعره وأحبه إليه... وما أجمل ما وفق إليه عمر في تحليله شخصية خالد سيف الله المسلول حينما كانت منه «عزة الإيمان» الردّ الكريم على تنحيته عن قيادة الجيش وهو الفاتح العظيم فيقول:

فنحَاهُ الفاروقُ، فانضمَّ إلى الجند فخورًا بعزة الإذعانِ

وإذا راضتِ العقيدة قلبًا فمن الصعب أن يكون أناني

ولست أشك في أن نزعة الإيمان في حياة عمر هي التي جعلته يختار هذا الموقف الإيماني ربما كان اليتيم في تاريخ القادة، وها هو يذكر موقف خالد بقوله على لسانه رضي الله عنه، ونكرر هنا ذكر هذه الأبيات لأهميتها وفرادتها:

إنا نقاتل كي يرضى الجهاد بنا

ولا نقاتلُ كي يرضى بنا عمرُ

ومن المفيد أن نتوقف عند ما سطره الناقد الدكتور حيدر الغدير الذي عرف عمر عن قرب فقال عنه: (هكذا يصح القول: إن عمر نشأ على ولاءٍ طيب للإسلام، كان يزيد مرة ويضعف أخرى لكنه يظل ثابتًا)، مع أنه استمر في ذكر الخمرة والصليب أضعاف ما ذكر الإسلام ومنهجه.

ويشكر الدكتور الغدير لعمر موقفه الذي دعاه لكتابة مقالته دفاعًا عن الإسلام وهو في بريطانيا حيث كان من المألوف أن يتفرغ هناك للحب والجمال، ولكن ولاءه لدينه أملى عليه كتابة ذلك المقال الذي سبقت الإشارة إليه.

ويلاحظ الدكتور الغدير على عمر أن توجهه الديني ازداد في أواخر عمره، ويدلل عليه بحضور عمر مواسم الحج، وهو يؤكد أن ثقافة عمر الإسلامية أكبر بكثير من حبه للإسلام والعمل بما يبرهن على ذلك الحب الثقافي الذي نجده عند الكثيرين من شعراء النصارى وأدبائهم.

وللأمانة التاريخية التي يتطلبها الجيل القادم أقول مشهدًا الله تعالى على أنني سمعت منه أن العبادات للعامة وليست للخاصة من أمثاله، وهذا ما يؤكده أيضًا الدكتور الغدير بقوله: «أما التزام عمر السلوكي فكان فيه مثل بقية الشعراء المتساهلين ففيه ضعف البشر العام وفيه ضعف الشعراء الخاص».

أما عمر فيقول عن نفسه:

«أنا في ظلال الله دائمًا في ظلال الله يخيل إلي أحيانًا أني حدت عن طريق الله كلما تراكمت على نفسي الخطايا، أنا أحيا على كل حال في رحاب نفس تقية صافية مشبعة بالإيمان، ومثل كل بشر أضعف أحيانًا مع أهواء الجسد».

ويؤكد أنه كثير الزيارات للقبور للترويح عن النفس إذ يجلس طويلاً ولا يتكلم تاركًا لمشاعره وتأملاته العنان لإدراك ما يجب إدراكه..

لكن هذه النفس النقية الصافية كان يزيدها نقاء وصفاء لو أنها كانت تلتزم بما شرع الله الذي كان يعيش في ظلاله، فالإيمان كما يقول رسول الإسلام ﷺ: «ما وقر في القلب وصدقه العمل».

ويرى عمر أن رجولته التي ظهرت في مواقف عدة له ستكون شفيعًا له عند ربه ناسيًا أن «من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره»، وأن سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه يأمل أن يدخل الجنة بعفو الله.

إن العمل بما شرع الله هو الذي ينيل الله عليه عفوه وغفرانه فهو الذي أكد عشرات المرات على العمل الصالح والإخلاص في العقيدة والعباة.

أما في مجال العقيدة فنسأل الله أن يغفر له ما ظهر منه من إيمان بتناسخ الأرواح، وأنه قد عاش في زمان بعيد يصف لمحدثه عن وجوده في ذلك العهد البعيد، وهذا يتنافى قطعًا مع عقيدة التوحيد، ولا يكتفي بحديثه للصحافة بهذه الأوهام، بل تعداه إلى ما أثبته شعرًا وأوصى أن يكتب على قبره، فحينما كان في أمريكا خاضعًا لعملية جراحية قدّم لزوجته مغلفًا مختومًا أودع فيه وصيته وفيها يقول:

رَفيقَتي لا تخبري إخوتي
كيف الردى كيف عليّ اعتدى
إن يسألوا عنِّي وقد راعهم
أن أبصروا هيكليَ الموصدا
لا تَجفلِي لا تطرقي خشعةً
لا تسمحي للحزن أن يولدا
قولي لهم سافر قولي لهم
إنَ له في كوكبٍ موعدا

لقد رأى أن الردى قد اعتدى عليه اعتدا، ولم يذكر أن «كل نفس ذائقة الموت».

بل يرى أنه عائد فهو مجرَّد مسافر، وكل مسافر لابد له من عودة لكنه يرى عودته جسدًا آخر تحل به روحه من جديد.

أمر آخر يتعلق بعقيدته التي نسأل الله له المغفرة بسببها، فقد أصبح بين يدي ربه الذي سيعرض عليه كل ما كان منه لا تخفى عليه خافية، فالله يعلم خائنة الأعين وما توسوس به النفوس، فلقد كثر في شعر عمر ذكر الصلب والصليب الذي ينفيه القرآن الكريم نفيًا قاطعًا، «وما قتلوه وما صلبوه».

ويذكر الدكتور الدهان أن عمر حرم من الترشح للمجلس النيابي قبل اعتماده وزيرًا مفوضًا في وزارة الخارجية لأنه عرف عنه أمر الصلب الذي ظل يذكره بإشارات واضحة في العديد من قصائد ولم يابه لذلك التذكير.

وأشهد الله أنني ذكرت له هذا البيت من شعره:

كيف لا تمشق النجوم ذيادًا
عن حِمى السيدِ المسيح الفادي

فقلت ألا ترى يا أبا شافع أن قولك هذا يخالف ما أكد عليه القرآن الكريم فابتسم لي، ولم تكن إجابته مقنعة، قلت هذا حينما لم أكن قد اطلعت على الكثير من أمثال هذا البيت في شعره، كما لم أكن مطلعًا على حادثة حرمانه من الترشح للبرلمان السوري الذي كان من المرجح فوزه فيه لما كان له من حب وتقدير في مدينة حلب، لكن ذكر الصليب وتمسكه به حال دون ما تمناه.

أما علاقة عمر مع الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فكانت وثيقة إلى حد بعيد، والأمر نسبيٌ بطبيعة الحال، فقد كان يراه «بطل الأبطال» كما يقول د.الدهان، وكما سمعت منه ذلك، وكان يضيف إليه عليًا رضي الله عنه

وأرضاه، ولحبه له فقد خصه بقصيدة سماها (مقدمة ملحمة النبي) التي وعد بها، وقال إنها من آلاف الأبيات، لكنه كلما ذكر بها تبسم، ولم يحر جوابًا وربما كاني جدد عهده بها وبغيرها مما لم ير النور، ولن نراه بعد رحيله..

أما قصيدته الثانية «يا رمل» فإنها سياسية أكثر مما كانت إيمانية..

وأما بقية ذكره للإسلام ولرسوله الكريم فقد كان «لمامًا كتقبيل الفراشة للورد» كما يقول..

أمر آخر يجدر التوقف عنده، لقد كان كثير الذكر للخمرة وشاربيها والإشادة بها وعلاقته بأهلها حتى أنه حينما رثى السيد جميل مراد شقيق زوجته نرى أنه بدأ قصيدته بمأثرة نسيبه عنده، فيسأله كيف طوى الحياة ولياليها وهي عنده مجرد أكؤس وأغانٍ، وما إلى ذلك من اللهو والتلذذ المباح عنده للشباب:

فيقول:

كيف تطوي بُردَ الصّبا الريّانِ
ولياليك أكؤسٌ وأغاني!
ومغاني أيامِك الزهرِ مهدٌ
لوصالٍ، وملعب لأماني!

وأكثر ما يظهر لنا ذكره للخمرة وندمانها في قصيدته «مصرع فنان» الذي أتت على شبابه الخمرة التي كان يتلذذ بها وهي تفتك بجسمه جالسًا يتعاطاها مع من أشاد عمر بوفائهم له كلما جلسوا إليها فيقول:

إنما لم تزل رفاق لياليـ
ـه كرامًا على عهود ودادهْ
تجمع الخمر بينهم فيخلّو
نَ مكان اتكائهِ واتسادهْ

واذا مــرَّ ذكــــرُه قــلــبــوا الــكــأ
سَ عــلــى الأرض حــســرةً لافــتــقــادهْ

إن هذه الخمرة الملعونة باتت عنده مأثرة، كما هي مأثرة عند نسيبه، وهي من مآثر جلاس الخمرة وندمانها، وهكذا صور وفاءه له، ووفاءهم لمن قتلته الخمرة، ولعله حسب أن روعة تصوير هؤلاء السكارى وهم يخلون مكان الفنان «كميل شمبير» ويهرقون نصيبه على الأرض عوضًا عنه، ثم ها هو يرثي صديقه الحميم «إميل البستاني» الذي شيد لنفسه لحدًا من المرمر أنفق عليه ما يكفي عشرات الذين يتضورون جوعًا ويشتكون عريًا ليخفف به عنهم الجوع ويقيهم شرَّ العري،وتشاء حكمة الله أن يسافر صديقه هذا في البحر ولا يعود، ويبقى القبر يتيمًا يثير شفقة عمر الذي رثاه بقصيدة من مطولات قصائده.

ونعود الآن بعد هذه الجولة على «الندمان» لنستمتع بما قاله عن الرجولة التي كان عليها، والتي أصبحت أبياته فيها مضرب المثل فهو القائل:

تــقــضــي الــرجــولــة أن نمــدَّ جــســومَــنــا
جــســرًا فــقــل لــرفــاقــنــا أن يــعــبــروا

ثم إنه يقدم بين يدي حسابه عن ربه أنه عاش مرة رجلًا فيقول:

أعـــفُ عــنــي يــا ربِّ بَـــدِّدْ هــمــومــي
فــلــقــد عـــشـــتُ مـــــرَّة رجـــلا

ثم إنه يتجه إلى الله تعالى بصلاته الخاصة متوسلاً إليه أن يعيد لأمته ما يريده لها وهو بالضرورة ما كانت عليه حين كانت أمة الرجال:

ربِّ طــوقــتَ مــغــانــيــنــا جــمــالاً وجــلالا
ونــثــرت الــطــيــب فــيــهــن يمــيــنًــا وشــمــالا
وتجــلــيــت عــلــيــهــن صــلــيــبًــا وهــلالا

ربِّ هـذي جـنـة الـدنـيـا عـبـيـرًا وظـلالا
كيف نمشي في رباها الخضر تيهًا واختيالا
وجـراح الـذل نخفيها عـن الـذل احتيالا
ردهـا قـفـراء إن شـئـت ومـوّجـهـا رمـالا
نحن نواها على الجدب إذا أعطت رجالا

وعمر يرى أن وقفته بل وقفاته أمام الطغاة التي قلما عهد مثلا في شعرنا الذي كبل كبرياءه وحريته وحرارته طغيان الطغاة، فيرجع أسباب ما تعاني منه الأمة إلى طغيانهم وفسادهم.. ولا شك في أن هذه الوقفات هي ما استلهمه من قول رسول الله ﷺ: «خير الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» و«سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فوعظه فنهاه فقتله».

فقال مما قال:

أمّـــتـــي كـــم صـــنـــم مـــجّـــدْتـــهِ
لـــم يـكـن يـحـمـلُ طـهـرَ الـصّـنـمِ
لا يـــلام الـــذئـــبُ فـــي عـــدوانـــهِ
إن يـــكُ الـــراعـــي عـــدوَّ الـغـنـمِ

وأشار بيده وهو يُلقي القصيدة إلى جميل مردم بك.. الذي كان رئيسًا للوزراء:

إن أرحـــــامَ الـبـغـايـا لـــم تـلـدْ
مـــجـــرمًـــا مـــثـــلَ جـمـيـلِ المـــردمِ

وهناك من يقول إن هذا البيت مضاف إلى القصيدة، ويتابع قوله:

رُبَّ وامـعـتـصـمـاهُ انـطـلـقـتْ
مـــلءَ أفـــواه الـصـبـايـا الـيُـتـمِ
لامـــســـتْ أســمــاعــهــم لـكـنـهـا
لـــم تـــلامـــسْ نـــخـــوةَ المـعـتـصـمِ

وفي مكان آخر يشير إلى الجنود الأوفياء الذين:

مــا تــخـلَّــوْا عــن الجــهــاد ولـكـن

قـــادهُـــمْ كـــلُّ خـــائـــنٍ وجـــبـــانِ

وطالما أن الحديث عن الجرأة النادرة السابقة نراها مؤخرًا على عكس ما عهدنا منه وما تمنيناه، وللأمانة التاريخية أقول هنا ما دار بيني وبينه أكثر من مرة حينما كان يتعلق الأمر بمسرحيته «نحن والسلطان» والتي ذكرها وقرأ عليّ قسمًا منها وهي شديدة النقد لمن وسد إليه أمر الجمهورية العربية المتحدة ولم يكن أهلاً لها كما يراه، فصب عمر جام غضبه عليه وعلى أعوانه في تلك المسرحية، وقد قال لي إنه دُفع له مبلغ كبير جدًّا لقاء السماح بطباعتها لكنه لم يكن يمتلك الجرأة على ذلك فوئدت المسرحية كما وئد غيرها، إذ له أكثر من قصيدة غاضبة في ذلك «الطاغية» كما يقول عنه.

ولن أسترسل أكثر مما فعلت في هذه الأمور.

يصف عمر أبوريشة نفسه قائلاً:

«أنا أحيا في ظلال الله.. في رحاب نفس نقية صافية مشبعة بالإيمان».

****

عمر والسياسة

أعترف سلفًا أنني ما تعرضتُ إلى فصل مما أبقيته في هذا الكتاب أكبر أو أخطر من هذا البحث، يشترك في خطورته عندي غياب سيرته وتضارب مواقفه وأقواله، فعمر منصرف إلى السياسة العامة منذ نعومة أظفاره، فهو ابن «قائمقام» يفد الناس إليه مع شؤون حياتهم وقضاياهم ليحكم بينهم، فنشأ بذلك مهتمًا بأمور الناس الذين هم مصدر السياسة عنده، ولهم أو عليهم نتائجها.

و«إطلالتي» هذه ليست دراسة لسيرة هذا الرجل.. إنها تتلمس - كما أردت لها - بعض الجوانب الأدبية والفنية والسياسية في شعر هذا الشاعر.

ولما اقتضت الضرورة أن نلمس - ومرفق - هذا الموضوع فإنني آثرت الاختصار، تاركًا البحث لمن هم أولى بكتابة التاريخ والحديث عن رجاله.

إن مسيرة رجلٍ عمل أكثر من اثنين وعشرين عامًا في السياسة رسميًا ممثلاً بلاده في عواصم شتى، وفي محافل دولية مختلفة أخرى، بالإضافة إلى أنه عمل ضعفها في ميادين الأدب الذي كان وسيلته الأولى في الخوض في السياسة حينما راح يرسل قصائده صواعق تقض مضاجع من كان يجب أن تقضَّ مضاجعهم، وتزلزل أركان نعيمهم التي أعلتها أكتاف المجاهدين المخلصين من هذا الشعب الذي منحه عمر الحب، وشحذ من أجله سيف كلماته النارية.

ولعلنا لا نذهب بعيدًا إذا قلنا: إن الشعر العربي لم يرض تطلعه في هذا المجال شاعر آخر كما أرضاه عمر أبوريشة، فقد التزم هذا المبدأ في فترات عصيبة من تاريخ هذه الأمة، وظل كذلك بالرغم من كل المتاعب والمصاعب التي كانت ولا تزال تجرها الكلمة الواعية، وليس خافيًا على أحد من دارسي شعر عمر ما جره هذا الالتزام على صاحبه، كما ليس خافيًا عدم الالتزام عند الكثيرين ممن كانوا يرتعدون لمجرد ذكر تلك المظالم التي يتعرض لها كل من يرفع رأسه في وجه الظلم والطغيان أيام كانت ترزح هذه البلاد تحت نير الاستعباد، ويُحدِّث عمر أنه حُكِم عليه بالإعدام مرتين ونجاه الله.

أقول: إن سيرة رجل هذا شأنه ليس مكانها هنا.. إنما أكتفي هنا برسم الخطوط العامة التي كانت تنتظم بعض نشاطاته السياسية، فبدافع وطني محض ساهم عمر مع إخوانه الشباب - بعد (إنهاء) دراسته العليا في بريطانيا - بمقاومة الاستعمار فرنسي، وعمل على تعطيل خططه، وفضح أساليبه.

وقد بينا في مكان آخر كيف أن كلماته كانت أمضى من حدِّ السيف، كما كانت جبالاً ملغومة بالنار كما شهد له بذلك عارفوه، وقد دخل السجن مرارًا بسببها - كما صرح مرارًا - في أحاديثه ومقابلاته.

ولعل القارئ مازال يذكر قول الأستاذ الشاعر أحمد الجندي «أما السياسة» فقد أحدقت بعمر وأحاطت به من كل جهة، وخوض فيها حتى الركبتين، وشن عمر في مطلع حياته الأدبية حربًا على الساسة من أصحاب الأكثرية الشعبية، وهاجمهم هجومًا لم يلقوا مثله أبدًا، والشعر أداة طيعة في هذا الباب، ووسيلة فعالة لا يقف دون أثرها شيء، فكانت القصيدة تلقى وتنشر، وسرعان ما يتداولها الناس ويتلقفها الواحد من فم الآخر حتى تطغى موجتها على المدينة كلها، وكان لعمر في كل ميدان قنبلة، وفي كل معركة غنيمة وانتصار.

ولقد شرد عمر، وعذب على يد السلطة الفرنسية، وقضى قسطًا من أيام شبابه في السجون، أما أصدقاء عمر في ذلك النضال فقد التزموا بعد الاستقلال

بأحزاب سياسية جديدة، منهم من أسس، ومنهم من ساهم، أو انضم، غير أن عمر لم ينتسب لأي من هذه الأحزب.. إذ ليس تعدد الأحزاب في بلد مثل بلادنا «إلا ترفًا سياسيًّا، وتبديدًا لقوى الشعب» كما يقول عمر، وأقل ما يمكن أن يقال هنا: «إننا لم نصل بعد إلى مرحلة الترف والتبديد».

ولنستمع إلى رأيه هذا شعرًا:

يا للسياساتِ كم أغرت مفاتنُها
وكم كبارٍ على أعتابها صَغِروا

يضاف إلى هذا إيمان عمر أنه يجب على الشاعر الحق أن يهتم بالكل لا بالجزء، وأن عليه أن يعيش في صلب الأحداث، فبقدر ما يظل الشاعر في محورها فإنه يخدم أمته، وشعبه، ووطنه، وأدبه، وواضح هنا أن المحور الذي عناه كان خدمة الوطن والالتزام المطلق بقضايا هذا الشعب الكلية، والأخذ بيده إلى الكرامة والحرية.

ولقد كان هذا هو شأن عمر منذ أن كان يافعًا، وقد بقي بمنأى عن تلك السياسة، ملتزمًا بقضايا الوطن، كل قضايا الوطن الأساسية في حله وترحاله، إنه مع الجماهير في معاناتها ومشاكلها، مع الجندي في خندقه، مع الثكلى في توجعها، مع الجريح في أنينه، مع الرعاة يترصد أعمالهم ليقول لهم ما لم يستطع أن يقوله غيره، وأحسب أن أحدًا لا ينكر عليه ذلك.

ولنقف هنا قليلاً عند ما كتبهُ الأستاذ الجندي أيضًا عن عمر في هذا المجال، يقول: «وظلَّ عمر يروح ويجيء في ميدان السياسة، فهو غاضب، ثائر، وهو لا يقبل مهادنة ولا مصالحة، وهو معارض شديد الأثر، قوي العارضة لا يلين ولا يداري، ويئس خصومه من ملاينته واجتذابه فأخذوا يكيدون له الصاع صاعين، ولكن أنى للنثر أن يقف في وجه الشعر، أو أنى للشعر العادي أن يذكر أمام الشعر النابه، وهكذا كان عمر منتصرًا في كل جولاته السياسية».

وللدكتور سامي الدهان في كتابه الشعراء الأعلام في سورية فصل مفصل مستقل عن شعر النضال عند هذا الشاعر يبدأ من الصفحة ٣٤٩ حتى ٣٦١.

ولعل القارئ أيضًا ما زال يذكر أن شاعرنا قد قضى معظم أيام شبابه في السجون والمعتقلات، - كما يقول - وكيف أن قصيدته «أمتي» قد أحدثت انقلابًا في سورية.

وحينما عقدت الكتلة الوطنية معاهدة مع فرنسا عام ١٩٣٦م لم يجد عمر هذه المعاهدة مختلفة في سائر بنودها عن معاهدة ١٩٣٣م الجائرة بحق الشعب العربي في سورية فنظم قصيدته الشهيرة التي أسماها «العروس» وكان في صوفر بلبنان، وعندما نشرت في الصحف السورية باعتبار أنها قصيدة غزلية كان أول المتنبهين إلى خطورتها فارس الخوري؛ فجمعت نسخ القصيدة وأتلفت، وكان لذلك ردة فعل عنيفة لدى الناس.

ولقد كثر شعر الرثاء عند عمر، إلا أن رثاءه لم يكن توجعًا وتفجعًا، وبكاء وحرقة على من يتخذ منهم مادته الشعرية، إنما كان يفجر في كل رثاء براكين الحقد على المستعمرين والساسة من أذنابهم اتِّباعًا على قصد أو على غير قصد.

عندما أبدع ملحمة «خالد» لم يكتف بالحديث عن خالد وبطولته، إنما جمع الماضي إلى الحاضر فقال:

أنا من أمّة أفاقتْ على العزْ
زِ وأمستْ مغموسةً في الهوانِ
عرشُها الرثُّ من حراب المغيرِ
ـنَ، وأعلامُها من الأكفانِ

فأمة أفاقت على العز ليست أهلاً لتنغمس في الهوان لولا ظلم بعض قادتها المتآمرين عليا وفسادهم فيها، فكان قوله على مبدأ «اسمعي يا جارة» ثم يلتفت إلى خالد فيخاطبه:

لا تــقــلْ ذُلَّـــتِ الــرجــولــةُ يــا خـا
لِـــدُ، واســتــســلــمــت إلــى الأحـــزانِ
حــمــحــمــاتُ الـخـيــولِ فــي ركـبِـكَ الـظَّـا
فِـــرِ مـــا زلـــن نـــشـــوةَ الآذانِ
قُـــمْ تـلـفَّـتْ .. تــرَ الجــنـــودَ كـمــا كـا
نُـــوا مـــنـــارَ الإبـــــاءِ والــعـــنــفــوانِ

وإذا بحثت عن القضية بعد هذا العرض لواقع الجنود فسرعان ما تجدها في قوله عن هذه الجنود الذين:

مـــا تـــخـــلَّـــوا عـــن الجـــهـــاد ولـــكـــنْ
قـــادهـــم كـــــلُّ خـــــائـــنٍ وجـــبـــانِ

ولهذه القصيدة قصة طويلة فصل فيها الدكتور حيدر الغدير في كتابه «عاشق المجد» أعرض عن ذكرها لحرمة الأموات فمن أراد الوقوف عندها فليرجع إلى ذلك الكتاب.

ويقول الدكتور الدهان: «ولعلنا نذهب بعيدًا في إحصاء ما كان من عمر في حلبة الوطنية والجهاد، فقد عاش على الفخار والإباء، وحمل نايه في كل معترك يغني المجاهدين، ويثير المقاتلين بصور دافقة يلونها بآلام الحاضر وآمال المستقبل، لقد كان يكره الرثاء لأنه بكاء، فكان يستعيد ذكرى الزعماء في الأدب والتاريخ والسياسة بصورة شامخة تبعث الإباء في الجيل، وتدفعه الى أن يفيد من دروس الأبطال في القديم والحديث».. فالإباء هو الإباء، والأبطال صنو الأبطال في كل زمان ومكان.

ويقول متابعًا تعليله: «وهذا منتهى الإيمان والاعتزاز، يجريهما عمر في شعره كما أجراهما قبله الشعراء، ولكنهم لم يقولوا كما قال».

وما اختيار موضوع قصيدة «جان دارك» إلا لتقديم دليل وبديل لما كان يدور في وطنه اذ ذاك، وما كان يعتلج في صدره من ثورة وإباء وسعي أكيد حثيث

لمواصلة الجهاد، ولعمري كم جرت الكلمة عليه من أهوال؟!. غير أن حسبه عطف الجماهير التي أحبها واستعاض بقضاياها وحبها عما جرَّته عليه تلك السياسة. ولعل في عمله الدبلوماسي وزيرًا مفوضًا ثم سفيرًا في عواصم شتى من العالم ما يزيد على الاثنين والعشرين عامًا متصلة ما يجعلنا نقول: «إنه كان وما يزال الرجل الأمين المخلص لقضية شعبه وبلاده، فمثلها دبلوماسيًّا فطنًا، وكان كذلك دائمًا في نظر من تعاقبوا على أمر هذا البلد، فكان موضع احترام الجميع طيلة حياته، وفي كل أعماله، إلا في السنوات الأخيرة لأسباب ذكرها في قصيدته «عودة المغترب»، وسيجد القارئ الكريم القسط الوافر منها في مختاراتنا له.

لقد كان إخلاصه في قوله وفي عمله الدليل القاطع على نبوغ هذا الشاعر المبدع، والعبقري النابه والسياسي الفطن الذي كان احترامه مقياس العمل الوطني والعاملين لعزة الوطن وحريته وكرامته، عند الكثير من عارفيه حق لمعرفة!.

وللتاريخ أثبت هنا هذا الحادث السياسي: فقد تلقى عمر تعليمات من الحكومة السورية عام ١٩٥١م وكان إذ ذاك سفيرًا في البرازيل تطلب إليه التعليمات أن يبلغ البرازيل أن عيد سورية القومي هو يوم تنصيب المرحوم أديب الشيشكلي رئيسًا للدولة.

أرسل عمر للشيشكلي يُحذره من نفاق البطانة، ورجاه الحفاظ على عيدنا القومي الذي انطوت فيه آخر راية للاستعمار على يد الشعب بكل فئاته. ولقد فوجئ عمر بعدها ببرقية تؤكد عليه تنفيذ المهمة، فأرسل إليهم أن أرسلوا من ينفذ لكم هذه المهمة، وأحسب أن الرسالة لم تصل إلا إلى من حُذِّر منهم ممن رأى أنه من واجبه ذلك التحذير.

وكان عمر السفير الوحيد الذي رفض ذلك وقد نقل بعدها إلى الأرجنتين.

وهذا ما حدثني عمر به شفهيًا، كما حدثني عن مواقف أُخرى مماثلة أرى عدم الاسترسال فيها فلها مكان آخر.

هذا الموقف من مواقف عمر من السياسة والسياسيين، ومن قضية وطنه وشعبه، وما أخال الشعب إلا حافظًا له هذه المواقف، وإني لألمح التاريخ يسجلها له بأحرف من نور، وإنني لأحسب أن في هذا الموقف ما يغني عن التفصيل.

كما إنني لأكاد أسمع الأجيال تهتف مُقِرَّة بفضله، معترفة بما له من أيادٍ بيضاء مقدرة له تضحياته في سبيل ما كان منه دون سواه من كثير من شعراء، أليس هو القائل في رثاء بطل الجهاد إبراهيم هنانو:

وطـــنٌ أذابَ عـلـى هـــواهُ شـبـابُـهُ
وحـــبـــاهُ بـــالمـــأثـــور مـــن أشـــعـــارهِ
المـجـدُ يـخـجـلُ أن يُـجـيـل الـطّـرفَ في
مـــا هـــدمَ الجـــبـــنـــاءُ مـــن أســـــوارهِ

☆☆☆☆

لكنه سرعان ما يبشّر بالفجر الذي سيطوي حماة الضيم هؤلاء في أطماره.

مــهــلاً حُـــمـــاةَ الـضـيـمِ إنّ لـلـيـلـنـا
فـجـرًا سـيـطـوي الـضّـيـمَ فـي أطـمـارهِ

****

الصورة في شعر عمر

هل نأتي بجديد، عندما نقول: إن التصوير من أهم ما يُجمّلُ به الشعراء شعرهم، ويبقى التصوير في الشعر سواء كان للمشاعر أم للظواهر هو الأهم، والأجمل في عالم الشعر.

فهو إن لم يصور فإنه يجعلك تتصور وتتابع ما يقوله الشاعر، وهذا لا يعني بالضرورة أن النثر عاجز عن التصوير، لكن تصوير النثر يندر أن يصل بروعة تصويره إلى الصورة الشعرية التي تزيدها موسيقى الشعر من تكوين، وجمالٍ وحيوية مستمدة من الإيقاعات الشعرية وجاذبية ترتيب تفعيلاته وتهاديها.

والتصوير بمجمله يحرك النفس، ويؤثر فيها أكثر من الواقع، فكم من مشاهد يمر بها الناس معظم الناس من دون أن يتوقفوا عندها، أو أن تتجذب إليها أبصارهم، لكنهم سرعان ما يقبلون عليها، إذا تناولتها براعة الشاعر، بما يسبغه عليها من لمساته الحانية، ورعشات مشاعره الدفاقة، فكأن مداخلة الشعر قد أقامت جسرًا وجدانيًّا ما بين أعماق الناظر وتلك المشاهد، فتتغير معها الحال إلى صلة روحية ونفسية لها حضورها وفعلها الجميل.

فكلنا يعرف الليل، إلا أن هذا الليل الذي نعرفه، يصبح شكلاً آخر، بعد أن نقرأ للنابغة الذبياني بيته الرائع في تصوير ممدوحه:

وإنّــك كـالـلـيـلِ الــذي هــو مُــدرِكــي
وإنْ خـلـت أن المـنـتـأى عـنـكَ واسـعُ

وهكذا فإن الصورة الشعرية، تخلق دارةً حيويةً، تهز مشاعر النفس، وتستنفر حواسها، وتؤلف تكوينًا عنيفًا مدارًا بالانفعالات والألوان والاستمتاع بعالم الصورة الموحية وملامحه وانطباعاته في النفس والروح.

والتصوير في الشعر العربي حديث ذو شجون، كما أميلُ إلى تصوّره.

فلقد فتح العربيُّ عينيه، فرأى الصحراء تمتد أمامه، وتحيط به من كل اتجاه فعاش بحسه أمداءها الممتدة، فصور ليلها ونهارها وتوقف عند أطلالها باكيًا أو متشوقًا، ورصد حبات الرمل فيها، وهي تستقر هنا، أو تتطاير هناك، من كثيب إلى آخر، ومن موقع إلى سواه، مسافرة مع عويل الريح، متلظية من حرارة شمسها اللاهبة. ومن الطبيعي أن تحتل الناقة والخيل والسيف مكانتها في وجدانه لأنها تمثل معالم بيئته التي نادرًا أن يعرف لغيرها سبيلاً، هذه البيئة، التي أقبل عليها بإحساسه ووجدانه، فأبدع في نقلها، ورسم صورها، وجعل من حركة الرمل وحركة الدويبة الحقيرة لوحة ناطقةً ومولدةً للأحاسيس، دون أن يتجاوز في رسومه السمات المرئية، والحالة النفسية، والمشاعر القبلية، ويعيد صياغتها خلقًا آخر لا وجود له سوى في دائرة الخيال، ثم كان أن حمل هذا العربي رسالة السماء إلى الأرض، فصرفته أعباء الرسالة الجسام فإذا به إنسان آخر أمام أمر آخر فجند كل ما لديه من أجل رسالته التي أصبح وجودها كل وجوده فقلما أعطى اهتمامه لغير هذه الرسالة، فهو من خلال نشرها، ونقل عقيدته السماوية الراسخة في أعماقه عملاً دؤوبًا في قوله وفعله لإيصالها للعالمين، فإسلامه أصبح المصدر والموجه لسائر شؤونه وأعماله ومسالك فكره. وحسبنا أن نشير هنا، إلى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه، شاعر الرسول ﷺ فقد قيل له: إن شعرك في الجاهلية أجود منه في الإسلام، فأجاب: إن الإسلام قصَّ لساني، ووضع هذا الميزان الجديد لشعره:

وإنَّ أصــــدقَ بـيــتٍ أنــتَ قـائـلـهُ
بـيـتٌ يُـقـال إذا أنـشـدتَـهُ: صَـدقَـا

وأن لبيدًا رضي الله عنه الذي كان أبرز شعراء قومه قد هجر الشعر بعد أن قرأ سورتي البقرة وآل عمران، وقص اللسان الذي أتى به حسان إنما كان لجمًا للكذب والمبالغة وحدًّا منهما، كما هو ضبط النفس عن الانزلاق في مهاوي الغواية والضلالات، فالعقيدة الإسلامية المهيمنة كان لها تأثيرها الواضح الصريح على حركة الشعر، فقد جعلت الشعراء في قسمين، أولئك الذين يتبعهم الغاوون، والمؤمنون الذين يعلمون ما يفعلون، فلا ينقادون وراء الغواية ورعونتها، ولا يستجيبون إلى نزعات النفس وشهواتها، وإنما يستمدون أقوالهم وأفعالهم من وحي عقيدتهم التي خصهم الله بها وندبهم إلى حملها ودعوة الناس إليها، لينالوا رضوان الله وحسبهم أنهم كانوا جنودها الأوفياء، وكان العصر الأموي العربي امتدادًا بشكل عام لما سبقه في الالتزام بالعقيدة الإسلامية.

ثمَّ جاء العهد العباسي، حاملاً معه مزيجًا من ثقافات شتى، وعم الناس الترف في كل شأن من شؤون حياتهم، ترف لا عهد للعربي به على هذا النحو الذي كان جديدًا في معظم ما كان منه فالثقافات الوافدة بدأت تترك بصماتها في مظاهر الحياة، غير أن الروح العربية برؤيتها الإسلامية، بقيت مهيمنة على سلوك الفرد والمجتمع، فحافظت على حضورها بالرغم من ظهور تيارات واتجاهات حديثة في مجالات الفكر والفن والعلوم الأخرى، وحظي التصوير الشعري في ذلك العهد بنصيبه المنشود، فانطلق أبوتمام وابن الرومي في هذا المجال حتى قيل لأبي تمام: لم تقول ما لا يفهم؟ فأجابهم لم لا تفهمون ما يقال؟، وكان للنقاد معهم شأن يذكر، فقد حمل هذان الشاعران بقية من التخيلات الموروثة عن ديانة قوميهما، وإن كان هناك شك في نسب الأول، فلا شك في نسب الثاني، كما يؤكد ذلك الدكتور

شوقي ضيف، معتمدًا على شهرته فقال في كتابه: «دراسات في الشعر العربي المعاصر، غير أن هذا الميل إلى التجديد لم ينل عناية كبيرة لدى بقية الشعراء، وقد عد النقادُ ذلك خروجًا على مألوف القصيدة العربية، ولم يتهاونوا في التصدي له، فبقيت الصورة عادية لا تكلف فيها ولا تحمد، إنما تجيء عفو الخاطر كما يقال، ونحسب أن المتنبي كان من أكثر الشعراء تصويرًا، إذا استثنينا ابن المعتز، الذي تبنى هذا اللون الجميل في شعره، ومسألة التصوير في الشعر، طالما طرحت تساؤلات عن قدرة العقل العربي على العيش مع الخيال وضيق ذهنه عن التعامل معه، ووجد كثيرون ممن لم تعْنِ لهم العربية تلك الأهمية فوجدوا مطعنًا لتشويه مكانة العقل العربي، والتقليل من فاعلية الروح العربية وحيويتها الكامنة، ومثل هذه الدعاوى الحاقدة، يكذبها سجل الفكر العربي بعطاءاته وكشوفه الباهرة ومنجزاته الحضارية الخالدة، التي كانت على مرّ الزمن موضع التقدير والإجلال من الدارسين والمنصفين، بما فيهم أعداء العرب. ولقد صدرت الموسوعات لعلماء ومفكرين من مختلف اللغات تبحث في العلوم الأساسية التي أبدعها العرب، أو جددوها أو طوروها.

وقد واجه الأدب عمومًا مراحل صعبة، وعانى من عانى من رجاله الضياع والقلق، فانصرفوا عن بذل المزيد من الجهد في تجويد شعرهم، حتى إن بعضهم قد انصرف عنه عندما لم يحقق له الأدب بغيته، وبقي الشعر في معظمه تقليديًّا، ولابد أن نستثني من ذلك الشعر الأندلسي، الذي تميز إلى حدٍّ ما عن الشعر المشرقي، وليس معنى هذه الأحكام أنها قطعية فهناك في شعر الكثيرين من شعراء العصر الأموي والعباسي ما أبدعوا فيه.

وجاء العصر الحديث، واختلطت الثقافات وتمازجت، وكثرت الصلات والعلاقات على الصعيد العالمي، ومضى مثقفو كل أمة، ينهلون من آداب الأمم الأخرى بحكم الاتصالات السريعة السهلة، واللقاءات المتبادلة، التي هيأتها معطيات العصر.

فماذا عن حظ الشاعر عمر أبوريشة من هذا الفن الآسر الجميل؟!

إننا لا نبالغ إذ نقول إنه كان صاحب الحظ الأوفى، فلقد كانت للشاعر رحلات بعيدة المدى مع كبار شعراء الصوفية، تلك التي نشأ عليها وأثرت في شعره في مراحله الأولى، وكان لها دورها في نقله إلى آفاق الروحانية السامية، وقد منحه ذلك مخيلة واسعة، وهيأ له مقدرة على استيعاب آداب الأمم الأخرى، فانكب على دراستها بنهم، وهو العبقري المهيأ لذلك، وأصبح ملتقى الجيد والنادر الطريف من الأدب العربي وآداب العالم الأخرى، التي وعاها وتعامل معها بلسانها، فارتقى بالشعر العربي إلى مواقع رفيعة علت مواضيعه المألوفة المتوارثة، وسمت عليها.

كان التصوير عند عمر ركنًا أساسيًّا وصفة واضحة، وسمة مؤكدة الدلالة، ولم ينل هذا الفن عند الآخرين ما ناله من عناية عمر ورعايته الأمينة لها كمًّا وكيفًا.

والترف والفنية الرائعة ميزتان توِّجت بهما لوحات عمر وصوره الشعرية، وكان لريشته فعل السحر بما اتصفت به من خاصية التعامل مع الآفاق والأبعاد والإيحاءات، بما استطاع أن يرسمه بأقل الكلمات صورًا ساحرة خلابة، تعجزُ عنها ريشة جمة الألوان.

حشد دائم لا ينقطع من عرائس الصور وحورياته الفاتنات، فإذا بديوانه، كما يقول الدكتور شوقي ضيف «متعة فنية»، ولا يجد الدكتور ضيف أدنى حرجٍ في أن يقول: «إن أبا ريشة أحد شعرائنا المعاصرين، الذين استطاعوا أن يديروا هذه الآلة «آلة التصوير» إدارة حسنة.

دعونا الآن نمعن النظر في اللوحة التالية، حيث القدرة العجيبة المذهلة على التصوير:

نـهـضَ الـفـجـرُ مـثـقـلاً يـتـلـوَّى
فـوق صـدرِ الـطـبـيـعـةِ الخـرسـاءِ
يـتـخـطّـى الـرُّبـى وئـيـدًا ويـهـمـي
بـشـتـيـت الأظـلال والأنـداء
وثـبـة إثـرَ وثـبـةٍ ذائـبُ الألـ
ـوانِ فـيـهـا.. وجـامـدُ الأضـواء
فـارتـدى الـكـونُ بـردةً مـن جـمـالٍ
وتـهـادى بـبـاسـم الـنّـعـمـاء
وإذا الـطـيـرُ بـيـن كـرٍّ، وفَـرٍّ
مـن غـديـرٍ لـروضـةٍ غـنّـاء

أما تمتّع ناظراك بهذه المناظر السحرية الخلابة؟!

ثم تعال لنغرق في الانتشاء بهذه اللوحات:

هـبـطَ الـسـهـل والـهـجـيـرة تـنـفـضْـ
ـضُ وتـطـوي مـطـارف الأفـيـاءِ
وتـصـبّ الخـمـولَ والـسـأمَ الـصّـا
خـبَ، والـصّـمـتَ فـي فـمِ الـغـبـراء
ورؤوسُ الأزهـار مـطـرقـةُ تـنـسلُّ
مـنـهـا انـتـفـاضـةُ الـكـبـريـاء
وقـيـانُ الأغـصـانِ مـلـويـةُ الأعـ
ـنـاقِ صـرعـى كـآبـةٍ عـمـيـاء

مشاهد، قد نمر بها كل يوم، لكننا لا نؤتى رؤيتها على هذا النحو من الجمال الأخاذ المنسجم، والحركة الدفاقة، كما أخرجتها لنا ريشة عمر بألوان حس الفنان المرهف، وجعلت منها كونًا بديع الصور في سطور!!

وإذا كانت تلك الصور من خيال الشاعر، فإن براعة التناسق، وانتقاء اللون، وتلك اللحمة الحميمة مع الواقع، جعلتها قريبة إلينا في نسبتها إلى الواقع، وليس كالخيال الغارق في متاهات ذات غموض وإبهام وظلمات تتعثر بالظلمات.

إنَّ صورة عمر هي صورة الخيال المدرك بريشة الفنان المبدع، الذي لا يغيبه خدر الخيال عن الموضع ذي ترسخت قدماه في عمق أرضه فتعمقت فيها جذوره وسمقت فروعه الزاهيات.

إن المقارنة هنا بين القصيدة التي اخترت منها هذين المقطعين، وبين قصيدتين مماثلتين في مناسبة واحدة، «ذكرى المتنبي» تضع بين أيدينا الكثير من الفوارق بي أساليب هؤلاء الشعراء الكبار.. والقصيدتان المعنيتان هما للشاعرين الأخطل الصغير والقروي.

فلقد أصر الأخطل على أن ينفي عنك العلا والظرف والأب – وإن خلقت لها – إن لم تزر حلب مدينة المتني.. وينطلق الأخطل في سرد قصة المتنبي ببلاغة يرقص سامعها طربًا وعجبًا، حتى يقول للأنس والجن «سميته المتنبي فانتشوا طربًا».

هذا الأسلوب البلاغي مألوف تعودنا سماعه عند القدماء والمحدثين، كذلك فعل القروي، فراح يقرر – بسيف بلاغته – أن المتنبي:

«نبيٌّ.. وإن ضجَّتْ شيوخٌ ورهبانُ
وهل بعد إعجازِ ابن كندةَ برهانِ؟!

ويستشهد على حكمه هذا الذي أصدره مطمئنًا بعد تساؤل واضح الإجابة بل هو سابق لها.. ولمزيد من التوضيح ها هو يبرز حكمه هذا بإعجاز المتنبي: وهل بعد إعجاز ابن كندة برهان؟!

وتعال قارئي نعش مع عمر وكيف قدم لنا شخصية المتنبي، لقد تناول تلك الشخصية الإبداعية، بالتحليل العلمي والكشف النفسي يرسمها ببراعة المحلل، وخيال الملهم الفذ، وقدرة فائقة على النفاذ إلى الأعماق:

شاخصَ الطرفِ في رحاب الفضاءِ
فوق طودٍ عالي المناكب نائي
يرقب الفجرَ والندى مالئٌ برْ
ديهِ والشعرُ مائج في الهواءِ

ثم توجه إلى البيئة الطبيعية الساحرة، والحياة العامة والخاصة، التي استمد المتنبي منها نبوغه الفذ:

صورٌ أفرغتْ على أذنِ الشّا
عرِ نجوى عُلْويَّةُ الإيحاءِ

ويتتبع تلك العوامل وإغناءها، ثم هو يرود مسالك المناهل، التي كان لها دورها في تكوين شخصية المتنبي الشعرية، فإذا بالقصيدة فتح جديد في عالم الشعر متميزة بصورها عن كل من قال في المتنبي، ولعله من الطرافة أن نذكر أن عمر قد عنون قصيدته هذه بـ«شاعر وشاعر» وكأني بل إني لا أشك في أنه كان يعني نفسه بالشاعر الثاني.

وليس معنى هذا أنني أردت النيل من قصيدتي الشاعرين الكريمين، وإنما هدفي من ذلك بيان الإبداع التصويري عند عمر وتميزه، مع إيماني أن لكل شاعر أسلوبه الذي اختص به فدل عليه، وإن جاز لي أن أصف القصائد الثلاث، لن أجد إضافة على القول بأن الأخطل والقروي قد جاد كل منهما قراءة قصة المتنبي علينا، بينما حملنا عمر إلى دار عرض فاخرة، وقدم لنا فيلمًا ملونًا غنيًّا بالجمال،

تتوغل رقة الألوان وبهاؤها فيه إلى أعماقنا وإحساساتنا، توغلاً ممتعًا لذيذًا ومثيرًا للإعجاب والانبهار، وما رأيكم في وقفة صغيرة، مع هذا المشهد:

كـم نجـمـةٍ وثـبـتْ لـتـلـثـمَـهُ فـلـمْ

تـظـفـرْ بـــهِ.. فـتـعـلـقـت بــــإزارهِ..

تخيل تلك النجمات تثب لهفي تمد شفاهًا أضناها شوق غلاب للثم من هامت به، وعش مرارًا الخيبة، إذ هي ردت دون أن تظفر بما وثبت له، أما تشفق عليها وأنت تبصرها متعلقة بإزار من ولهت به، تستجديه.. ربما قبسًا من ناره بعد أن لم تظفر بقبلةٍ منه، وتعال نتابع استمتاعنا بهذه المشاهد:

كـم مـتـعـبٍ جـــرَّ الـسـنـينَ راءَهُ

ومـشـيـبُـه يـبـكـي جـــلالَ وقــارهِ

مـتـلـفـتًـا صـــوبَ الـديـــار مـودعًـا

وخُـطـــاه بـــين نـهـوضـه وعـــثـــارهِ

أي سنوات ثقيلات مثقلات يجرها المتعب المجهد، وخطاه ضائعة به ما بين نهوض وعثار، ومشيبه باك مقرح الأجفان!!

ولم يتوقف عمر عند هذا الحد الظاهري، بل نفذ إلى العمق، يلاحق نزعات المتعب ويصور ما يكابده من الأحزان، النزعات المنهوبة بين براثن القلق في لحظة وداع مثلها عمر في التلفت والحنين والخطى العاثرة وبكاء المشيب.. ثم ماذا عن هذه الروعة في دقة التصوير:

يـا ربَّ أمٍّ جـــفَّ زيـــتُ سـراجِـهـا

وغـــدتْ هـواجـسُـهـا عـلـيـهـا تَجـأرُ

تـسـتـعـرضُ المـاضـي، ووارف ظـلّـهِ

فـتـغـصُّ بـالـذكـرى، فـمـا تـتـذكَّـرُ

وصبيةٌ طافتْ بها أحلامُها

والشوقُ بين ضلوعِها يتفجَّرُ

أين اللقاءُ السمحُ يسأل قلبها

الغضّ الطريّ.. ونهدها المتحجِّر

حتى إذا صفع القنوطُ رجاءَها

باتت على جوع الصّبا تتضوَّر

☆☆☆☆

وأبٌ يجرُّ وراءه أعوامَهُ

والشيبُ مذبوحُ الوقارِ معفَّرُ

يبكي، وتبكي الكبرياء وكأنها

خجلَى تحسُّ بما يحس وتشعرُ

يا للبنينَ الصِّيد أيّ منهمُ

يلقى أحبته، وأيّ يقبرُ؟

إني لألمحهم على ميدانهم

والموت منجلُه يغيب ويظهرُ

ترى هل هذه صور أم أنها مشاهد حيّة عشنا معها على نصف ورقة بيضاء ما كان أوهاها لولا أنها تماسكت لتتحمل تزاحم هذه الصور؟!

إنها حياة غنية بالتفصيل الدقيق، والمعالم الواضحة المشوقة، وإنها لتجسيد عميق، وتعامل صادق وأمين في هذا التجسيد.

وما أجدر هذه اللوحة المعبرة، أن تظفر ونظفر بالتوقف عندها وهي منقولة بدقة وأمان أيضًا عن حال العربي إثر نكسة ١٩٦٧:

تتساءلينَ علام يحيا هؤلاء الأشقياءْ؟!
المتعبونَ، ودربهم قفرٌ، ومرماهم هباء!
الذاهلون الواجمونَ أمام نعشِ الكبرياء
الصابرون على الجراح، المطرقون على الحياء
أنستهم الأيامُ ما ضِحكُ الحياةِ، وما البكاء
أزرت بدنياهمْ، ولم تتركْ لهم فيها رجاء
تتساءلينَ!! وكيف أعلم ما يرون على البقاء
امضِي لشأنكِ.. اسكتي.. أنا واحدُ من هؤلاء

هذا هو حال الأشقياء المتعبين على الدرب القفرة والمرمى هباء، والزاد غباء!
ولأن التاريخ يسجل، ولأن شعر عمر سيكون من التاريخ، يمضي شاعرنا في تقديم الصورة الدقيقة عن هؤلاء الواجمين ذهولاً، الصابرين على الجراح، الذين نسوا الضحك، وجهلوا ولم يقدروا حتى على البكاء!!

هؤلاء الذين عرضهم الشاعر وهو منهم يسأل عنهم فلا يعلم إلا أنه واحد منهم!!

إعجاز ساحر خلاب، عبر أصدق تعبير عن معاناة الإنسان العربي، وهو يعيش مآسي النكبات المتتالية، ويداه تنزفان، وقد عزّ الضماد:

وانظر إلى هؤلاء المترنحين سكرًا، ورغم سكرهم مازالوا يذكرون فقيدهم وأنيس مجلسهم.

إنما لم تزلْ رفاق ليالِيْـ
ـهِ كرامًا على عهود ودادهْ
تَجمَعُ الخمرُ بينهم فيخلو
ن فراغ اتكائهِ واتساده

وإذا مـــرَّ ذِكــــرهُ قـلـبـوا الـكَـأْ
سَ عـلـى الأرض حـسـرةً لافـتـقـادِهْ

نترك سكارى الأسى، ونعود إلى نقاء الصحراء.

وقبل أن نوغل فيها، أرى أن نستريح قليلاً عند ما قاله الدكتور شوقي ضيف، في كتابه «دراسات في الشعر العربي المعاصر».

«في كل جانب من جوانب الديوان - ديوان عمر - نجد هذا التصوير البارع، بحيث نستطيع أن نقول: إن التصوير أساس فنه، وهو تصوير يد صَناع، تعرف كيف تضم الخيط إلى الخيط، واللون إلى اللون، والضوء إلى الضوء، والظل إلى الظل، فلا نحس نشازًا، بل نحس استواء وائتلافًا».

ولشوقي ضيف هذا أيضًا قول آخر في المصدر السابق، وفي السياق نفسه: «وليست اللغة التصويرية، هي كل ما نلاحظه في شعر أبي ريشة، بل نحن نلاحظ أيضًا، أنه يعرف كيف يحيل الحقائق التاريخية إلى صور مثيرة، يؤثر بها في عواطفنا ومشاعرنا، إذ يعرف كيف يجوب التاريخ، كما يعرف كيف يجوب حقائق عصره».

وهيا بنا الآن إلى الصحراء، وما عرضه لنا منها:

أيّ نجـــوى مـخـضَّـلـةِ الـنَّـعـمـاء
ردّدتـــهـــا حـــنـــاجـــر الـصـحـــراء!

فالصحراء التي يُحبها ويتغنى بها هي عنده عاقلة ترسل نجواها مُخضَّلةً بنعمائها، وأحسبُ أنه لم يجسد الصحراء شاعر قبله كما جَسَّدها.

وكم يطيب المقام ويحلو في مقدمة ملحمة النبي، وتلك الصحراء المباركة، التي أنزلت فيها رسالة السماء إلى الأرض، وعلى ناحية من أرضها كانت معركة بدر، فإذا

بأرض المعركة، تصبح أمامنا.. التلال والعُدوتان القصوى والدنيا - والسرية التي كمنت وراء التلال.. وحماتها.. والجيش ساعٍ بين وهج القنا وزهو الحداء.. وجز السيوف للأعناق.. ثم ها نحن أمام القائد الذي حمل الأمانة، وغرس العقيدة في القلوب فألهمت الثبات على الحق، فتحرز تلك الفئة من المستضعفين قليلي العدد والعدّة النصر المبين الذي سيبقى فريدًا بنتائجه الباهرة، إذ أصبح قناعةً راسخة بنصر الحق على الباطل على مرِّ الزمان مهما كانت العقبات وكثرت التضحيات.

وقـف الحـقُّ وقـفـةً عـنـد بـدرٍ

شـحـذت فـي الـغـيـوبِ سيـف الـقـضـاءِ

ووراءَ الـتـلالِ رَكْـبُ أبـي سفـ

ـيـانَ يـحـمـي سـريّـةَ الـفـيـحـاء

وقـريـشٌ فـي جيشـهـا اللّـجـبِ تسعى

بـيـن وهـج الـقَـنـا وزهـو الحـداء

بَـلـغـتْ مـنـحـنـى الـقـلـيـبِ ولـفَّـتْ

مـن عـلـيـه بـبـسـمـة اسـتـهـزاء

وأرادت اكـفـاءهـا فَـتـلَـقَّـا

هـا عـلـيٌّ ذؤابـة الأكـفـاء

جَـزَّ بـالـسـيـف عـنـق شـيـبـةَ وارتـ

ـدَ إلـى صـحـبـه خـضـيـب الـرِّداء

فـطـغـى الـهـولُ والْـتـقـى الـنِّـد بـالـنـ

ـد ومـاجـا فـي لجَّـةٍ هـوجـاء

وعـيـونُ الـنـبـيِّ شـاخـصـةٌ تـرْ

قُـصُ فـي هـدبِـهـا طـيـوف الـرجـاء

هكذا أصبحت أمامنا بدر بأدقِّ ما كان من تفاصيلها.

ثم ينتقل بنا إلى عظمة هذه الصحراء التي تربّى على عطاءاتِها أولئك الرجال واختارهم الله لحملِ تلك الرسالة.

يـا أكـفَّ الـصـحـراءِ مـا نـبت المجْـ

ـدُ عـلـى غـيـر راحـةِ الـصـحـراءِ

وما دمنا في ذكر الصحراء، فنعرج على هاتين الواحتين:

بـدويٌّ أورقَ الـصـخـرُ لـهُ

وجـرى بـالـسـلـسـبـيـلِ الـبـلـقـعُ

مـنـتـهـى دنـيـاهُ نـهـدٌ شـرسٌ

وفـمٌ سـمـحٌ وخـصـرٌ طَـيِّـعُ

ومع أننا في لفح الصحراء وبين لهيبها العنيف، إذا بنا في نقلة حانية عند ظلال ندية وسلسبيلٍ دافق من عمق ذلك البلقع.

فَـانـتـقِـي أكـرمَ مـا يـهـفـو لـهُ

مـعـصـمٌ غـضٌّ، وجِـيـدٌ أتـلـعُ

هنا كمال الروعة، وزهو الجمال، في تجسيد أنيق حي، ليس في الصورة المجردة وحدها، فالمعصم الغض يهفو.. والجيد الأتلع يشرئب، ليطوف بيد الأمير بأكرم ما يهفو له معصم تلك «الأجنبية» وجيدها.

وإذا ما خطر لنا أن ننتقل إلى أجواء أخرى للمعارك، التي صورها عمر، فلا بأس من تلك التي كانت بقيادة القديسة «جان دارك»:

نـادتْ بـفـيـلـقِـهـا الـبـتـو

لُ وهـزّ سـاعـدهـا الـمـهـنـدْ

وعـدتْ إلـى حـرم الجـهـا

دِ الـسـمـح بـالـعـزم الـمـوطـد

فَتلاحمَ الجيشانِ وانْـ
ـدلعَ اللظى.. والهول أرعدْ
هذا يفرُّ، وذا يكرْ..
رُ وذا يكبُّ .. وذاك يصعدْ
والموتُ يأكلُ ما تُلَقْـ
ـقِمُهُ يدُ الطّعنِ المسدّدْ

إلى أين وصلنا مع هذه الكلمات؟!

أتشيح بوجهك اتقاءَ سهام الأبطال؟! أنا فعلت ذلك مثلك!!

عالم يتحرك، يهدد ويتلاطم، في معركة طاحنة، وقد تلاحم الجيشان، واندلعت اللظى، وأرعد الهول.. وأطل الموت، يلتهم ما لقمته يد الطعن المسدد من يد ذاك الذي يفر، أو هذا الذي يكر، أو من أولئك المكبين على القتال.. أو من هؤلاء الصاعدين مسرعين إلى مكان آمن يرسلون منه نيران أسلحتهم.

وإن من حقنا بعد الفر والكر، أن نخلد إلى أحضان الطبيعة الغناء لنشاهد كيف يكشف لنا عن كنوزها الرائعة، بتصوير جمال بلاده الخلاب:

رمـلٌ وصخورْ
ومطاف نسورْ
ومواكب أخيلةٍ تهمي
من كوة عالمها المسحور
وحمائمُ بِيضٌ في اليمِّ
مدَّتْ أجنحةً للنجمِ
ووراء سراها في الديجور
ذيلُ من نورْ

إن الإبداع هنا في التقاط هذه المشاهد على هذه الإيقاعات إنما هو حليف أمين للشاعر حتى ما كان منه في التصوير الرمزي، وإلا فكيف أصبح رائدًا وحجة بيد الإبداع؟!

وإن المرء ليحار عند الاختيار، ويخشى أن يكون ظلومًا جهولاً، إن أخذ هذه، وترك تلك من صوره الباهرة.

وهذه صور، جاء اختيارها عفو الخاطر:

رُبَّ طيفٍ عاتبٍ نعرفُهُ
جالَ في أحداقِنا مُستفهما
وإذا القُبلةُ نادتنا حبًّا
بين شقي شفتينا وارتمى

☆☆☆☆

أخذت تمطي، والفتورُ
يهزُّها عضوًا فعضوا

☆☆☆☆

وتراجعتُ تاركًا في سماء الـ
ـليلِ أشلاءَ قهقهاتٍ طويلةْ

☆☆☆☆

أرى بين جفنيك جسرَ الدموعِ
تسيرُ عليه طيوفُ الألم

☆☆☆☆

على شفاهك بوحٌ
بصمته يتلعثمْ

لا تطلعيني عليهِ
إنّي بما فيه أعلَمْ

☆☆☆☆

طيف على أهدابِها
كَسَّرها تَنقُلا

☆☆☆☆

والصخورُ الجسامُ ناتئةُ الأنـ
ـيابِ تدمي أقدامَه.. وهو تائهْ
ورؤوس الأشواكِ ترتدّ عنهُ
وعليها ممزقٌ من ردائهْ
والأماني أمام عينيه أطيا
فُ سرابٍ تموج في بيدائهْ
وانثنى عائدًا يشيّع حلمًا
يتلاشى في مقلتيْ نعمائهْ

☆☆☆☆

رُبَّ نجوًى على الطِّلا هَمَسَتْها
في خيالي حناجرُ الاتراحِ

☆☆☆☆

وأنتَ عليها انفلاتُ العبيرِ
من الطيبِ في البرعم الأخضرِ

☆☆☆☆

على شهي رؤى لقياك مطبقةٌ
أجفانها.. فهي تستجدي وتنتظرُ

☆☆☆☆

وسـرتُ فـي وحـشـتـي.. والـلـيـلُ ملتحفٌ

بـالـزمـهـريـر.. ومـا فـي الأفـق ومـضُ سنا

☆☆☆☆

قَـــدَمٌ تجــرح أحـــشـــاءَ الـــثـرى

وفـــمٌ يـلـثـم خـــدَّ الـفـرقـدِ

وها هو يرينا كيف يصور نجواه وما حدث له بعد تلك التجربة:

فَـخـنـقـتُـهَـا فـي خـاطـري، فـتـسـاقطتْ

فـي أدمــعـي فـشـربـتُـهـا مـتـلـعـثـما

ورجـعـتُ أدراجـي أصـيـدُ مـن المنـى

حـلـمًـا أنـام بـأفـقـهِ مـتـوهّـمـا

☆☆☆☆

فـمـا يـرضـعُ الـشـوكُ مـن صـدرهِ

ولا يـنـعـبُ الـبـومُ فـي رأسـهِ

وتـلـك الـعـنـاكـبُ مـذعـورةٌ

تـريـدُ الـتـفـلّـتَ مـن حـبـسـهِ

لـقـد تـعـبـتْ مـنـه كـفُّ الـدّمـارِ

وبـاتـتْ تـخـاف أذى لمـسـهِ

أي تصوير أبهى وأروع من هذا يا عمر؟!

حقًّا، نحن لا نعدم أن نرى الصور الفنية الجميلة مبثوثة في دواوين شعرائنا، لكنها لم تؤت حظ الترف المتألق، والتناسق الرائع، كما هو الحال عند الشاعر «عمر أبوريشة».

إنه شاعر لوحة ناطقة، ومبدع صورةٍ مترفةٍ من الطراز الأول!.

يقول الدكتور شوقي ضيف:

«ما نزال نرى مشاهد رائعة عند هذا الشاعر، الذي تشبه قصائده الطويلة أدق الشبه السياحات الكبيرة، ونقصد سياحات الخيال، وهي سياحات تملأ نفوسنا وقلوبنا، وتدفعنا إلى أن نقرأ فيه، لأننا نجد فيه غذاء فنيًّا، لا نلبث حين نقرأه، أن نتمثله، وأن نشعر بأنه يضيف إلينا ثروة جديدة، لا ثروة خيالية فحسب، بل أيضًا ثروة نفسية، فهو يقوي من عزائمنا ويشد من إرادتنا».

هل حاولت رسم «كاجوراو»؟!

كم أخذ رسمها منك من الوقت؟!

وكم اقتضت منك حجمًا؟!

هل ترك أي شريط سينمائي شاهدته، ما أودعته هذه القصيدة في ذهنك وقلبك..

لقد اختصر عمر تكاليف الشريط الباهظة، ومعداته الفنية الدقيقة الهائلة بورقة محدودة الحجم، معدودة الأسطر.. وهذا هو إبداع العبقري الملهمة..!

ثم لنتملَّى هذه اللوحة:

فــإنــي أحـــسُّ بـــه هـمـهـمـاتِ

الـــوحـــوشِ وخـشـخـشـةِ المـقـبـرةْ

فــــذا شـــبـــحٌ فـــاغـــرٌ شـــدقَـــهُ

وذا شـــبـــحٌ شـــاحـــذٌ خـنـجـره

ألم تأتك خشخشة مماثلة وأنت تعبر مقبرة؟!

وتـراجـعـتُ تـاركًـا فـي سـمـاءِ الـ
ـلـيـلِ أشـلاءَ قـهـقـهـاتٍ طـويـلـةْ

وفي «جان دارك»:

وتـهزّنـا هـزًّا فتعلو تـارةً.. وتـخرّ طـورًا

ما أروع التعبير يتألق بالصدق ويزهو بالجمال.

وكذلك في «عناد»:

وأرى الـشـتـاءَ تـطـاولـتْ أيـامـه
وازداد عـسـفًـا قـلـبـه المتـحـجـرُ
كـم زارنـي فكشفتُ عـن صـدري لـه
فـأقـامَ لا يـزهـو ولا يـتـكـبَّـرُ
مـا زلـتُ أذكـرُ كـيـف كـان لـهـاثـهُ
مـن دفءِ أضـلاعـي يـذوبُ ويـقـطـرُ

أجواء تحياها نشوان، وتنطلق بك في رحابها من غير حدود ولا أسوار.. كل المنافذ مهما كانت حصينة تخر أمامها راكعة مبهورة بالحسن والجمال.

ولم يتوقف نبوغ عمر عند حدود الصورة بجمالاتها وروائع بيانها، بل وضع الأطر وقدم الألوان، وأعطى الريشة وقال:

ارسموا ما شئتم، فلقد أصبح الإطار بين أيديكم جاهزًا، والألوان منتقاة باصطفاء الفنان المبدع حقًّا:

وبـقـايـا ذكـريـاتـي تـعـبـثْ
فـهـي لا تـبـكـي ولا تـبـتـسمْ

ماذا تفعل؟!

قد آثرك الشاعر بالجواب!..

لا يـــا أعـــــزُّ وأغـــلـــى
مــا فـــي الــــوجـــود وأكــــــرمْ
إنـــــي لا أعــــجـــزُ عـــن أن
أخـــــــــافَ أو أتـــــألــــمْ

وبعد..

ذلك هو عمر أبوريشة! وهذا بعض ما صورته الريشة.

****

القصة في شعر عمر

كيف تبدو القصة في شعر عمر؟!

لاشك ولا ريب في أنها مثل بقية شعره ألقًا وإبداعًا وإجادة وحسن توفيق.

ولا شك عندي في أن عمر قد اطلع على المعارك الحامية التي جرت بين النقاد حول القص الشعري إلى درجة أنكر كثير منهم قدرة الشعر على القص بدعوى أن القصة ولدت نثرًا كما ولد الشعر شعرًا، وكلٌّ لما وجد له.

وانتصر بعضهم إلى هذا النوع الجديد على الأدب العربي متفائلين بقدرته بل وبتفوقه إذا أتيح له الشاعر الحق.

واستشهد كثير منهم بما قدمه شعراء المهجر، وخليل مطران وغيرهم ممن اهتموا بهذا الوليد الذي حسبوه جديدًا فوفروا له ما تقتضيه الولادة، ولم يقصروا في خدمة هذا الوليد برغم منكري قدرة الشعر عليه، في حين أن معظم هؤلاء لم يذكروا ما في تاريخنا الشعري من قصص بلغ بعضها حد الإعجاز كقصيدة «جود العرب» للحطيئة، فليس لمنصف إلا أن يقر بإدهاشها، ومكانها اللائق في القص الشعري وفي لغات العالم كله - فيما أميل إليه - فإنك تراها قد كتبت للقص وللقص فقط مع ما تضمنته من إبراز القيم النبيلة الموروثة عند العرب، ولست أمل من ترداد هذا الرأي، وإقامته حجة على منكري قدرة شعرنا العربي على القص الجميل.. ولمن فاته الاطلاع عليها سأوردها كما حفظتها منذ ستة عقود تقريبًا يقول الحطيئة:

وطــاوي ثــلاثٍ عـاصـبِ الـبطـنِ مُـرْمِـلٍ

ببـيـداءَ لـم يـعـرِفْ بـهـا سـاكـنٌ رسـمـا

أخـي جـفـوةٍ فـيـه مـن الأنــس وحـشـةٌ

يـرى الـبـؤسَ فيـهـا مـن شـراسـتـهِ نُعمى

وأفـــردَ فــي شـعـبٍ عـجـوزًا إزاءَهـــا

ثــلاثـةُ أشـبــاحٍ تـخـالُـهـمـو بَـهـمـا

حـفـاةٌ عــراةٌ مـا اغـتـذوا خـبـزَ مَـلّـةٍ

ولا عـرفـوا لـلـبُـرِّ مـذ خُـلـقـوا طعمـا

رأى شـبـحًـا وســطَ الـظـلام فـراعَــهُ

فـلـمّـا بـدا ضـيـفًـا تـشـمّـر واهـتـمّـا

وقـــال: أيـــا رَبّـــاهُ ضـيـفٌ ولا قِـرًى

بـحـقّـك لا تحـرمْـهُ تـالـلـيـلـة الـلـحـمـا

فـقـــال ابــنـــه لمــا رآه بـحِـيْـرَةٍ

أيـا أبـتِ اذبـحـنـي ويـسّـرْ لـه طُـعـمـا

ولا تـعـتـذرْ بـالـعُـدْمِ عـلـى الـذي طرى

يـظـن لـنـا مــالاً فَـيـوسـعُـنـا ذَمّـــا

فـــروّى قـلـيـلاً ثـم أحـجـمَ بـرهـةً

وإنْ هـو لـم يـذبـحْ فـتـاهُ فـقـد هَـمّـا

فـبـيـنـا هـمـو لاحـت عـلـى الـبـعـدِ عـانـةٌ

قـدِ انـتـظـمـت مـن خـلـف مِـسْـحـلِـهـا نَظـما

عِـطـاشًـا تـريـدُ المـاءَ فـانـسـابَ نَـحـوهـا

عـلـى أنـه مـنـهـا إلـى دَمِـهـا أظْـمـا

فـأمـهـلَـهـا حـتـى تــروّتْ عِـطـاشُـهـا

فـأرسـل فـيـهـا مـن كـنـانـتـهِ سـهـمـا

فــخــرَّتْ نــحــوصُ ذاتُ جــحــش فـتـيَـةُ

قـدِ اكـتـنـزتْ لـحـمًـا، وقـد طُـبِّـقَـت شحما

فـيـا بـشـره إذ جـرّهــا نــحــو أهــلــهِ

ويــا بـشـرهــم لمــا رأوا كـلـمَـهـا يـدمـى

☆☆☆☆

فــبــات أبـــوهُـــم مـــن بـشــاشــتِــه أبًـــا

لـضـيـفـهـمـو، والأمُّ مــن بِـشـرِهــا أُمًّـــا

وأحسب أنه لا حاجة للتعليق على هذه القصيدة الشعرية وما تضمنته من قدرة فائقة على القص الجميل المشبع بالقيم والألفاظ المعبرة عن الحالة النفسية لهذا البدوي الشرس، يقول حينما رآها تقترب من الماء /فامهلها/ انظر هذا المد في هذه اللفظة فهو معربٌ عن كريم أخلاقه، وانظر كيف «أرسل فيها من كنانته سهمًا» لتجد حالته النفسية بتسارع أحرفها أملاً باصطيادها وفرحه في اصطيادها.

والمتتبع لما في شعرنا العربي القديم يجد أمثلة إن لم يكن على القصة الكاملة كقصيدة الحطيئة هذه، فإنه واجد الأقصوصة الجميلة بإيحاءاتها وقدرتها على إثارة التخيل..

وليس لأحد أن ينسى مغامرات عمر بن أبي ربيعة، وقبلها قصة بشر بن عوانه، ورائعة الفرزدق في علي بن زيد العابدين.. وقصص الثالوث الأموي، وما كان منهم، وغير ذلك ليس بقليل أبدًا.

وبالعودة إلى قصص عمر موضوع هذا الفصل نجده كما أسلفنا الشاعر المجلي بهذا الفن كما كان مجليًا في سائر شعره.

ونحن نرى أن عمر قد قدم لنا الأقصوصة الموحية بأبيات جدُّ قليلة يقول الناقد مارون عبود في كتابه (مجددون ومجترون) عن عمر في هذا المجال: «وهب أننا وجدنا لعمر ندًا في الغناء، فإننا لا نجد له ندًّا في القص على حقه».

ويضيف مارون عبود «شيخ النقاد» - كما يسمونه - على قوله هذا عن عمر قائلاً:

«شاعر قصصي ظهرت ملامح عبقريته الشعرية في وثبات وطواعية قصّ».

ولا بأس أن نقف الآن عند قصة أو لنقل أقصوصة من أقاصيصه الرائعة.. (زاروا بلادي) التي ربما يتوهم قائل فيقول إنه يمكن اختصارها بسطر أو بسطرين، وهذا الاختصار المتوهم لا يدخل فيه المعنى والفكرة والهدف، ناهيك عن ميزات الشعر الرائع المدلل من عذوبة في موسيقاه، وجمال في أدائه، وروعة في تأثيره، ثم إن الاختصار كثيرًا ما ينتهي عند حد القراءة، أما القصة الشعرية فهي تخلق في ذهن القارئ ومخيلته أشياء جديدة تنال من مساحة ذهن قارئها أو المستمع إليها آفاقًا نفسية وشعورية جديدة التكوين والأركان، وتتجلى بها عبقرية الأداء الساحر إذا تظهر له مقدرة الشاعر، ويتجلى فيها حرصه على احترام القارئ الذي يجعله شريكًا في إعداد القصة، وزفها عروسًا بارعة الحسن إلى عالم الفن والأدب.

فإذا تأملت بما قصه علينا شاعر القصة الشعرية فإنك واجد أن معظم قصصه محكمة، وهذا الحكم يندرج على «الأقصوصة» التي ما كانت إلا للقص فحسب، أو ما كان فيما تضمنته قصائده الطوال؛ من مقاطع تجد فيها عبقرية القص واضحة كل الوضوح فهو حريص على أن يعطي الفكرة حقها، والحبكة حسنها، والعرض شيقه والشخوص مضمونها لتأتي بعدها الخاتمة التي لاشك أنها إن لم يكن منفردًا بإدهاشه بها، فهو بلا أدنى الشك الأكثر توفيقًا وإدهاشًا في إغناء القارئ بإفراده بها.

يبدأ عمر قصته ببيت يطلع فيه على القارئ أو السامع بما يتمكن به من شده إلى قصته بجاذب عمري، وكأنه السحر، فيحشد له صورًا تدلك على أهمية ما سيقصه عليك.

وإذا توقفنا عند قصيدة (قصته) «هكذا» لابد من أن نصغي إليه وهو يفاجئنا بهذه الصورة لمعظم شخوص قصته، ومنذ البداية كما أسلفت.

صـــاحَ يـــا عـــبـدُ فـــرِّ الـطـيـبُ واسْـــ
ـــتَـعِـــرَ الــكـــأسُ وضـــجَّ المـضـجـعُ

إذ ليس بعد هذا المطلع غير ما ينم على ما سيتلوه؛ فأنت هنا أمام متغطرس ينادي عبده، ولطواعية عبده لسيده يختفي عنا لأنه لا حاجة لسيده به بعد الآن، فهو قد نفذ أمره، ليبدأ تلخيص القصة، إذ الكأس تستعر والمضجع يضج وماذا بعد الكأس المستعرة والمضجع الذي يضج بما سيستقبله؟!

ويأتي البيت الثاني ليوضح لك ما يريده هذا (السيد الآمر) ويضعك أمام رغباته المحمومة المستعرة فوق ما استعرت به الكأس إذ منتهى دنياه كلها قد تلخصت بما يريد مما عبر عنه عمر باختصار شديد:

مـــنـــتـــهـــى دنـــيـــاه نـــهـــدٌ شـــرسٌ
وفـــمٌ ســـمـــحٌ، وخـــصـــرٌ طـــيِّـــعُ

إنه لا يكتفي بمجرد «نهد»، إنه يريده «شرسًا» فإذا روضه بسكره وشراسته جاءه الفم السمح، ولان له الخصر الطيع مستجيبًا من دون أن يكون مستجيبًا له من قبل على أغلب الظن، ويستمر هذا القاص المدهش بوصف حماقات هذا (.....) وما كان منه ومنها ليعود بك إلى العبد الذليل الذي يقف بالباب ينتظر أوامر سيده، وهذا المسكين الذي ظل منتظرًا أوامر سيده بكل الخوف والحذر فهو لا يضطجع خوفًا من رقدةٍ بسيطة يريح بها جسمه المضنى من استعباد سيده له، ثم

يذكرك بالبطولات التي أصبحت غريبة في مثل هؤلاء (الأعراب)، وهي مع غربتها جائعة ذليلة، وراكعة خاشعة لفقدها رجالها المجاهدين حقًّا، ثم تكون (الزلزلة) في البيت الأخير بصراحة تظن أنه قد استعارها من نقمة إسرائيل ليقيم في نفسك قيامة إبائك، وتحسرك إلى هذا المآل الذي أصبحت فيه القدس سبيّة مستنجدة الضمائر، فإذا بها بأمثال هذا (.....) سليبة مستصرخة لما تعاني من الذل والمهانة، لكن بسخريته التي لا أمرَّ منها، ولا أشدّ إيلامًا.

هــكــذا تــقــتــحــمُ الـــقـــدسُ عــلــى
غــاصــبــيــهــا، هــكــذا تُــسْــتَــرْجَــعُ

وإذا أردت أنموذجًا آخر على هذا النحو من التوفيق النادر في القصِّ الشعري فإنني أحيلك إلى قصيدته (في طائرة) وهي من أشهر قصائده القصصية، إن لم تكن أشهرها على الإطلاق، فمنذ عقود كثيرة والناس تتوقف عندها بالدهشة والإعجاب، وإذا صح لنا أن نقول إن للشاعر معجزة أدبية فإنني لا أتردد بالقول: إن عمر في هذا المجال قد أتى بمعجزات قصصية هيهات أن تلقى لها مثيلاً في مجمل ما اشتملت عليه، فإن تكن قد توفرت مثيلات لها في حسن القص، فلن تجد لهذه المثيلة صورًا أخاذة، أو خاتمة مدهشة، أو سيطرة كاملة على شخوص القصة، فهو قد أعطاهم دورهم الذي لم تسمح له عبقريته وقدرته على حسن القص أن يسترسلوا أو يزيدوا أو ينقصوا عما هو محدد لهم كما في دور العبد في قصته «هكذا».

وبالعودة إلى قصيدته (قصته) «في طائرة» نراه يحدثنا كيف التقى بفتاة إسبانية هي في غاية الجمال الذي زاده أدبها إغراء ليتحدث إليها، وليبين لنا أنه لم تخب نظرته الثاقبة في هذه (الفتنة) بجمالها وأدبها، فإذا بها تحدثه بأفصح ما يكون الحديث وأعذب، وأشد ما يكون ثقة بالنفس، وبالمنشأ والمنبت، وكأنه

لا حديث لها ولا معرفة إلا بتاريخ أجدادها العظام الذين خلفوا أروع ما خلفته الإنسانية من آثار خالدة تدل على حضارتهم وعدالة رسالتهم.. إنها إذن من:

هـــؤلاء الـصَّـيـد قـومـي فـانـتـسـبْ
إن تجـدْ أكـــرمَ مـــن قـومـي رجـــالا!

ولك قارئي أن تتصور حالة هذا الرجل الذي يفاخر الدنيا بأجداده وأجدادها، ويكرس شعره ومواقفه على ما تمليه عليه محبته لهؤلاء الأجداد وتفاخره بهم، وما آل إليه حالهم في تلك الحقبة المظلمة التي كانت بلادهم جل بلادهم ترزح تحت نير الاستعمار مبددة مهانة.

قل لي بربك أليس هو في موقف لو اجتمعت عليه عشرات الرجال لتجد جوابًا لهذه المفاخرة بهؤلاء الأجداد الذين أصبح تاريخها ماثلاً بما صورته أمام عينيها وعينيه لأخجلهم الرد إذا قدروا عليه.

لكن عمر بعبقريته وحضور ذهنه، وبالغ تأثره وما فُطر عليه من كبرياء يهرب من إجابتها بلباقة الدبلوماسي وفطنته فيقول:

أطـــرقَ الـــقـلـــبُ، وغـــامـــت أعـيـنـي
بـــرؤاهـــا.. وتـجـــاهـلـــتُ الـسُّـــؤالا

لقد أطرق قلبه خجلاً من حال قومه، وملأ عينيه بل أعينه فيما أيقظت هذه الإسبانيولية التي أنستها عظمة أجدادها الفاتحين أنها من إسبانيا، وإنما هي من الأندلس «جنة الدنيا عبيرًا وظلالاً».. هناك غامت أعينه.. فكان لابد له من أن يتجاهل السؤال المثير في نفس القارئ دنيا من المشاعر المتناقضة.

هذه قصة من قصص عمر الشعرية، فهل للنثر مهما بلغت عبقرية كاتبه أن يقدم لنا قصة أم مقالة، ويجعل القارئ يتفاعل مع ما كتبه على سهولة النثر

وطواعيته ومع صعوبة الشعر العمودي وقيوده كما يتوهم المتوهمون، هل له أن يترك ولو شيئًا مما تركته هذه القصة العمرية الموغلة في عالم الاتقان والإدهاش.

ويقول عمر قاصًّا علينا قصة هؤلاء الذين زاروا بلاده:

زاروا بلادي نافرينَ من الخيال إلى العيانِ
متشوقينَ لرؤية الحسناء عنقاء الزمانِ

على رسلك أيها القارئ الكريم... عش لثوان ولو قليلة مع هذين البيتين.

حاول أن ترسم وفود الناس «نافرين» من أماكن شتى، بعد أن عاشوا جمال عنقاء الزمان الذي بلغ درجة الخيال، محمولين على لظى الشوق، يطيرون على بساط الأمل، لتكتحل عيونهم بمرأى حسناء الزمان فاتنة شاعرهم الأثير حقيقة عيانًا، لا تخيلاً ولا ظنونًا وأقوالاً.

ما الذي جعل هذه الوفود تنفر إلى بلاد الشاعر الذي ربما لم يعرفوه ولكنهم عرفوا بلاده من خلال تصورهم لجمال عنقاء الزمان.

إنه هو... ولكن كيف؟!

هيا بنا نستمع معًا إلى هذا الدافع الكبير:

أنا صغتُ فتنتها بما أوحىَ إليّ بها افتتاني..

فهو الذي صورها فأحسن تصويرها، وجسد عظمتها، شعبًا وأرضًا وتاريخًا عظيمًا مشرق بالبهاء والجلال، وهذا ما كلف الشاعر الكثير من الوقت والجهد والأناة، حتى خلب الألباب وجاء بأصحابها من البعيد البعيد صابرين محتسبين بما يلاقونه غير مبالين بما يعانونه أملاً برؤية الحسناء، عنقاء الزمان، ثم ها هو يقص على القارئ ما يجعله شريكًا له في الإعداد لما كان، فيعترف له بأنه قد غناها

للدنيا بما قدر عليه، ولو أنه ألغى هذه المشاركة لحرم القصدة من جمال القص وروعة تشويقه أو تخيله، اسمعه يقول:

غـنَّـيـتُـهـا حـتـى غـدَتْ

فـي مـسـمـع الـدنـيـا أغـانـي

فكان لهذا التغني فعل السحر في أشواق الوافدين إلى بلاده لهذا الغناء!

زاروا بـلادي فـاخـتـبـأت

غريبٌ أمره، إنها مفاجأة منه لم تكن في الحسبان!!

كيف يختبئ، وهو الذي كان يشدو ويغني ويفاخر بعنقاء الزمان طوعًا واختيارًا وحبًّا لبلاده.

يا للصدمة الفاجعة:

خشي أن يعرفوا مكانه في دنيا افتتانه.

لماذا؟!

كيف؟!

ما السر؟!

من المسؤول؟!

وعلام؟!!

قصة.. تصلح بداية لأكثر من قصة وقصة!

هذا الفن الرفيع من القص، ذو التأثير العظيم قَلَّ في شعرنا العربي.

ولقد أغنى عمر الأدب العربي بهذا اللون من الفن السامي بهدفه وغاياته البعيدة الجليلة، والقصة بعامة والشعرية بخاصة - كما تبينا - أعلق بالذهن، وأجرى على اللسان، وهي أعمل في الذاكرة، ولعلها أكثر انسجامًا وارتباطًا مع الحياة كونها تنتقل بيسر وسهولة لعذوبة وقعها وسرعة جريانها على الألسنة.

لقد طلع علينا الأخطل الصغير ببعض قصصه الشعرية ولعل أشهرها «الريال المزيف». إلا أن من الملاحظ عليها إفراطها في السردية، والتفصيلات التي لا نجدها في قصص عمر، ولو قدر لعمر أن يكتبها بأسلوبه لما احتاجت منه إلا لأقل من نصف أبياتها الخمسة والخمسين.

إن الأخطل الصغير - كمثال للقاصين المحدثين إلا ما ندر - لم يستطع وهو الشاعر الموهوب لملمة شخصوصه وضبطهم والتحكم في مسارهم، فاسترسل فأفقد باسترساله ما أعفانا منه عمر بكثافة المتعة الفنية وسحرها في النفوس المتعطشة لهذه الفنية العمرية، فلقد قدم لنا قصصًا مصورة لكن بأرقى المواصفات، وبأجمل الألوان المثيرة المعبرة.

أحسب أن قصة «نسر» الدليل الذي لا يرد، وأمثال هذه القصص العمرية غير قليل، ومن ذلك لوعة، وخالد، وبلادي، ودليلة، وردّ لي، وخالد، وعرس المجد، وجان دارك، والشهيد، وحرمان، ومصرع فنان، وعذاب وغيرها من الأقاصيص ذات النكهة العمرية.

ولئن أوتينا القدرة على صياغة قصة عمر الشعرية نثرًا ببضعة أسطر، فلن يكون بوسعنا أن نشحن هذه الأسطر بما أعطته العبقرية الفذة في انتقاء عمر للكلمات التي شحنها بشحنات مؤثرة من حنايا روحه العمرية المشبعة بالفن القادرة على الاستلهام، وقد تصبح القصة بلا فنية جثة شبه هامدة، غادرتها الروح، وسكنت حركتها كما لو أتى عليها الصقيع.

ماذا يحدث لو «نثرنا» في طائرة، أو البيت الأخير منها على الأقل؟!

ولنعد إلى هذه المحاولة مرة ومرات.. فماذا تكون الحال منها؟

أظنها قد انقلبت رأسًا على عقب!!.

هذا بعض ما في الشاعرية المبدعة من قدرة على تكثيف سحر البيان، وهذا هو التجديد الذي وفق إليه عمر كما لم يوفق به سواه.

إن وحدة الموضوع في مجمل قصائد عمر، تجعل من كل بيت عضوًا من الجسد، وهذا مالا يحيد عن قوله وتكراره في اللقاءات الصحفية، أو في مجالسه الخاصة مما يجعلك تقتنع معه وأنت تقرأ شعره أنه قاص في كل ما أبدع، فالقصيدة عنده - كما أسلفنا - متماسكة متكاملة، وهذا ما يجعل مجمل شعره مطبوعًا بطابع القص، فما بالنا في القصص التي كتبت للقص تحديدًا «كحرمان ١» و«حرمان ٢» وغيرهما، من اللواتي جعل الشعر مادة أساسية لقصائده؟!.

وكنت أود أن أتلمس بصحبة القارئ قصيدة عمر الرائعة - حرمان أو «أخرس» - أو القصيدة الإعجاز - لوعة - ونستعرض معًا الفن القصصي الرفيع في أدق وأجمل أشكاله، ورغم أن «لوعة» هي من أشجى وأعذب ما قيل في الرثاء، إلا أنها تكتسب جمالية خاصة من حيث فنيتها وطريقة أدائها، وسأترك للقارئ الكريم المجال، ليعيش مع هاتين القصيدتين المصورتين دون أن أقطع عليه غفوة الدفء في دنيا السحر.

وإذا ما فات القارئ الكريم ذلك هنا فبالعودة إلى ما أفاض بالحديث عنهما الدكتور حيدر الغدير ما نؤكد أن القارئ سيكون سعيدًا بذلك.

****

المرأة والغزل في شعر عمر

حينما عمدتُ إلى تجديد ما كنت قد كتبته منذ أكثر من ثلث قرن وربعه وخُمسه عن شاعر الأحبّ عمر أبوريشة يرحمه الله ويغفر له، وعدت إلى ما بين يديّ من مقالات ودراسات وجدتُ أكثر من أعطى عمر أبوريشة حقه هو الدكتور حيدر الغدير الذي نال على دراسته هذه درجة الدكتوراه، فقد جاءت معلوماته عن عمر بعد رحيله، وبعد أن اجتمع لديه مجمل ما كتب عن عمر بصفته دارسًا أكاديميًّا، وقد جعلها في كتاب واحد سماه «عاشق المجد.. عمر أبوريشة شاعرًا وإنسانًا» مع أن روايتي لا تقلل من أهمية ما كتب عنه، وكانت المفاجأة عندي في هذا الكتاب أنه لم يتعرض بشكل مباشر إلى موضوع المرأة والغزل في شعر عمر، في حين أنه جعل كتابه في ستة عشر فصلًا، أصَّلَ فيها لفصوله، ثم درس على ضوء تأصيله لتلك الفصول شعر عمر دراسةً واعية. وتساءلتُ لماذا أغفل هذا الدارسُ المدقق أمر الغزل ذلك المجال المغري جدًّا، والخصب جدًّا.

وتراءت لي عدة إجابات لم أستقر عند واحدة منها.

وعدتُ للتساؤل وأنا أعلم علم اليقين أن هذا الجانب من شعر عمر يأخذ نصيبه كاملًا من شعره، ولعله الأوفر حظًّا مما سواه.

وعدتُ إلى ما نُشر لي في مجلة العربية في السنة الرابعة لصدورها وفي العدد الحادي عشر منها مقال مفصّل تحت هذا العنوان «المرأة والغزل ي شعر عمر أبوريشة» فوجدتُ في ذلك المقال ما أرى من المناسب أن أعيد نشره هنا كما

جاء مع بعض الكلمات البسيطة جدًّا التي استبدلت أو أضيفت، ولا أنكر ما كان من ذلك المقال الذي كان ولا يزال يلامس هوى في نفسي، إذ توقفت عند الجانب الإيجابي من غزله، وضحكت على نفسي حينما اقتنعت أن النحلة لا تقع إلا على الزهرة المفيدة، في حين أنني أرى أمرًا طبيعيًّا أن يكون لعمر على امتداد تجارب حياته ما ليس إيجابيًّا مع المرأة، كما بينت، فلابد للرجل من المرأة، كما لابد للمرأة من الرجل، وتلك فطرة الله في جميع خلقه، فمن كان سبيله الحق قائمًا على فطرة ربه والتزامه بما شرع فقد فاز، ولغير هذا غير هذا..

ليس عمر معصومًا عن أن يكون مُعبِّرًا عن بعض التجارب الشخصية وما كان منها سلبيًّا في هذا المجال، لكنني أسمح لنفسي ولإحساسي أن أقول:

«إن معظم ما كان من عمر عن المرأة كان في معظمه تصيّدُ فكرةٍ، أو تصوير حالة، وإبانةُ شعور ليثبت للعالم أنه كما قال عن نفسه: «إنه شاعر فكرة، وإنه دارس متعمّق، ومُدقِّق حصيف لكل كلمة يقولها».

والتدقيق في القول ينتهي عند ارتوائه من الفكرة، وسعادته في صيدها، وتصويرها، وهذا في اعتقادي على عكس من يصوّر الحادثة ربما المتخيلة ويطوّرها ويظهر عضلاته في التعامل معها «كحصان فوق سريرها» يصهل ويمرح وما إلى ذلك من كونه قد فصل عباءته عن جلدها.

وفيما سيتلطّف القارئ بقراءته في هذا المقال مما اخترتُه من غزل عمر، ومن رأيه في المرأة ما أرجو أن يكون عذرًا لي في هوى نفسي، وما أتوق إليه من تعامل مطلق مع المرأة الجدة والأم والزوج والأخت والبنت، والحر من عذر ولم يغب عن ذهنه أنني وعمر «بشر» فإلى عمر وغزليات عمر.

أعتقد أن عمر أبوريشة من أبرز وأهم الشعراء الذين أدوا رسالتهم الأدبية في الحياة، إن لم يكن أبرزهم وأهمهم ولا سيما في عصرنا الحديث لما تهيأ له من نشأة وظروف خاصة وعامة، ومن ثقافة أقرب ما تكون إلى الشمول، وأعتقد أن النقاد بصورة عامة قد قصروا في دراسة هذا الشاعر المجدد الرائد مع علمي بأهم ما كتب عنه، ولا شك عندي في أن عمر يتحمل القسط الأكبر من هذا التقصير، فنبوغه وتعدد جوانب هذا النبوغ جعلت دراسته أمرًا ليس سهل المنال، يضاف إلى هذا طريقة تقديم شعره كمًّا وكيفًا، ففي معظم ما قدمه منذ أول ديوان صدر له، وحتى آخر ديوان صدر له كان يعيد معظم ما نشره مع قليل من الجديد، مضافًا إلى هذا كله انقطاع أعماله الأدبية فترة طويلة عن القراء فتشاغل الإعلام الأدبي وانشغل بمن روجت لهم وسائله المشرعة أبوابها لهم، فطغت موجتهم، وامتلأت الصحافة بما كثر له التطبيل والتزمير - والنادر لا قياس عليه - وأحسب أن جوانب شعر عمر المتعددة والتي تتصف بالإبداع والتجديد يحتاج كل جانب منها إلى دراسة مستقلة، وأحسب أنه لا يحاسبني الآن بعد رحيله مأسوفًا عليه وعلى تقصيره في حق شعره عليه، وحقنا عليه، إذا قلت إنه كان مستخفًّا بالنقاد والقراء معًا إلى حد ليس بالمعقول ولا بالمقبول، وقد حدثني عن حوار دار بينه وبين زوجته أم شافع التي كنت أشاركها الرأي كما كانت تشاركني الجرأة في الإلحاح على نشر شعره، فكان يجيب أتريدون أن أنشر شعري ولم أجد من يفهمني، وأؤكد على أنه قال لي حينما سألته زوجته وهل عكرمة أيضًا لم يفهمك ويفهم شعرك، فاستثناني من ذلك - كما قال - قالت له «وكما فهمك عكرمة مما نعرف فما بالك بمن لم تعرفهم على امتداد الوطن وهم لا يقلون حبًّا بشعرك عن مصطفى عكرمة، لكن عمر كعادته لم يجب، ولن يجيب الآن بعد أن لم يجب وهو القادر على ذلك، وبعد أن أصبح معظم تراثه بين «الضرتين» اللتين أقل ما يقال عنهما إنهما غير متفقتين على شيء مما نأمل أن تتفقا عليه لإخراج تراثه حبًّا به، وتقديرًا لتراثه، فهو لم يعد

لهما وحدهما، ولستُ متجنيًا على شاعري عمر إن اقتنعت إلى حد بعيد بما أكده الدكتور حيدر الغدير من الشهادات التي تؤكد أن معظم ما كان يعد به عمر لم يكن سوى أمنيات، وآمال وأحلام جميلة ظل يتحدث عنها حتى لمن يعرف أنهم يشكون بما يقول هذا الشاعر المتفرد ذو الشخصية العملاقة النادرة الذي يزداد عظمة وأهمية فيما وصلنا منه على مر الزمن، فلقد رأينا أنه مبدع في صوره، عميق في فكرته، غني بثقافته وسعة اطلاعه الذي وهبه قسطًا كبيرًا من عمره واهتمامه، وما كان له من تجارب في جوانب الحياة التي امتدت زهاء ثمانية عقود، إذ على الباحث أن يتوقف طويًلا متأنيًا عند دراسته له، وعلينا أن نذكر هنا أنه يتناقض مع ما كان يصرح به بين الحين والحين، وخذ مثالًا على ذلك مكان ولادته وتاريخها المختلف به كثيرًا، ومثلها لغاته.

ولنقف الآن بعد هذه الجولة على ما جاء عنوانًا لهذا الفصل «المرأة والغزل في شعر عمر» فحواء آدم أوّل الخلق عليه السلام لم تزل حوّاء بني آدم جميعهم من بعده، فقد اختلف بنوه مع تقادم العهد وكرِّ الزمان باختلاف أحوالهم وثقافاتهم ومعتقداتهم المتبدِّلة نحو المرأة وعلاقتهم بها.

اختلف البنون واختلفت نظرتهم إلى المرأة، تعدّدوا فتعدّدت، تباينوا فتباينت، وكان للأهواء حكمها دائمًا.. فمنهم من قدّس المرأة إلى درجة العبادة، ومن آخرين نظروا إليها على أنها رجس ونقيصه، ومن فئة رأت فيها الإنسانية الأهم بلطفها ورحمتها وعظيم رسالتها، إلى جماعة صوّرت بها متع الدنيا، لكن المتع الزائلة الزائفة..

آراء شتى ونظرات متباينة يطالعنا بها تاريخ الأمم والشعوب، وليس بذي بال أن نُطيل الوقوف عندها بعد أن قدّمنا بما قدّمناه..

لقد انعكس رأي كل فئة ومعتقدها في المرأة على سلوك أبنائها ومُريديها، والأدب بعامة هو المجال الأرحب لهذه المعتقدات.

وفي ظل الإسلام الذي هو مصدر ثقافتنا ومُنعكس هذه الثقافة عملًا وسلوكًا نرى أن المرأة قد حظيت بما تستحقه وما يناسب فطرتها، فأخذت مكانتها اللائقة بها، والمنسجمة مع فطرتها فأعطيت من الأهمية والرعاية والتقدير ما لم تنله ولن تناله في أي تشريع أو نظام آخر مهما تقادم الزمن، فهو تشريع الفاطر العليم الذي أحسن كل شيءٍ خلقه..

وعمر قد تربّى في بيت فقه وعباده وتمسك بالدين، ثم كان له أن جاب الكثير من عواصم العالم فأتقن لغات البلاد التي زارها وعاش فيها وانكب على لغاتها وآدابها فأتقنها وصار يحاضر في سبع لغات ويترجم منها وإليها – كما ظل يقول – وكان طبيعيًّا أن تأخذ المرأة مكانها اللائق من عمر الإنسان أولًا، ومن عمر الشاعر ثانيًا، ومن الدبلوماسية التي شغلته وغاص بها أكثر من عقدين، فكيف نظر إليها، وإلى أي مدى أخفق في غزله أو نجح؟!.

ومن المفيد هنا أن نبدأ بما بدأ به الدكتور سامي الدهان هذا الفصل مما نقله عن الناقد مارون عبود من كتابه «مجددون ومجترون» ص ١٧٦ وفي كتابه ص ٢٣٥ يقول مارون:

«عاشت المرأة في حياة عمر، بكل عصورها وطيبها، وعاش شعره يتلفّت إلى شذاها وهمسها، فكان له معها انتصارات، تركت على هيكله الشاعري كتابات كثيرة، كالأساطير في ملاحم الهوى والحب، وخلّفت في قلبه وجسمه جراحات باسمة وقاتمة رسمها «عمر» كأمير في الحب، وتبّعٍ للجمال، يدل عليها حينًا، ويتلمس ظلالها أحيانًا سعيًا وراء إلهامها وجمالها، ففي ديوانه «والكلام لمارون عبود» أنين حب جريح، وفيه أهازيج حب مظفر ربح معارك شتى، وخرج من غبارها غير محطم ولا مهشم، بجيش كجنح ليل بشار».

وإذا عدنا إلى الرأيين المتناقضين من تقديس لها، أو أنها رجس أو نقيصه نرى أنهما رأيان متباعدان ولا يمكن لهما أن يلتقيا، فأين يكمن سر هذا التناقش والتباعد لا سيما في مجال الأدب؟

أعتقد أنه لا خلاف في أنه كامن في نفس الشاعر ونشأته والتزامه برسالته في الحياة - إذا كانت له رسالة - ونحن نعلم أن عمر قد تأثر بالصوفية، وتسريت روحه سماحتها نقاءها، وتركت آثارها على أدبه - ولو إلى حين - إلا أن هذا التأثير لم يقف حائلًا دون التعامل مع روح العصر العجيب في تقلباته وسرعة انتشارها فنجد أن شاعرنا قد تفهمها، وبان لنا استيعابه لمتطلباتها فكانت رؤيته لها متوازية كتعامله معها، فجاءت نظرته سديدة ومنصفة كما لم تخل من التجني عليها، وبقيت الفكرة عنده هي الأهم حتى في قصائده الغزلية، ولأننا في أمس الحاجة إلى المرأة المسؤولة عن رسالتها في الحياة وفطرتها وخلقها لحمل هذه الرسالة نطالب الشعراء والأدباء بأن يهتموا بالجانب الإيجابي الذي خلقت له المرأة، انطلاقًا من حرصنا على نصفنا الآخر الذي بسلامته نعيش الحياة الحرة الكريمة، ونحقق لهذا النصف الأجمل اعتباراته الإنسانية المشروعة، وفطرته السوية السليمة، نلح في طلب ذلك، ونرجو أن يكون.

ولئن وأدت إحدى القبائل العربية أو بعضها بعض بناتها خشية العار، وتحت وطأة معاناتها الحياتية القاسية تحت ضغط معاشها المرتحل على أكف رياحها، وعلى امتداد صحرائها اللامحدود، فنحن في النصف الثاني من القرنين العشرين وما تلاه قد وأدنا كرامة المرأة، ولا نزال نقتل إنسانيتها قتلًا عمدًا متعمدًا وكأن شيئًا لم يكن، وقيامة لم تقم.

إن وأد الجاهليين بعض الصغيرات - إشفاقًا عليهن باعتقادهن - لم يكن إلا لدوافع مادية يخلصهم ضغطها الملح من تحمل ما قد يجلبه أسرها أو سلبها من العار الذي تأباه فطرتهم.

أما نحن أهل الحضارة والرقي العلمي والتمدن الذي لا قبله ولا بعده» كما يظن من غزوا الكواكب، وألغوا كل مستحيل في الحياة، فقد وأدوا المرأة الإنسانية وأدًا نوعيًا باسم التقدم والتمدن والتحضر، وستبقى المرأة موؤدة في نفوس الرجال بحكم أهوائهم ومصالحهم المادية مما جعلوه غاية تخفي وراءها غايات ومصالح تأباها النفوس السوية.

أجل.. إن تحرر المرأة في غاية الأهمية، وإنه مسؤولية تزداد خطورتها إن لم نعِ أبعادها وندك مراميها، إذ علينا أن نفهم جيدًا عن أي تحرر نتحدث، وأي واقع نريد؟

إن التحرر المنشود هو الذي يرد للمرأة اعتبارها، لتعيش معنى وجودها الإنساني الذي يوفر لها تفجير طاقاتها الخلاقة، والتي لا تعرف الحدود في مجالات العطاء الحق، إن التحرر الذي يخادع المرأة ويمكر بها ويلبس تحريرها المزعوم أقنعة مزيفة ما هو إلا غايات رخيصة الثمن، قريبة الزوال تظل من خلالها المرأة دمية للإمتاع، وجارية لليالي الملاح؛ وسوقًا للمتاجرة فإذا بها في حقيقة الأمر كما لا نتمنى لها ونأباه.

لقد أصبحت كل شيء.. لكن اللحظات تعود بعدها دون أي أعتبار مخلوقًا يحرصون عليه لسد حاجاتهم وإشباع نهمهم، ثم لا شيء.. لا شيء بعد ذلك إلا إذا اقتضى اللزوم لذلك من جديد.

ألم يطهدوا أنوثتها ورقتها فنراها عاملة في أشق الأعمال وأكثرها تجنيًا على ما في طبعها وقلبها من رحمة وحب وحنان وقدرات فائقة على العطاء والإيثار، لكن في غير هذا المجال الذي أرغموها على أن تكون فيه.

وإنها لنظرة فاجعة يزيدها مرارة وقسوة أن يتعامل بها الشعراء والأدباء والفنانون وسواهم ممن يجدون الأرباح السريعة، ويحققون الغايات الخبيثة الدنيئة

بتعريتها من إنسانيتها أسرع ما يحقق ما أرادوه من ذلك، وهذا الذي نقول عنه: إن الوأد الحديث الذي هو الأفتك والأقتل من كل وأد وقتل.

من هنا وبعد هذا أردت الدخول إلى المرأة والغزل في شعر عمر لنتبين دوره، ونتعرف إلى رأيه في هذا المجال فقد حان أن نستروح عنده..

المرأة عند عمر أبوريشة جمال يتجلى للشاعر فَيُلهِم، ويشعُّ فيضيء فتنساب في ثناياه كلُّ قيم الجمال السامية، ويُشرق بألقِ البيان وسحره.

يقول عمر: «إني احترم جميع النساء، ولا أذكر أنني طوال عمري جرحتُ شعور امرأة لا شخصيًّا ولا قولًا ولا شعرًا، وهناك قصائد تحكي مواقفي من هذه المرأة».

ويضيف قائلًا: «أنا لا أصف تكاوين المرأة، ولا أُعطيها الصفات، ففي الصفة ما يحدُّ من قيمة الموصوف مهما عظم الأسلوب ورق التعبير».

وتعالوا الآن ننظر كيف عبر لنا عمر عن المرأة التي صبَا إليها ذلك «البدوي» وكان ذلك في سنة ١٩٥٤ حينما كانت بلاده محتلة من قوم فاتنته الشقراء هذه «التي أنفق عليها ستين ألف درهم في ليلته، فقد صوّرهُ مفترسًا في لَبوس إنسان:

بَـــــدويٌّ أورقَ الـصَّـخـرُ لـهُ
وجـــرى بـالـسـلـسـبـيـل الـبـلـقـعُ
مُـنـتـهـى دنـيـاه نـهـدٌ شَـرِسٌ
وفـــمٌ ســمــحٌ، وخــصــرٌ طـيِّـعُ

فالمرأة هنا عند هذا النوع من المخلوقات، وما يريده منها: نهد شرس، وفم سمح، وخصر طيع، وهذا هو منتهى دنياه الذي غيبه عن إنسانيته فيمن رضيت أن تقتل إنسانيتها أو أن تهينها على أقل اعتبار.

لقد رمى ذلك البدوي بواقعه خلف جدار العدم، فلم يعد له احتلال بلاده من قومها شيئًا ذا بال، وربما يجد ذلك سببًا أوصله إلى منتهى دنياه من سابقتها الشقراء التي نالت منه فوق أضعاف ما كانت تتمناه في حياتها بين قومها.

لكن رؤية الشاعر الإنسان تختلف كل الاختلاف عن هذين النوعين البدوي وفاتنته، فلننظر كيف يراها وكيف يريدها:

هـويـتـكَ فـي غُـصَّـةِ المؤمـنـيـنَ
إلـى جـرعـةٍ مـن فـمِ الـكـوثـرِ

إنه يهواها جرعة ليس من الكوثر، بل من فم الكوثر وأحسبُ أن «فم» هنا ليست لإكمال الوزن بل للتصوير الذي أولاه كل عنايته واهتمامه.

أما في قصيدة «في طائرة» فيقول:

وتجـاذبـنـا الأحـاديـث فـمـا
انـخـفـضـتْ جِـسًّـا، ولا سـفَّـت خـيـالا
كـلُّ حـرفٍ زلَّ عـن مـرشـفِـهـا
نـثـرَ الـطِّـيـبَ يـمـيـنًـا وشـمـالا
ورَنـتْ شـامـخـةً أحـسَـبُـهـا
فـوق أنـسـابِ الـبـرايـا تـتـعـالـى

☆☆☆☆

هـؤلاء الـصِّـيـدُ قـومـي فـانـتـسـبْ
إن تـجـدْ أكـرمَ مـن قـومـي رجـالا

«فم ينثر الطيب» حس مرهف عميق! إباء شامخ يختال فخرًا بالنسب الكريم على البرايا، إنها العربية التي يريدها عمر، بعثها من خلال فتاة أندلسية.. وهذا الاختيار يزيد الفكرة وضوحًا، ويعمق ملامح المرأة الساكنة في وجدانه والتي شاء أن ينقلها إلى ذهن القارئ ووجدانه..

ولعل «كأس» تقدم لنا دليل ما قلناه وما ذهبنا إليه.

أَيضُمُ غيري هذه النُّعمى متى وُسِّدت تربا!

أنانية لكنها ذات نكهة خاصة التقطها عمر من بين الغرائب والعجائب، وهي عنده - في اعتقادي المتواضع - أفضل من عكسها على أقلِّ اعتبار.

وفي «عودة الروح» يخاطب الزنجية، أن تجعل ما في خدرها المرصود للفارس المنشود.. وليس لأحد سواه غَيرةً منه على أنوثتها ألا تكون إلا لمن يستحقها، إنه فارسها المنشود وليس سواه.

والكأس والعنقودْ..

في خدركِ المرصودْ..

للفارس المنشودْ..

ولعل هذه النظرة مستوحاة من قول الله تبارك وتعالى: **﴿الطيبون للطيبات، والخبيثات للخبيثين﴾**.

وهي إن لم تكن مستوحاة من الآية الكريمة فهي تعطينا المعنى نفسه.

وفي قصيدة «امرأة»:

أنــــتِ فــتّــحــتِ عــيــونــي لــلــسـنـا

بــعـدمـا فــجّــرت فــي روحـــي هُــداهـا

أنـــتِ جــنّــحــت أمـــانـــيّ الــتــي

خَــلّــقــت تــهــزج فــي أقــصــى مــداهـا

كلمتان فعلتا في النفس ما هو أكبر من فتح عينين إنه تفتيح متعمد. ولا أظن أن الوزن الشعري وحده هو الذي قاد الشاعر إلى هذا التشديد وما تلاه، بل هو

الشعور النبيل بجلال عمل المرأة، والذي هو أعمق وأعظم فيما نرى من فتح، وهذا ما ألهم التشديد في «فتحت» و«جنحت» ثم الجمع في عيون بدل عينين. لتكون ثمة إضاءة باتجاه المرأة التي يرى أن تكون عليه..

ونتابع عمر في «طهر» ماذا يقول أيضًا:

كــــأنـــــهــــا فــــــي طـــهـــرهــــا

أطـــــهــــــرُ مــــــن أن تــخـــجــلا

وطالما استعمل الشاعر كلمة «طهر» ورددها، لما لها في نفسه من إشعاعات وجدانية، وعبق طيب مخزون في الصدر والذاكرة.

وفي «عذاب»:

عــرفـــتِ لـــك الـــلـــه بــعــد الـضَّــلالِ

فـــــدلَّ الـــبــديـــعُ عــلـــى المــبـــدعِ

أي إكرام للمرأة، أروع من أن تكون منارة هي في حياة الإنسان، دليلًا على قدرة مبدعها الجليل؟!

وها هو يخاطب المرأة هنا بما يرى أنها منصفة به فيناديها.

يـــــا تـــــوبــــــةً عــــــن ضـــلالـــي

ومـــــــنَّــــــةً مــــــن زمــــانــــــي

تلك المرأة، هي التي كان ينشدها عمر، شاعر المرأة والغزل، ومن لم يجد المرأج عند عمر على غير ما وجدناه، ويرى غير ما يراه وما نراه، ملهمة ذات شموخ، وإباء، مبدعة تفيض إنسانية وتفتح عيون الحياة في خلايا النفس.. تهب الروح هداها، وتجنح الأماني وتتسامى بها في أقصى مداها.

ترى، هل قرأنا لغير عمر هذا أو شبيهًا بهذا؟! وهل حظيت المرأة بتكريم في الشعر أسمى وأعظم مما حظيت به في شعر عمر؟! ولكن؛ أليس علينا أن نتعرف أيضًا إلى ما يراه عمر في عمل المرأة لنستمع إليه يقول:

«أرفض العمل للمرأة، إن لم تكن محتاجة، فلها في رأيي ما هو أسمى وأبقى من الأعمال مهما عظمت خارج بيتها، المرأة الزوجة، المرأة الأم، المرأة ملكة البيت والرجل والأطفال رسالتها في البيت، أبدع رسالة خلاقة لها».

وماذا عن الغزل؟

إنه عذري في مواقف كثيرة ربما تكون قد أملتها الفكرة التي كان يسعى وراءها أو ما كان سواها مما افتن به.

وقد نفاجأ بقائل:

«إن لعمر الكثير من الحسيات التي يرون أنه أسرف فيها إذا ما قيس بما ذهبت إليه مدافعًا عنه وعن عذرية غزله».

نعم إن له بعضًا منها.. ولكن من هو الشاعر الذي ودع أيام شبابه وفتوته دون أن تبقى لها ذكرى من ذلك العهد؟! لكن الغالب عند عمر وعندي هي الفكرة السامية لديه عن المرأة التي تتمحور حولها قصائده تلك، وإن كان ذلك كما يرى هؤلاء فليكن «أوما بضدها تتميز الأشياء» ولا بأس في أن يأتي رأيه صريحًا جريئًا، وأن نرى حكمه قاسيًا، فإن الواقع أقسى وأمر، فالحكم هنا على النوع وليس على الجنس، وما المانع عليه في أن يعري ذلك النوع وما يجره مما تأباه الفطرة الإنسانية؟

إنّ هـذي الـعـروقَ فـي جـسـمـكِ الـغَـضْـ
ـضِ أنـابـيـبُ شـهـوةٍ لا دمـاءِ

أو ليست هي التي اختارت طريقها، وأطعمت كل رجس ما اشتهاه؟

أيُّ رجسٍ هفا إليك ولم تُغـ
ـطِهِ ما شاء يا قتيلةَ رجسِكْ!!

أوَلَمْ يندد القرآن الكريم بالزانية والزاني؟

بل ألم يقدم الزانية على الزاني؟

ثم ألم يفرق الله بين نبيه لوط عليه السلام وبين زوجه التي قدرها في الغابرين!!..

وعلى الناقد ألا ينهي مسؤوليته عند حدود المعنى اللفظي المباشر لهذه الكلمات، فالمغلف غير الرسالة، والزجاجة ليست هي العطر.

يحدثنا الأستاذ مارون عبود عن الغزل عند عمر أبوريشة بقوله:

«في ديوان عمر أنينُ حبٍّ جريح، وفيه أهازيجُ حبٍّ مظفر ربح معارك شتى، وخرج من غبارها غير مُشّوهٍ ولا مُهشَّم بجيشٍ كجنح ليلٍ بشار».

«إن صاحبنا محظوظ غير منكود، يتأمّر كثيرًا، ويُدِّل، ولكن ليس بمخلب وبحدٍّ نابٍ كأسد بن عوانه». أو كحصان نزار على الفراش الواسع».

وعمر كغيره من الناس، يهفو إلى تقبيل من يحب، وهو يُقبِّل أو يريد أن يُقبِّل تجده يُقدِّم شفيعًا عن قبلة تطهر الروح، وتجلو السقم، وتسكب في الجانبين الهدى، لا ليبلَّ غليل شوق، أو يطفئ لهيب نار، أو إذا شئت يشعل أكثر مما يطفئ..

أريد أقبِّلُ هذا الذي
يُطهِّر روحي، ويجلو السّقمْ
ويسكبُ في جانبيّ الهدى
ويرفعُ عن مُقلتيَّ الظُّلَمْ

وهو حين يضم؛ لا يضم جسدًا تجنب وصفه وتعرية أجزائه «ولم يمر عليه بعجلاته»، إنما يريد أن يضم إذ يضمها دنيا فتون وعالمًا علويًّا..

لـسـتِ أنـــت الــتــي أضــمّــكِ بــل دنــ
ــيــا فـــتـــونٍ، وعـــالمًـــا عـــلـــويّـــا

وعندما يصور ضجيج نهديها المشرئبين، فأول ما يأمر به أن تسدل الستر عليهما..

اسْــدُلِــي الــسِّــتــر فــوق نــهــديــنِ ضجَّا
واشْــــرأبَّـــا كــجــانــحــيْ وزْقَــــاءِ

وها هو يبين لنا في كلمة استعملها في شعره وعنون بها قصيدته «طهر» فيحدثنا كيف طلع على الدنيا، والطهر حارسه!

طَـلـعـتُ عـلـى دنـيـايَ والـطُّـهـر حـارسـي
يـحـوكُ عـلـى عـطـفيَّ جِـلـبـابـهُ الـقُدْسـي

ومادام قد طلع على الأيام بهذه الصورة، فلا عجب أن يرى في الضم ما رأى، وأن يحس في الفم ما تولاه من مشاعر!

ثم ها هو يرى أنها لحن خاص عنده ليكون لحنًا عامًّا من بعده:

فـــــأنـــــتِ الـــــيـــــومَ الـحـــانـــي
وألحـــــــــانُ الــــدُّنـــــا بــــعـــدي

إنها اللحن الذي تعشقه الآذان، وتهفو إليه النفوس، وتحياه المشاعر مطمئنة هانئة.

ثم ها هو يقول ما يريد منها:

أريـــــدُ أن أغــفــو وفـــي مـسـمـعـي
مـــا يــســتــعــيــرُ الحـــبُّ مـــن حُــبِّــنــا

إنها اللحن الذي تعشه الآذان، وتهفو إليه النفوس، وتحياه المشاعر مطمئنة هانئة.

ثم ها هو يقول ما يريد منها:

أريــــد أن أغــفــو وفـــي مــسـمـعـي

مــا يـسـتـعـيـر الحــب مــن حـبـنـا

ليكون لهما من ذلك الآن، وللناس من بعدها «صداه» المسكر.

لـنـا الــحُـبُّ، والـكـأسُ، والـمِـزهـرُ

ولـلـنـاسِ مـنـا الـصـدّى الـمُـسـكِـرُ

ومن يريد أن يغفو هذه الإغفاءة فأحسب أن سيكون مرتاح الضمير، غير قلق بسبب ما ارتكبه، وإنه يريد أن يبقيه للناس كل الناس صدى مسكرًا، ولكن سُكرًا حلالًا.

ثم ما رأيك قارئي العزيز أن نستروح قليلًا مع الصّحائف البريئة التي أوحت له أجمل الألحان.

صــحـــائــفُ طــالمــا هـــزَّتْ

بـــوحـــيٍ مـــنــك الحـــانـــي

وهل ترى شيئًا من الحسية هنا؟!

كـــمْ تـلاقـيـنـا ولا بُـحـــثُ ولا

بُـحـتِ واخـتـرنـا عـلـى الجـرحِ الظما

عذرية على استحياء جميل!

فـتـعـالـي نـلـتـمسْ دنـيـا مـن الـحُـبِّ

لـم يـبـلـغْ ســرى الـوهـمِ مـداهـا

كـمـــلاكـــين إذا مـــا الـتـقـيَـا
مـا تـعـدّتْ ثـورةُ الحـبِّ الشّـفـاهـا
فـنـعـبُّ الــكــأسَ ريًّـــا بـالمـنـى
ونـبـقّـي فـي فـم الـطُّـهـرِ شـذاهـا

وهنا نجد عبق الصوفية ونكهتها اللطيفة ينساب شذاها من فم الطهر، ولن أغادر هذا التعبير العمري الذي هو من جملة إبداعاته «سرى الوهم» و«فم الطهر» مما أحسب أننا لم نقرأها عند غيره، وها هو يقول:

لـسـتُ أحـيـا إن لـم أُمِــتْ كـلَّ يـومٍ
فـيـكِ شـيـئًـا عـبـدتُـه فـي ضـلالـي

كان ما كان إذن محض ضلال!

وآن لنا أن نتوقف عند ما قاله صديقه ورفيقه الدكتور سامي الدهان في كتابه «الشعراء الأعلام في سورية ص ٢٠٦»، نستعيده لأهميته هنا:

«عاشت المرأة في حياة عمر بكل عطرها.. وطيبها، وعاش شعره يتلفت إلى شذاها وهمسها، فكان له انتصارات، تركت على هيكله الشاعري كتابات كثيرة كالأساطير في ملاحم الهوى والحب، وخلّفت في جسمه جراحاتٍ باسمةً وقاتمة رسمها عمر كأميرٍ في الحبِّ وتبع للجمال، يدل عليها حينًا.. ويتلمس ظلالها أحيانًا سعيًا وراء إلهامها وجمالها».

أوَلا يكفي المرأة، أن تكون في غناء عمر لحنًا شجيًا؟

يــكــفــيــكِ مـــنـــي أن تـكـو
نِـــي فـــي فـمـــي لحـــنًـــا شـجـيًـا

وأحسب أن رأي د. دهان لا يختلف عما قلناه من أنه كان يريد الإلهام ليقدم الجديد صورة عمرية، وفكرة جديدة.

إذن تعالوا لنقول إن غزله أصيل ومعاصر في آن معًا..

أصيل بعمق جذوره في النفس، ومعاصر بألوانه وتشكيلاته المصورة، وسيجد القارئ في هذا الغزل كلمات مهجورة عند غيره، فيبث فيها روح المعاصرة فيتلاقى عنده القديم والحديث. ففي «امرأة» وهي من شعر الشباب وتعود إلى سنة ١٩٣٦، ترى بصمات القديم في نفس الصوفية.

اتـركـي الـشَّـكَّ فـفـي قـبـضـتـهِ
مـديـةٌ أقْـتَـلُ طـعـنًـا مـن سِـواهـا

وقد استعمل هنا (المدية، الطعن، القتل، القبضة) وجمعها في بيت واحد، غير أنه حباها من أسلوبه ما حباها، فهي في قبضة الشك معنى، ويد الطعن صورة وليست واقعًا.. والشك عدو كثيرًا ما يغلب ولا يغلب.

وفي قصيدته التي هجرها «كما هجرته مُلهمتها إلى العالم الآخر، وأعني الفتاة الإنكليزية التي جاء إلى أبويه يستأذنهما في الزواج منها، وعاد يحمل إليها البشرى ليرى أنها قد فارقته، لكن إلى الأبد، نرى في تلك القصيدة الكثير من الكلمات والتعابير القديمة والحشو الزائد الذي لم نره عنده لاحقًا، لكنه أسبغ عليها هنا ما جعلها جديدة، وسيرى القارئ الكريم تلك القصيدة في مختاراتنا له.

وهاهو يقول لنا أيضًا إلى أين يدعوها:

فـتـعـالـيْ نـلـتـمسْ دنـيـا مـن الـحُـبْـ
ـبِ لـم يـبـلـغ سُـرى الـوهـمِ مـداهـا
كـمـلاكـيـنِ إذا مـا الـتـقـيـا
مـا تـعـدَّتْ ثـورةُ الـحـبِّ الـشِّـفـاهـا

مهما أوتي الوهم من سلطان، فلن يبلغ دنيا الحب لدى الشاعر، وأنى للوهم وسراه بلوغ هذا المأرب، فقد غدا الحبيبان ملاكين:

إن دنيا الوهم غير دنيا الناس المحدودة بالوهم.

وفي «لست أحيا»:

معولي في يدي وأصنامُ دنيا
كِ تُريني ما ضاقَ عنه خيالي
لستُ أحيا إن لم أُمِتْ كلَّ يومٍ
فيكِ شيئًا عبدتهُ في ضلالي

معولي – أصنام – ظلالي – كلمات تكاد تكون مهجورة، أحياها الشاعر وأغناها.

ولنا في كلمات «هكذا» أكثر من إشارة للدلالة على ما سبق قوله:

بدويٌّ أورقَ الصخرُ لهُ
وجرى بالسلسبيلِ البلقعُ
مُنتهى دنياهُ نهدٌ شرسٌ
وفمٌ سمْحٌ وخصرٌ طيِّعُ

بدويٌّ – صخرٌ – بلقع – شرس، احتشدت في بيتين وتزاحمت، وما فعل عمر هذا إلا بهدف خلق الجو الملائم، فنعيش معه القصة بين رمال الصحراء وقسوتها التي نبت فيها ذلك البدوي لتسترجع ذاكرتنا يوم لم يكن في تلك الصحراء معشوقة عمر أمثال هذا البدوي، ثم إذا بنا بعدها في نقلة سريعة نراها أكثر عمقًا وإيغالًا في النفس، إذ لم ينس الشاعر أن يرأف بحالنا، ونحن في الصحراء، فأورق لنا الصخر، وأجرى لنا السلسبيل في البلقع. ثم ماذا؟

وتلاشى الطِّيب في مخدعهِ
وتلاهُ السُّباتُ الممتعُ

كلمات ندية معطرة رقيقة تكاد تسيل عذوبة في قصائد غنائية، تختال زاهية بجمالها ودلالها الفني الزاخر بصور جميلة.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انصراف عمر عن النوع الآخر من الغزل المكشوف يعود إلى انهماك الشاعر وانشغاله بالفن حينًا، وبقضايا أمته أحيانًا، فطالما حمل أعباءها إلى جانب مسؤوليته كرائد مُجدِّد في حركة الشعر، فضلًا عن طبيعة شخصية عمر الجادة والمتميزة برصانة إبداعاتها الأصيلة، ونجاحه في عمله الدبلوماسي.

هكذا، كانت المرأة عند «عمر أبوريشة» إنسانة كريمة، وكلًّا لا يتجزأ، وجمالًا لا يُحدُّ، وليست كما أطَّرتها رغباتُ النزوة، وشهوات النفس الأمارة بالسوء، كما إنها ليست تلك التي وأدت إنسانيتها أنظمة الغرب إلا ما ندر.

إنها عند عمر عربية، خنساويّة، خولية وإن تكن إسبانيّة.

إنها مُجدَّدًا مصدر الهوى.. ومبعث الجمال.. وكنوز الوحي والإلهام.

وسنقف مع القارئ كي يطمئنَّ إلى أننا لم نُبرِئ عمر مما قاله في شبابه فإليه بعضًا منه:

أفـدي الحِـسـانَ وأيّ صـبٍّ لا يـكـون فـداءهـنَّـهْ
الـلـيـنـاتُ قـدودهـنّ المـضـرمـات خـدودهـنَّـهْ
الـنـافـراتُ الـواثـبـاتُ الـنّـاهـداتُ نـهـودهُـنَّـهْ
المـسـبـلاتُ شـعـورهـنّـه الـسـود فـوق نـحـورهُـنَّـهْ
الـسـاحـرات بـطـرفـهـنّ وذاك أضـعـفُ مـا بِـهـنَّـهْ
الـمُـحـيـيـات بِـوصـلِـهـنَّ الـقـاتـلات بـصـدهـنَّـهْ
الـلابـسـاتُ مـن الـحـيـاءِ وروعـه جـلـبـابـهُـنَّـهْ
مـا سِـرن إلا والـفـؤادُ سـرى وصـفّـق إثـرهـنـهْ
(بـاريـس) لـن أنـسـى مـهـاك، ولا الـكـواعـب مـن (فـيـيـنّـهْ)
حـيـث الـهـوى فـرضٌ عـلـيّ وقُـبْـلَـةُ الـوجـنـاتِ سُـنَّـهْ
أغـويـنـنـي بـعـد المـتـابِ عـن الـهـوى.. فـتـبـعـتـهـنَّـهْ
ورتـعـت فـي نـعـم الـشـبـاب ومـا ثـنـيـتُ لـه الأعِـنَّـهْ

فـي الـصـبـح أبـرمـت الـعـهـود وفـي المـسـاء نـقـضـنـهـنَّهْ
هــذي ذنــوبــي إنمــا الــعــشــرون تـشـفـع لــي بِـهُـنَّـهْ

وواضح من مسار القصيدة إنه قالها في العشرين حينما رأى في باريس وفي فيينا لأول وهلة الحسناوات اللواتي أمعن في وصفهن كما يلاحظ أنه لم يتخلص من موروثاته فذكر (اللابسات من الحياء وروعه جلبابهن) فلم يكن هذا الموروث الاجتماعي إلا حاضرًا في ذهنه حتى في هذه الحالة التي تعتبر «انفلاتية» لولا أنه ذكر الحياء والجلباب والمتاب.

وهذا ما كان من رحلتنا مع عمر أبوريشة الذي يصر بعض النقاد على تسميته بشاعر المرأة والغزل، فهل هو حقًّا كذلك قارئي؟

قد نتفق فمرحبًا بك وقد لا نتفق فلكلٍّ منا عذره.

****

عمروجراح الأمة

ثمة أشياء أخرى تميز شعر عمر الوطني والقومي.

فلقد انغمس عمر في قضايا وطنه وأمته المصيرية فلا تكاد تقرأ له قصيدة من قصائده الطوال إلا وتجد فيها صدى نداءاته الحارة مجلجلًا فيها، كما تجد ذلك في العديد من قصائده القصار كصلاة مثلًا وواحد من هؤلاء وعيد سعيد إذ لم يكن إحساسه فيها، وتعامله معها إحساسًا عاديًّا لا تعاملًا عابرًا، فلقد كان يصور تلك الآلام تصويرًا رقيقًا في دفق من المشاعر، وكانت كلماته الترجمة الأمينة لتطلعات جماهير الأمة فبلغ رسالته شاعرًا وطنيًّا نشأ في بيت دين وعلم وأدب شاءت له أقداره أن يعايش آلام وطنه حينما كان يرزح تحت نير الاستعمار الفرنسي، وبدافع من هذه النشأة وبعوامل المعاناة أخذ شعره الوطني يحتل الصدارة في شعر تلك الفترة التي لم تدم طويلًا في سورية كما دامت في بلاد أخرى وما كان ذلك إلا لما قدمه الشعب السوري لثورته الشجاعة الأبية على المستعمر، وطبيعيًّا أن يكون للشعر دوره البارز والفاعل في تلك الفترة، ولا جدال في أن دور عمر كان له أثره في إذكاء الروح الوطنية والمواكبة لأحداث وطنه سواء ما كان منها في عهد الاستعمار أو ما كان قبله وما آلت إليه بعده.. فلقد كان يريد لوطنه الحياة الأمثل في حرية مطلقة أرادها للبلبل، وللتمثال الذي أشفق عليه من أن يرى حال الأمة على ما هي عليه فقال للأبجدية:

عــودي إلــى حــرمِ الــغــيـاهــبِ، واهــجــعــي لــن تــنــدمــي

ونذكر أنه حينما رثى الزعيم الوطني الذي كان يختلف معه في بعض المواقف كيف علل انتقاده له:

عَـلِـمَ الـلـهُ مـا انـتـقـدتُـكِ إلا

طـمـعًـا أن أراكِ فـوق انـتـقـادِ

بهذه الروح الإنسانية والحب الخالص لوطنه ولرجالاته عامل عمر أبوريشة حتى خصومه السياسيين.

وإذا ما رحنا نتقصى أو نتلمس عمق ما بلغته انتكاسات هذه الأمة لرأينا عجبًا عجابا، وأبرز ما نراه من تفاعله مع أحداث الأمة ونكساتها نجده في رثاء أبطالها الميامين الذين حققوا الجلاء بعد نضال وتضحيات كانت لنوال الحرية الثمن الذي تستحقه.

لقد كان صوته مدويًا، وكانت قصائده متنفس الجماهير التي أحبته وانكبت على قصائده حفظًا وتمثلًا تسهر عليها لياليها الطوال كفاء ما وجدت فيها من الإخلاص والصدق والغيرة، فكان شعره أمل المهتمين بالأمور الأدبية والسياسية معًا، فهيهات أن تجد من أبناء جيله إلا من يحدثك عن الانتظار المحبب الذي يعيشونه وهم يترقبون متلهفين إلى ما سيقوله عن حالهم وطموحاتهم إذ كانوا يرون في شعره ما يشبع تطلعاتهم ويحقق أحلامهم بالاستقلال والحرية.

ولقد كان لعمر - كما كان يحدثنا ويحدث وسائل الإعلام - مواقف في المحافل الدولية إذ كان يعرض قضايا أمته كسفير لها عرضًا مقنعًا فاعلًا أعانته عليه لغاته التي كان يتقنها جيدًا كما صرح أيضًا بذلك مرارًا حتى أصبح من أقرب المقربين إلى الشاعر الكبير جون كنيدي الرئيس الأميركي وجواهر لال نهرو وغيرها من الرؤساء، وقد شهدت له المنابر بما كان يهزها به من شعر وفكر وحسن أداء، وقدرة على توصيل ما يريد، وتوظيفه كما يريد، إلى جانب إلقائه الفريد الذي تحدث عنه كل من سمعه.

ولنحاول أن نتتبع الآن بعضًا من تلك النشاطات والمواقف التي كان لسانها المبين، ورجلها الأمين.

رصد عمر حركات المستعمرين.. وتصرفاتهم.. وكان عليهم قدرًا مرصدًا يكشف خططهم ويفند مزاعمهم، ويمزق أقنعة وجوههم الصفراء، ويظهرها للدنيا بمظهرها الحقيقي، وجوه مستعمرٍ شرسٍ يهادن ليطعن،، ويراوغ ليغنم.. ويتهيأ لينقض.

لم تستطع الدوائر المرتبطة بمصالح المستعمر استلانته، ولا اجتلابه واجتذابه فشردته،، وعذبته،، وسجنته، لكنه لم تلن له قناة.. ولن تهدأ براكين غضبه.. وتوالت منه تلك الحمم تنصب على رؤوس المستعمرين وأعوانهم.

وقد كانت تُتقى كلماته أكثر مما يتقى سواها من الحمم الأخرى لما كان لشعره من تأثير في الدائرة الجماهيرية البعيدة التي كانت تنتظر شعره متلهفة ظامئة.

ها هو ينظر ساخرًا من المستعمرين وخداعهم فيقول:

مَا لنا نلمحُ في مِشْيتهِ

مخلبَ الذئبِ، وجلدَ الثعلبِ!

وليته قال مكر الثعلب، ولم يقل جلده، فالمكر للثعلب كما المخلب للذئب، وفي موضع آخر:

وما المواثيقُ إن فاهَ القويُّ بها

ونصَّبَ الختلُ في أقداسِها حَكَما

ما كان أغناه عن تزوير غايتهِ

مَن يحملُ السيفَ لا يبري به قلما

أرأيت معي قارئي هذه الصورة الواضحة التي قدمها لنا عن المستعمرين، ومواثيقهم؟.

ثم أرأيت إلى هذه السخرية اللاذعة الفاضحة:

ويقول في القصيدة نفسها:

أنطلب البُرءَ ممن أوجدَ السَّقَما؟!

لا.. والله.

إذا ما هي المواثيق التي هي حق الشعب بعد أن عرفنا مواثيق المستعمر، وكيف تُوفّى هذه العهود؟!

إن يتجه إلى الشعب ليقول له مذكرًا بما هو واجب عليه فيقول:

لا توفَّى العهودُ إلا إذا ما
كُتِبتْ بالدماءِ لا بالمدادِ

قال للشعب ذلك، وراح يبين له أن الدرب طويل، وأن العراقيل كثيرة لأن ذلك شأن المستعمر الغادر.

كلَّما أُطلِقتْ حمامةُ سِلْمٍ
جاذبَتها حبائلُ الصَّيَادِ

لكن هذا السبيل على الرغم من طوله فإنه واضح المعالم، والحبائل والعراقيل على جوانبه لابد من أن تحرقها نار العزيمة والثبات لتغدو نورًا مبينًا يقبس وقده السائرون الأوفياء الماضون على دروب الجهاد الحق.

إنها سنَّةُ الوجودِ، فشعبٌ
لبقاءٍ.. وآخرُ لنفادِ
فعلى الحادثاتِ أن تتوالى
وعلينا الوقوف بالمرْصادِ

إذًا لابد من الوقوف بالمرصاد..

لكن من الذي من شأنه أن يقف هذه الوقفة؟ لا شك في أنه الفدائي أولًا. لكن ما هي صفات هذا الفدائي؟

لنتبين كيف يقدم لنا هذا الفدائي في عقيدته وتضحياته لها فيقول:

أمضي، ويُذهلني طِلابي
عَنِّي، وعن دنيا رغابي
أمضي، ويَسألُني الربيـ
ـعُ - ولا أجيب - متى إيابي
بيني وبين الموتِ ميـ
ـعادٌ أحثُّ له رِكابي

فهو ماضٍ بكل ما لديه من قوة، إذ ليس لديه وقت ليرد على الربيع سؤاله، وما سؤال الربيع له سوى حياته التي أبت عليه كرامته أن يرد عليه ففي ذلك مضيعة للوقت عن سرعة الاستشهاد ونوالها، فيقول:

هذي الربوعُ ربوعُ آبائي، وأجدادي الغضابِ
عَطِّرْ - فداكَ العمر - يا ميعاد من جرحي ترابي
فلسوف تركز فيه إعلامي.. وتحرسُها حِرابي

- أعجبتك الوقفة؟.

- هزني الفداء.. وأثارني الإباء الوثاب.. وأذهلني الإصرار الذي أجاد رسمه بتعبير لا أفصح ولا أجمل.. أوليست هذه الأبيات من القصيدة التي نظمها عام ١٩٥٢؟.

- بلى.. بلى.. منذ ذلك العام رسم عمر دروب الفداء.. وعمل على تهيئة الرجال لها.

ولنسأل شاعرنا الآن رأيه بمن تاجروا بحرية هذا الشعب المتطلع إلى الحرية والكرامة وإلى حقه في الحياة الحرة الكريمة.

- صحيح إن ذلك يحتاج إلى سِفر طويل عريض لكن..

- لا عليك.. فإن ذلك ليس خافيًا.

ونحن سنصور هنا لقطات صغيرة، ونترك التاريخ ينهل حتى يرتوي من سيرة هذا الرجل وأمثاله ممن عاشوا قضايا الوطن وحريته كل بما قدر عليه.

اسمعه يلقي قصيدته النارية في حضرة الرعاة، ويشير إليهم بإصبعه وهم قاب قوسين أو أدنى منه:

لا يــــلام الـــذئـــبُ فـــي عـــدوانـــهِ
إن يـــكُ الـــراعـــي عـــــدوَّ الـغـنـمِ

ولا حاجة للتفصيل هنا في ذلك الموقف وتلك القصيدة فهي من أشهر شعره وأكثره انتشارًا.

ومرة ثانية في موقف مماثل يقول مشيرًا إليهم:

أسْـــرَجُـــوا صَـهـوةَ الـمـذلّـةِ وانـقَـضْـ
ـضُـوا عـلـى مـثـخـنِ الجـــراح طعانا
واسـتـبـاحـوا مـــالَ الـيـتـيـم عـتـوًّا
وأهــــانـــوا حُـــرمـــاتِـــه طـغـيـانـا
وأزاحــــــوا عـــنِ المـنـابـر أحـــرا
را فــهـــزّت أعــــوادُهَــــا عُـبـدانـا
وتمـــشّـــوا لـــدى الأعـــاجـــم جِـمـلا
نًـــا وســـابـــوا فـــي قـومـهـم ذؤبـانـا

كـلُّـهـم فــي ولـيـمـةِ الـبـغـي يـخـشـى
أن يـــرى جـــوفَ غـــيـــرهِ مَـــلآنـــا

أرأيت كيف صوّر لنا نفوس هؤلاء المتاجرين بحق الوطن والمواطنين!، ثم انظر ماذا خبأ لنا في قضية «يا عيد» إثر نكبة الوطن والمواطنين سنة ١٩٤٨م.

يـا لَـلْـشـعـوبِ الـتـي قـــادتْ أعـنَّـتـهـا
عــلــى الــلــيــالــي عــبــاديــدٌ رعــاديــدُ
فــأطــعــمـتْ كــلَّ بـــاغٍ مــن كـرامـتـهـا
لا يُـلـطـم الـلـيـثُ إلا وهــو مـصـفـودُ

أرأيت كيف كنّى عن الشعب بالليث، وجعل كرامته طعمةَ كل باغ ليثير بنا الحفيظة، ويجعلنا نفر من الواقع الأليم إلى عالم آخر جديد نبنيه بنضالنا المستمر من خسّة هؤلاء الرعاديد.

لكن وقبل أن يتسلل اليأس إليك انظر إليه كيف ينقلك نقلة سريعة إلى الأمل المرتقب والفجر الجديد الوليد:

سـيـنـجـلـي لـيـلُـنـا عــن فـجـر مـعـتـركٍ
ونـــحـــن فـــي فـمــه المـشـبـوب تـغـريـدُ

أتركك الآن قارئي مطمئنًا لأختار لك من مثل هذه المواقف، ولا تنس أنها كانت في العراء وجهًا لوجه مع من سماهم لك حماة الضيم.

ولنعش الآن بقدر ما يسمح به الوقت أمام هذه المشاهد والمواقف في القصيدة التي ألقاها في الذكرى الألفية للمتنبي «شاعر وشاعر»، وكان في ذلك في ريعان شبابه أمام الحشود والوفود سنة ١٩٣٥م.

شاعرَ العربِ، غضَّ طَرْفكَ فالعُرْ
بُ حيارى في قبضةٍ عسراءِ

يخجل المجدُ أن يرى الليث شلوًا
تحت أنياب حيَّةٍ رقطاء

الميامينُ .. يا غرامَ الميامي
نِ يخوضونَ لجّةً من شقاء

القيودُ الثِّقالُ شُدَّت عليهمْ
وجرى سمُّها إلى الأعضاء

ولئامُ الطغاةِ تجترُّ كالذؤ
بانِ قلب المروءةِ الغَرَّاء

كم أهانوا دمع المسيحِ على الإثْـ
ـمِ، وهَزّوا مضاجعَ الأنبياء!

إن هذي الربوعَ بَعْدَ بهاها
صيَّروها مقابرَ الشهداء

- تسألني عن الرمزية؟

- نعم إنه رمز في مواطن كان الرمز فيها أقوى، وأشد، وأعنف كما رأينا في «بلبل» و«النسر» و«جان دارك» وغيرها.

وهيهات أن تجد من لم تهزه روح الجهاد، وتستنفز نخوته تلك الدعوة الواضحة إليه في قصيدته الرائعة «جان دارك»؟!

ألم يحبِّب الوطن إلى كل قارئ من خلال صورة في هذه القصيدة التي أحسن توظيفها كل الإحسان، ومن الذي لم يردد قوله، وليس في بلده سورية فحسب، بل في أرجاء وطننا العربي الكبير.

رُبَّ وامــعــتــصــمــاهُ انـطــلــقــتْ

مـــلءَ أفــــواهِ الــصَّـبــايــا الــيُــتــمِ

لامـــســـتْ أســـمـــاعـــهـــمْ لــكــنــهـا

لــــم تـــلامـــسْ نـــخـــوةَ المــعــتــصــم

أما في ملحمته «خالد» التي نظمها سنة ١٩٣٨ فقد أيقظ الرجولة وهزّنا هزًّا حينما قال:

لا تــقُــلْ ذلّـــتِ الـــرجـــولـــةُ يـــا خـا

لِــــدُ، واســتــســلــمــتْ إلـــى الأحـــزانِ

حـمـحـمـاتُ الخـيـول فـي ركـبـكَ الـظُّـا

فِـــرُ مـــازلـــن نـــشـــوةَ الآذان

كـــم طـــوتْ هـــذه المـــرابـــعُ أفـــلا

ذَ قُـــلـــوبِ «بـــدريـــة» الخـفـقـان

قـــم تـــلـــفَّـتْ تـــرَ الجـــنـــود كـمـا كـا

نُـــوا، مـــنـــار الإبـــــاءِ والــعــنــفــوان

مـــا تـــخـــلّـــوا عـــنِ الجـــهـــادِ، ولــكــن

قـــادهـــمْ كـــــلُّ خـــائـــنٍ وجـــبـــان

ولست أمل من تكرار هذه الأبيات لأنني علمت منه كيف قالها ومتى، ولمن، وما كان أثرها، فليس كل ما يعلم يقال.

لست أشك في أن الأجيال المقبلة الظامئة إلى الجهاد والمعرفة ستدرس عصرنا في شعر هذا الشاعر..

أشاهدت أمًّا تسهر الليل تهدهد لابنها المريض لينام؟

ذلك شأن عمر مع أمته وشعبه.

أرأيت تلك الأم الشفيقة الرحيمة وهي تضرب ذلك الطفل المريض المدلل كيما تعطيه الدواء الذي لابد من إعطائه له، وقد أعيتها الحيل، فلم يبق أمامها إلا العنف لتسقيه الدواء.

ذلك شأن شاعرنا عمر مع أمته وشعبه كما حدثنا عارفوه.

اسمعه يقول للشعب الذي أحبه، إذ لم يكن لا مناص من قول الحقيقة.

قد يَعفُّ الجزّارُ لو لم تمرَّغْ
تحت أقدامِهِ رقابُ الأضاحي
أيُّ شعبٍ يعطي السلاحَ إلى البا
غي، ويشكو من وخز ذاك السلاحِ!

ولقد ظل الأمل بالنصر والجلاء بيقينه جبلًا منتصبًا لا تؤثر به رياح الحادثات، فلقد عرف شاعرنا إلى من يتجه بقصائده ونداءاته.

من غير الشعب؟

فكل حل يأتي عن طريق الرعاة، أو المنظمات الدولية فلن يكون إلا في مصلحة الرعاة، ومصلحة من هم وراء هذه المنظمات.

ومن هنا فقد كان إيمان عمر بالشعب مطلقًا.

إنه رسم له الطريق، ودله على مكامن الداء، وأشار إلى الدواء القريب المنال.

لنستمع إليه يقول في قصيدته «يا شعب»:

يا شعبُ لا تشكُ الشقاءْ
ولا تُطِلْ فيه نواحَكْ

ولنسأله: لم لا يسمح له بالشكوى، فالشكوى حقٌّ من حقوق الإنسان، ليس ذلك في مثل هذه الحالة إذ:

- لمن تريدونه أن يشكو.

أوليست فئة من الشعب هي التي أوصلت ظالميه إلى ما وصلوا إليه فكانوا عنده كمن جرح يديه بيديه!

لكن!! ما الذي جعله يرضى بذلك ويطوي جناحيه على ذل؟

لا شك في إنها الأهواء عدوة الإنسان الأولى..

وهل أفتك أو أقتل من الأهواء؟

فمن تكثر أهواؤه يعصف به الهواء وتذروه الرياح.

لـــو لـــم تــبــخ لـــهـــواكَ عـلـيـ

ـــاء الحـــيـــاة، لمـــا اســتــبــاحَــكْ

فالمعالي لا تنال بالهوى.. إنما:

هــكــذا تُمــهــر الــعُــلــى بـبـسـاطٍ

مـــن دمــــــاءٍ، وقِـــبَّـــةٍ مـــن قـبــورِ

إن تاريخ أمتنا مجيد وحافل بالمآثر الخالدات، وعمر يحاول أن يجدد بناء التاريخ معتمدًا الأسس السلمية فيربط - كما رأينا - الماضي بكل ما له من مآثر مع الحاضر بكل ما له من تطلعات ليخلص بذلك إلى المجتمع الذي يريد.

وكثيرًا ما قص علينا هذا في قصائده حين ذكرنا بأمهات المآثر وربط واقعنا - كما رأينا - بما كان عليه من إباء صورته في مسرحية «رايات ذي قار» وما في «النداء المعتصمي» و«القلوب البدرية الخفقان» التي طوتها أرض الجهاد.

وفي قصيدة «شاعر وشاعر» حينما راح يخاطب المتنبي شاعر الفروسية بالأبيات سالفة الذكر:

شاعرَ العربِ غضَّ طرفكَ فالعُرْ
بُ حيارى في قبضةٍ عسراءِ

وفي قصيدته «يا رمل» أو في ملحمته «محمد».

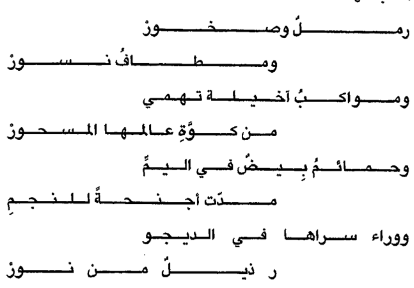
ولعل أصداء «خالد» لم تزل مجلجلة هادرة، تخاطب الأمة، مستنفرة النفوس، مطلقة عنان العمل، مستشهدة بموقف خالد الخالد:

أنا من أمّةٍ أفاقت على العزْ
زِ، وأمست مغموسةً في الهوانِ
عرشها الرثُّ من حراب المغيريـ
ـنَ، وأعلامها من الأكفانِ

ولا ينسى أن يذكرنا بواقعة اليرموك ليكون الدافع أقوى، ومدى الوثبة أوسع، وليترك لنا من وراء ذلك كله صورة بشعة لكل المتخاذلين من خلال هذه المقارنة الفريدة حينما يعرض لنا إباء المخلصين وعزائمهم.

فأتاهم بحفنةٍ من رجالٍ
عندها المجدُ والردى سيانِ
ورماهمْ بها وما هي إلا
جولة، فالترابُ أحمرُ قانِ
وضلوعُ اليرموك تجري نعوشًا
حاملاتٍ هوامدَ الأبدانِ
هللَ المؤمنون واهتزت البشـ
ـرَى تروّي حناجرَ الرّكبانِ

أما في قصيدته «شطآن بلادي» فيضع أمام القارئ شطآن بلاده في ثنايا السطور كما أبدعها الله:



رملٌ وصخورْ
ومطافُ نسورْ
ومواكبُ أخيلةٍ تهمي
من كوّةِ عالمها المسحورْ
وحمائمُ بيضٌ في اليمِّ
مدّت أجنحةً للنجمِ
ووراء سراها في الديجو
ر ذيلٌ من نورْ

ولا يلبث بعد هذا التصوير الرائع أن يذكرنا بحال هذه البلاد يوم كان يعيث في ربوعها مستعمر ظالم فيشدنا بذلك ليس إلى جمالها، وروعة تلك الشطآن فحسب، بل إلى قداستها، وضرورة الجهاد لتطهير أديمها من رجس أولئك المعتدين، وما جرّوه عليها من ويلات فيتعانق الجمال والجلال:

شطآنَ بلادي كم غنّتْـ
ـكِ بسمعِ المجدِ شفاهُ عصورْ
أقوتْ أرجاؤكِ إلا من
حلمٍ في جفنِ الرملِ يمورْ
ألقاكِ وألقى في اليمِّ
أسرابَ الأجنحةِ الدُّهمِ
جاءتك من الغرب المسعورْ
هُدّامُ قصورٍ، وبُناةُ قبورْ

هذا شأن عمر مع شعبه، مع أمته، مع المستقبل.

إن أراد أن يكون الأمل كله بالغد الذي صوره مشرقًا باسمًا، ومن الشعب وإليه.

وَدَّعـــي الـقـــادةَ فـي أهـوائـهـا
تـتـفـانـى فـي خـسـيـس المـغـنـمْ

☆☆☆☆

فـعـلـى الحـــادثـــات أن تـتـوالـى
وعـلـيـنـا الـوقـوف بـالمـرصـادْ

فلابد أنه:

سـيـنـجـلـي لـيـلـنـا عـن فـجـر مـعـتـركٍ
ونـحـن فـي فـمـه المـشـبـوب تـغـريـدْ

وهو ييسم للخطب وحسبه منه أنه يلم الأشتات ويوحد المقاصد وبذلك يكون مباركًا عنده:

بُـــورك الخــطــبُ فـكـم لــفَّ عـلـى
سـهـمـهِ أشـتـات شـعـبٍ مُـغْـضـبِ

كما يفرح ويهلل للآلام التي توحد الشعب وتجمعه على الجهاد:

لـــمَّـــتِ الآلامُ مـــنـــا شـمـلَـنـا
ونمــت مـــا بـيـنـنـا مـــن نـسـبِ
فـــإذا مـــصـــرُ أغـــانـــي جِـلَّـقٍ
وإذا بـــغـــدادُ نجـــوى يـــثـــربِ

وإذا ما أخذ عليه تجاوزه لبعض الجزئيات من أمور الحياة التي توقف غيره عندها طويلًا من الحوادث اليومية أو الأسرية فإن الجزئيات عنده لم تكن لتسد مسد الكليات التي كانت عنده هي الأهم والأولى.

والكليات التي آمن بها عمر ودعا إليها كانت مشتملة بكل جلاء ووضوح على أهم تلك الجزئيات التي يظن الظانون، ويتقول المتقولون: إن عمر قد أغفلها..

أو .. لم يعشها، فلقد عاش في نعمة ومجد ويسار، ولقد مرت معنا صور البائسين والمتعبين والمشردين في مواطن كثيرة من أمهات قصائده.

وإلا ما معنى قول عمر؟:

لا يــــلامُ الــذئــبُ فــي عــدوانــهِ
إن يـــكُ الــراعــي عــدوَّ الـغـنـمِ

هل غير الثورة والتمرد، ونزع الحق من غاصبيه أيان كان غاصبوه لا فرق.. فهم غاصبون وكفى..

فها هو يحذره منهم ومما يفسدون به، ويذكرهم بما دأبوا عليه:

كـم مــرّةٍ خـفـروا عـهـودك، واسـتـقَـوْا بـيـديـك راحَــكْ
أيـسـيـل صــدرَك مـن جـراحـتـهـم، وتـعـطـيـهـم سـلاحَــكْ!!
لَـهَـفـي عـلـيـك أهـكـذا تـطـوي عـلـى ذلٍّ جــراحَــكْ؟

وقوله مذكرًا:

قـد يـعـفُّ الجــزّار لــو لـم تُمـــرَّغْ
تحـت أقــدامــه رقـــابَ الأضــاحــي
أيُّ شـعـبٍ يـعـطي الـسـلاح إلــى الـبـا
غِـــي، ويـشـكـو مــن وخــزِ الـسـلاحِ

ومثل هذه العاطفة والحرص على عزة الشعب وكرامته في شعره كثير.. كثير..

ولنعش الآن حرارة ابتهالاته في «صلاته» راجيًا أن يجرد الله مغانينا الساحرة من جمالها الفريد، ويردها فقراء لأنه يحبها كذلك إذا كانت تعطي رجالًا.

رَبِّ طـــوَّقــتَ مــغــانــيــنــا
جـــــمـــــالًا وجـــــلالا
ونـــثـــرتَ الـــطِّـــيــبَ فـيـهـنَّ
يمـــــيـــــنًـــــا وشـــــمـــــالا

وتجلّيتَ عليهنَّ

صليبًا، وهلال

ربِّ هذي جنَّةُ الدنـ

ـيا عبيرًا وظلالا

كيف نمشي في رُباها

الخضرِ تيهًا واخْتِيالا

وجراحُ الذُّلِّ تخفيها

عن العزِّ احتيالا

ردُّهَا قفراءَ إن شئـ

ـتَ وموجِّهُا رمالا

نحن نهواها - على

الجدبِ - إذا أعطتْ رجالا

ومع تكرار هذه المشاهد والأبيات فلست أرى حرجًا في القول إنها تعيد نقلنا إلى أن نحيا تلك المشاهد والمواقف.

وما أروعها لفتة ذكية تلك التي اتجه بها إلى الجندي كبش الفداء، وشعاع الأمل المرتقب المبتسم فهو يبارك له جرحه رمز شرف عز وكرامة:

أيها الجنديُّ يا كبشَ الفدا

يا شعاعَ الأملِ المبتسمِ

بورك الجرحُ الذي تحملهُ

شرفًا تحت ظلالِ العَلَمِ

وفي مثل هذا الجرح فلتكن العزة والفخار.

****

فلسطين والفداء في شعر عمر

هل بإمكاننا أن نكون مطمئنين إذا قلنا: إن عمر قد رضع محبة فلسطين من أمه الفلسطينية فحسب؟

لا شك عندي أن لهذا الأثر المباشر والقوي في ذلك، ولكن تمَّمته وعمَّقته ثقافته العربية والإسلامية فتم الفضل واكتملت الدائرة.

بداهة يعلم عمر أن فلسطين مهبط الأنبياء، ومَربَى عيسى، ومسرَى خاتم الأنبياء ومعراجه، فكان لهذا أعمق الأثر في شعره وأعظم النتائج منه.

وأحسب أن اهتمامه الأدبي جاء أول ما كان في قصيدته «قيود» التي ألقاها في رثاء البطل المجاهد «إبراهيم هنانو» وكان ذلك ١٩٣٧ قبل النكبة فصب في تلك القصيدة غضبته المضرية على الساسة المتغافلين عن حقيقة الأمور التي كانت - ما تزال - تحاك لهذه الأمة وما قاله فيها:

هذي الديارُ عشقتُها ولطالما
هزّت حنينَ العاشقينَ ديارُ

والقدس، ما للقدسِ يخترق الدّما
وشراعُه الآثامُ والأوزارُ

صلبوا على جشع الحياة وفاءهمْ
ومشوا على أخشابهِ، وأغاروا

عهدُ الصليبيينَ لم يبرحْ لهُ
في مسمعِ الدنيا صدًى دوّارُ

مـــدُّوا الأكـــفَّ إلـــى شـــراذم أمّـــةٍ

ضـجَّـتْ بـنِـتْـنِ جـسـومِـهـا الأمـصـارُ

ورمـــوا بـهـا الـبـلـدَ الـحـرامَ، كـمـا رمـت

بـالـجـيـفـةِ الـشـطَّ الـحـــرامَ بـحـارُ

وبـــنـــوا لـهـا وطـنًـا، وعـبْـق مـحـمـدٍ

وابـــن الـــبـتـــول بـأفـقـه زخـــارُ

ولا يفوته بعد هذا الفهم الواضح لما يراد لفلسطين المقدسة أن يذكرنا بما لا بد من تذكره، وجعله شعارًا لا يفارق فكرًا، ولا ينساه قلب مؤمن حتى يتم استرداد الحق السليب في فلسطين وفي سائر عالمنا العربي.. إذ لن يعلي ألوية الحق إلا الإعداد للقوة التي أمر لله بها بقوله: «وأعدوا»

إن الـضـعـيـفَ عـلـى عـريـق فـخـاره

حـمَـــلٌ يـشـدُّ بـعـنـقـه جـــزّارُ

فلا يكفي أن نقول «إنا» و«نحن» و«كنا» إذ لا بد من القوة.. القوة في كل شيء.

وعندما يعلم عمر ما قاله الغازي الأذل «غورو» على قبر البطل صلاح الدين الأيوبي ذلك الإنسان الرحيم بخصومه الذين تحدثوا عنه وشهدوا أنه لم يعرف تاريخهم ما يداني أدنى رحمة من رحمات صلاح الدين وعدله.. لكن «غورو» ركل القبر قائلًا: «ها نحن يا صلاح» قال هذا بكل الحقد والعنجهية فقال عمر مخاطبًا أحقاده:

رُبَّ غـــازٍ أذلَّ جـــاءَ صـــلاحَ الـدْ

ـديـنِ فـي هـــدأةِ الخـلـودِ المـهـابِ

هـاتـفًـا فـي رمـيـمـه الـطـهـر إنّـا

هـا هـنـا يـا صـــلاحُ.. يـا لَـلّـعـاب

إنّ للمجدِ دمعةً حين يلقى
جثةَ الليثِ عرضةً للكلابِ

وواضح هنا حماس عمر وغيرته، وفهمه لهذه الحادثة التي نتمثل فيها كل المتناقضات، فهي الصراع بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، والحب والحقد، والنور والظلام، والهدى والضلال، أو إذا شئت بين الإنسانية التي حملنا رسالتها يوم كنا خير أمة أخرجت للناس، وبين العنصرية والهمجية التي جبل عليها اليهود المغتصبون، فإذا بهم عبر الزمان شرذمة حقد مشهرة بيد البغي حلمها كما يقول عنه عمر: نضيد على جبين الفساد، وهذا ما أظهرته الوقائع على امتداد عمر قضية فلسطين، وما يتصل بها من أسباب ومسببات تعطلها إسرائيل وتعطل كل ما يمكن أن يكون عملًا لصالح أهل فلسطين وحقهم فيها حتى وإن كانت نوايا بعمل ولو بسيط للمشردين من أهل فلسطين الحقيقيين على امتداد العالم كله من خلال سيطرتهم على اقتصاده ومصدر القرار فيه.

إي فلسطينُ ما العروبةُ لولا
قبسٌ من سَنا النّبوةِ هادِ!
إنَّ تاجًا يلفُّه حلم صهيـ
ـيونٍ نضيدًا على جبين الفساد

فإن:

عهد الصليبيين لم يبرحْ لهُ
في مسمع الدنيا صدى دوّارُ

وهيهات أن تقرأ قصيدة من قصائد عمر الوطنية اللاهبة إلا وتلقى لفلسطين قسطًا وافرًا منها، فإن وعي عمر الكامل بخطورة تلك المؤامرة بل المؤامرات كان إلى آخر أيامه الهم الكبير له، سواء في أدبه ومواقفه، ومن المسلم به أن يكون لعلمه

الدبلوماسي في عواصم شتى ما قد فسح المجال أمامه لنجد في شعره ومواقفه ما لم يتوفر لغيره بتلك الوفرة الوضوح، إذ لم يعرف الضياع إلى عمر سبيلًا، ولم تتقاذفه أمواج التيارات، ولم تبهره الأضواء وتتجاذبه الإغراءات..

لقد ظل الشعور الذي يحركه عمر في سامعيه أو قارئي شعره منذ أن تبدأ رحلتهما مع شعره شعورًا حيًّا، كما ظل متقدًا متزايدًا، وكم توطّدت أواصر صداقتهم معًا من خلال الانسجام في تلك الوقفات التي لا تنسى لعمر وشعره.

وقد رأينا في قصائده الوطنية الطويلة الشهيرة كيف يستطيع أن يشد السامع إليه، وكيف يبقيه مشدودًا إليه حتى يضعه وجهًا لوجه أمام قضية فلسطين النبوة، فلسطين المسرى والمعراج التي جمع الله فيها جميع الأنبياء ليؤمهم فيها وعلى ثراها الطاهر إمامهم وخاتمهم موحدين خلفه ليكون ذلك توحيدًا للمؤمنين كل المؤمنين برسالات السماء لنصرة فلسطين المقدسة عندهم جميعًا.

فانظر إليه كيف يسلسل القصيدة اللاهبة التي طالما ردَّدتها حناجر المعجبين في أرجاء الوطن العربي كله..

إنه يخاطب أمته حتى يصل بها إلى قوله:

أيـــن دنـــيـــاكَ الـــتـــي أوحـــتْ إلـــى
وتـــــري كـــــلّ يـــتـــيـــم الـــنـــغـــمِ
أتـــلـــقّـــاكَ وطـــرفـــي مـــطـــرقٌ
خـــجـــلاً مـــن أمـــســـكَ المـــنـــصـــرم

فإذا به يفاجئنا تلك المفاجأة المنتظرة منه بقوله الصارخ:

ألإســـرائـــيـــلَ تـــعـــلـــو رايـــةٌ
فـــي حِـــمـــى المـــهـــد، وظـــل الحـــرمِ

ويرى هذه الفاجعة إنما هي بسبب تخاذل الأمة وركونها إلى اللذات متناسية ما يفعل بها رعاتها الذين هم سبب كل ما حل بهذه الأمة كما يراه.

رُبَّ وامعتصماهُ انطلقتْ

ملءَ أفواهِ الصبايا اليُتمِ

لامستْ أسماعهم لكنها

لم تلامسْ نخوةَ المعتصمِ

فلا يلامُ الذئبُ في عدوانِه

إن يكُ الراعي عدُوَّ الغنمِ

فلقد رأينا تلمس الواقع والتقرير في أمر هذا الواقع الذي أوصلنا إلى هذه النتائج، فالرعاة المستبدون أشد فتكًا في شعوبهم من فتك الذئاب في الغنم، فالذئب لا يتقنع ولا يقتل ذئبًا، بل لا يقتل إلا إذا جاع، والذئاب البشرية تفتك في أهلها ليل نهار، وكلما ازدادت تخمة زادت فتكًا وظلمًا وسلبًا ونهبًا وتشريدًا وقتلاً.

وفي رائعته التي كان كل سوري يتطلع إليها من عمر الذي ألِف مواقفه الوطنية فهو ممن عملوا لجلاء الغاصب الفرنسي عن وطنه الحبيب فلم يخيب تطلعهم فطلع عليهم بـ «عروس المجد» قائلًا لسوريته عروس المجد:

يا عروسَ المجدِ تيهي واسحبي

في مغانينا ذيولَ الشُّهُبِ

ثم يتدرج في عرض قصة الجهاد الوطني بأسلوبه العمري حتى إذا شد الجمهور إليه فاجأه بقوله:

ما بلغنَا بعدُ من أحلامِنا

ذلك الحلْمَ الكريم الذهبي

أين في القدس ضلوعٌ غضّةٌ

لم تلامسْها ذنابي عقربِ

ثم يتعجب من أبناء السبايا كيف كان لهم ما كان:

ما لأبناء السَّبايا ركبوا

لـلأماني البيض أشهى مركبِ

ثم يخاطبها مطمئنًا:

دونَ عليائك في الرَّحب المدى

صهلةُ الخيلِ، ووهجِ القضبِ

وحينما وقف يرثي الزعيم الكبير سعدالله الجابري لفت أنظار الناس المحتشدين حوله لفتة رائعة إلى فلسطين فيتعجب كيف لا تمشق النجوم في يد المجاهدين ذيادًا عن القدس الطهور.

كيف لا تمشق النجوم ذيادًا

عن حِمى السيد المسيح الفادي

إن تاجًا يلفّه حلمُ صهيو

نٍ نضيدًا على جبين الفسادِ

وينطلق به الأمل الذي لم يفارقه فيقول بكل الثقة التي كانت تملأ جنبيه وتعيش في وجدانه:

أقسمت أن تفضّه خرزات

وتوشّى به سروجُ الجيادِ

فهو لا يهاب الحادثات مهما اشتدت فيخاطبها قائلًا:

فعلى الحادثاتِ أن تتوالى

وعلينا الوقوف بالمرصادِ

ولعلنا نذكر أيضًا ما سبق ذكره عن القدس في رثاء المجاهد البطل إبراهيم هنانو:

عهدُ الصليبيينَ لم يبرحْ له

في مسمعِ الدنيا صدًى دوّارُ

وهكذا فإننا نراه كلما ذكر القدس ينقلنا من مأساتها إلى الأمل في نجدتها وتحريرها، فها هو يصور كتائب الفداء كما أملاها عليه إيمانه ورسمته براعته فيقول:

مِلءَ سمعِ الجهادِ صيحةُ ثأرٍ

تنفضُ الجمرَ من خلال الرَّمادِ

غمزتْ نخوة البلاد، فهبَّتْ

تتلظّى حواضرًا وبوادي

وتنادت حماتُها لروابي الـ

ـقدس محمولة على الأحقاد

لأنه:

لا توفّي العهودُ إلا إذا ما

كتبتْ بالدماءِ لا بالمدادِ

أَوَلَمْ يستغرب قبل هذا إلى ما ستؤول الأمور إليه حينما وقف ينشد بصوته الجهوري وبيانه المشرق:

أهتافٌ خلف البحار لصهيو

نٍ وحدبٌ على بناء كيانهْ!!

ومن الهاتف الملحُّ، أحرٌّ

أين صدقُ الأحرارِ من بهتانهْ

أين ميثاقُه: أتنحسرُ الرحمةُ

في دفتيه عن عدوانهْ!

ف:

يا لَـذلِّ العهود في فمِ من
أجرى على عزِّها دمًا فرسانه!

ويعود بنا من خلال هذه التساؤلات المريرة والفاضحة لكل ما للصهيونية والصليبية اللتين استهانتا بالحقوق، وشردتا الأحرار بمزاعم باطلة، وادعاءات كاذبة، وأمنيات واهمة ليؤكد الحقيقة الأزلية:

إي فلسطينُ يا ابتسامةَ عيسى
لجراح الأذى على جثمانهْ
يا تثني البراق في ليلة الإسـ
راءِ والوحي ممسكٌ بعنانه
لا تنامي خضيبة الحلم خوفًا
من غريب الحمى، ومن أعوانه

فكائنة من كانت أعوانه، وبالغاً ما بلغ به الأمر ف:

إن للبيتِ ربَّهُ فدعيهِ
رُبَّ حاوٍ رداه في ثعبانهْ

وهكذا كلما انتهت مرحلة وبدأت مناسبة تجده الصوت الهادر والمجاهد الواعي اليقظ لما يدور وما يدبر لهذه الأمة فترسم له أحلامه وأمنياته التي غذاها بكل ما تطلبته تغذيتها مما قدر عليه فإذا بقوافل الشهداء زاحفة أمام عينيه إلى روابي القدس تطهرها من رجس الصهيونية الغادرة الحاقدة وترجع للأقصى الحبيب بهاءه ومهابته وطهره.

ولننظر إليه كيف يرى دماء النسور تلبي صرخة القدس والمسجد الطهور:

يا دماءَ النسورِ تجري سخاءً
بغرام البطولةِ الفضَّاحِ

انــت دمـــعُ الـــسمــاء إن لــهَــثَ الجــقــ
ـــلُ، وجـــفّـــت ســنـــابـــلٌ وأقـــاحـــي

كـــلّـــمـــا لاح لـــلـــجـــهـــاد صـــريـــخٌ
صـــاح لـــبـــيـــك يـــا صـــريـــخَ الـــكـــفـــاحِ

أجل هكذا شأن عمر مع فلسطين لم ينسها في مناسبة منذ أن بدأت مسيرته الشعرية والنضالية وبدأ يأخذ دوره الفاعل في الأدب والسياسة فهو يذكر حينًا، وتزحف جيوش غضبه هادرة نحو القدس حينًا آخر.

ولقد رأينا في كلماته الدواء حينًا، والعزاء حينًا آخر، واستمعنا إلى أناته وتوجعه على ما حل بفلسطين أحيانًا أخرى وما كان ليحل بها ما حل لولا تخاذل الرعاة ممن تملكوا الأمور ولم يكن منهم سوى أمر الشرور.

وإني لأحسب أن كلماته كانت بمثابة مارج من نار على الغاصبين والمتخاذلين كما كانت نورًا على دروب السالكين..

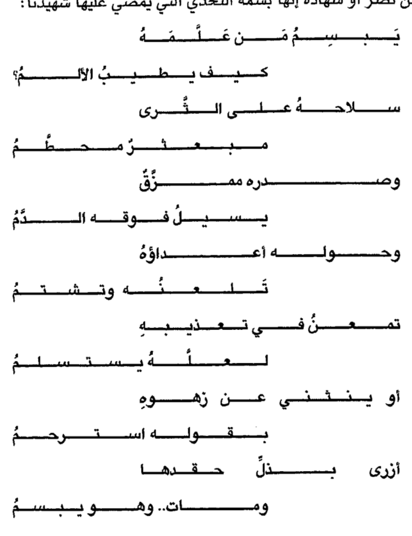
وما هؤلاء السالكون السائرون إلى القدس إلا ممن امتلأت قلوبهم بحب القدس الطهور، وإيمانًا بالاستشهاد في سبيل تحريرها، وعزتها، ولئن كانت نداءاته السابقة عامة - كما يظن - فها هو يرسم لنا حقيقة ما يراه في الفدائي فيصورها لنا أوضح ما تكون الصورة، إنه الفدائي، أجل الفدائي الذي يعلن:

امـــضـــي ويـــذهـــلـــنـــي طِـــلابـــي
عـــنّـــي وعـــــن دنـــيـــا رغـــابـــي

أمـــضِـــي ويـــســـألـــنـــي الـــربـــيـــ
ـــعُ ولا أجـــيـــبُ مـــتـــى إيـــابـــي

إنه ماض إلى الشهادة في سبيل القدس التي أرخص حبها دمه وشبابه فمضى بكل إقدام وإصرار إلى الموت الذي أصبح لديه أحب من الحياة، طالما أن هذا الموت سيفدي به القدس ومسجدها الطهور.

وما أروع وأبلغ «بسمة التحدي» التي كانت أشد على جلاديه من أي سلاح.. فلقد كانت بسمته تزداد كلما مضوا في تعذيبه لأنه مصمم على لقاء من أحب من الصديقين والشهداء في جنة عرضها السموات والأرض، فمن هؤلاء الأوغاد، وما تعذيبهم أمام ما ينتظره من نصر أو شهادة إنها بسمة التحدي التي يمضي عليها شهيدنا:



يَبسِمُ مَن عَلَّمَهُ
كيف يطيبُ الألمُ؟
سلاحهُ على الثُّرى
مبعثرٌ محطَّمُ
وصدره ممزَّقٌ
يسيلُ فوقه الدَّمُ
وحوله أعداؤهُ
تَلعنُه وتشتمُ
تمعنُ في تعذيبِه
لعلَّهُ يستسلمُ
أو ينثني عن زهوهِ
بقوله استرحمُ
أزرى بذلٍّ حقدها
ومات.. وهو يبسمُ

ولم يقف عمر عند هذا الحد من رسم صورة الفدائي الشهيد، إنما ظل الأمل نصب عينيه، فها هو يخاطب المجاهد كل مجاهد بقوله لتكن هذه المرة في قاعة اليونسكو في بيروت حيث تجمعت الحشود الرسمية والشعراء والمسؤولون لمبايعة الأخطل الصغير أميرًا للشعراء فاغتنم هذه الفرصة السانحة ليقول:

لا يُحْزِنَنَّكَ ما ترى لفلولِها

في القدس من راع له ومؤازرِ

وها هو يؤكد بالسؤال الإنكاري:

أوما تعبئ في الصحارى من قنًا

للقاء مخضوب الوشاحِ جزائري

فمشى إليها كلُّ أروعَ غاضبٍ

وخطاه خوض ملاحمٍ ومجازرِ

هيهات ما لانت عقيدةُ مؤمنٍ

مهما تحدَّتها غواية كافرِ

فيا طولَ ما انهدَّ الحديدُ مبعثرًا

مزقًّا على خشب الصليب الطاهرِ

وليس غريبًا هذا من عمر فلسطيني المولد، إسلامي الثقافة عربي المتحد، إنساني النزعة..

وفي قاعة اليونسكو مرة ثانية يقف ليقول رائيته اللاهبة الصاخبة بعد النكسة الكبرى نكسة المتغافلين من القادة المتسلطين الذين:

خافوا على العار يُمحى فكان لهم

على الرباطِ لدعم العار مؤتمرُ

ومع هذا الواقع الأليم فإنه لا ينسى قضيته الكبرى فلسطين فيرسم درب الفداء مجددًا مثنيًا على الحسناوات اللواتي بدأن يشاركن الرجال في فداء فلسطين من بيع أساور لإمداد المجاهدين أو زحفهن لنصرتها..

وكلُّ حسناءَ ما باعتْ أساورها

إلا لِتشري بها ما الموتُ يدّخرُ

فلقد أصبح عزاؤه هذه الحسناوات وأمامهن ومعهن:

كتائبُ الفتح في إعصار عاصفةٍ

بالحقد والغضب الخلّاقِ تنفجرُ

كتائبُ بالنضال الحقِّ مؤمنةٌ

إذا الطواغيت من إيمائها كفروا

فهؤلاء هم:

عزاؤهُ أنّ مِلءُ السّاحِ فتيتَهُ

إلى الردى والفدا أرواحهم نذروا

ومن نذر نفسه للنصر أو الشهادة كان على الله واهبه أن ينصره.

هذا بعض ما أوسع لنا المجال لنسطره عما كان - بعض ما كان - من عمر لفلسطين، وتبقى المواقف الدولية التي طالما استمعت إليه وهو يرويها عليّ بأسلوبه العمري، لكنني لم أجدها مكتوبة فإنني آثرت عدم ذكرها هنا لعل من سمع منه ما هو أكثر مما سمعته ينهد لها وهو يسطر فصولاً تمليها عليها سيرته ومسيرته..

ولا أنسى هنا ما كان أولى أن أبدأ به وهو قصيدته «هكذا» وسخريته اللاذعة بالعابثين اللاهين عن القدس، الغارقين في ملذاتهم.. فكان عليه أن يسخر مر السخرية منهم بقوله:

هكذا تُقتحمُ القدسُ على

غاصبِيها، هكذا تُسترجَعُ

لكنها راجعة يا عمر وأسأل الله تعالى أن أحمل لك البشرى إلى ضريحك السعيد بك.. في حين أن لك في قلوبنا قبل هذا الضريح وبعده مقام هيهات أن يكون لغيرك من الشعراء وغير الشعراء من التابعين لهم..

فالقدس قدسنا.. ألم أُسْمعكَ يومًا قولي عنها:

كانت لنا القدسُ مذْ كانت لنا أبدًا

ولم تكنْ لسِوانا قدسنا أبدا

وذلك وعد الله لنا، والله لا يخلف الميعاد.

****

عمر الإنسان

إذا كان من معاني الإنسان الإشادة بما لدى الإنسان من صفات حميدة، وتربية فاضلة، وتطلعات عامة شاملة مبعثها الحب والخير للناس لمجرد الخير والحب، وإذا كان من معانيها مشاركة الناس أفراحهم وأحزانهم والاستجابة لقضاياهم من غير هوى جامح، أو مقصد عاجل فعلى ضوء هذا وذاك سنتبين ما لدى هذا الشاعر من هذه الصفات.

ولنبدأ بقول صديقه الشاعر أحمد الجندي الذي يقول إن عمر أبوريشة: «إنسان بكل ما تعني هذه الكلمة من شمول»[1].

ولقد أصبح أمرًا طبيعيًّا أن نسلِّم بما قاله الأستاذ الجندي وهو من عارفي الشاعر حق المعرفة، ولما عرفناه أيضًا من أقوال الكثيرين من أمثال الجندي، ومرد ذلك إلى نشأته الأولى أولًا ولثقافته الدينية التي تقوم على التسامح والتعلق بالمثل العليا وما تحفزه به من حب مطلق فالله تعالى هو المخاطب من المسلمين كل يوم مئات ملايين المرات بـ «الحمد لله رب العالمين».

وإذا أردنا أن نضيف إلى هذا الشعور العام عند عمر كمسلم، فإننا سرعان ما نتبين أنه كان في موقع يبعده عن الأنانية فقد عاش حياته في نعيم ويسار.. وكان في مركز القيادة لا الانقياد – وإن تكن الأمور نسبية – فكان مصداق هذا كله تعامله الإنساني، وسعيه بما أوتيه يمكن تلخيصه في أن تنبثق الحياة عنده من إرادة

(١) انظر كتابه شعراء سورية ص ١٢٠.

الإنسان المستجدة، وليس من غير هذه الإرادة الخلاقة بفطرتها السوية السليمة، فالله جل جلاله خلق الإنسان حرًّا كريمًا، وشاءه خليفته في أرضه يقيم فيها شرعه. ويحقق فيها العدالة التي هي روح الرسالات السماوية جميعًا والغاية منها.

ولدى قراءتنا لما بين أيدينا من شعر عمر استطاع أن يملي علينا أن نقف عند مواقفه ونداءاته الحارة المنبثقة من نظرته الإنسانية التي هي نتاج ما تقدم من نشأته وصفاته، فهو محب للإسلام، كثير الإعجاب برسول الإسلام بصفته رسول رب العالمين ورحمته للعالمين جميعًا.

وهيهات أن ترى شاعرًا حارب الطغاة والظالمين وندد بهم وأثار حفيظة الناس عليهم كما فعل عمر.. وهذه هي البداية السلمية لكل إصلاح يعم الخير بعده، وتنتشر العدالة ويكون المجتمع المثالي الذي أراده الله لعباده، ولكن بعيدًا عن تسلط المتسلطين الظالمين الذين انحرفوا فضلوا وأضلوا، وما كان يجب أن يكون بفطرة الله سلامًا وتسامحًا ومحبة صيروه بغضاء وعداوة وحروبًا، ومن هنا انطلقت نداءات عمر في كل مناسبة كان النداء فيها أبلغ أثرًا وأشد تأثيرًا من سواه.. فكان بذلك إنسانًا شاعرًا وشاعرًا إنسانًا إن لم يكن في سائر شعره لكنه كان في الأهم الأغلب منه وبخاصة في المقام المحمود لذلك.. فهو حينما يصب جام غضبه على الطغاة وأصحاب السلطان لا ينسى أن يصور بشاعة ما جنوه على شعوبهم التي كانت سبب وصولهم الذي صيروه عاملًا لتسلطهم وقهرهم، فكان حقًّا على مشاعره نحوهم أن يتصدى لهم ويفضح أساليبهم بجرأة تحرك الإحساس في كرامة الشعوب التي خدروها وغيبوها بظلمهم.

فها هو يسميهم شُرّب النجيع ويصفهم بما هم عليه فيقول:

لم يزلْ شُرّبُ النجيعِ سُكارى
يتبارونَ حوله عدوانا

مــا ألانـــت قـلـوبَـهـم أدمـــعُ الأيـــ

ـــتـــامِ، أو هــزّهــم أنـــين الـحـزانــى

كـلـهـم فــي ولـيـمـة الـبـغـي يـخشى

أن يـــرى جـــوفَ غـــيــرِه مـلآنــا

وأحسب أنه لو لم يقل سوى هذي الأبيات في وصف مصاصي دماء شعوبهم لكفاه حسن تعبير وقوة تأثير.. فهم سكارى لكن سكارى شرب الدماء، وهم يتبارون في شربها متحدين على الاستزادة من شربها فكلهم أينما كانوا سواء في ظلمهم وشربهم لدماء الأبرياء، والأشد من هذا والأنكى - كما يقال - إنهم رغم تجمعهم على شرب الدماء إلى درجة السكر فإنهم يتحاسدون فيما بينهم ويغارون ممن امتلأ جوفه قبلهم من تلك الدماء دونما أي التفات لما فعلوه في حق الأيتام وما ارتكبوه في ظلم الحزانى..

مع أن هذه الأبيات لا تعدو أن تكون واحدة من عشرات أمثالها تبقى عند من يتلمس ما فيها من حس إنساني نحو هؤلاء الأبرياء الذين شربت دماؤهم ظلمًا وعدوانًا، فإننا نجد الغضبة العارمة والثورة الهادرة على «شرب النجيع».

وفي لوحة أخرى من لوحاته الغنية بالصور والمشاهد المروعة لحالة هؤلاء المظلومين يقول:

بِمَــن اسـتـجـارتْ هــذه الـزمـر الـتـي

مــدّ الـزمــان لـهـا يــدَ اسـتـهـتـارهِ؟

الـــعُـــريُ يــنـشــرهـا عــلــى أنــيــابــهِ

والجـــوعُ يـطـويـهـا عــلــى أظـفــارهِ

فالقضية هنا عنده قضية زمرة مشردة، وها هو يتبين لنا حالها كما صوره:

الـــعـــريُ يــنـشــرُهـا عــلــى أنــيــابــهِ

والجـــوع يـطـويـهـا عــلــى أظـفــارهِ

ولم يكن عري هذه الشعوب لولا تكديس أثواب الطغاة، كما لم يكن جوعها إلا بتخمة الأثرياء الظالمين، والطغاة المفسدين.

وقبل أن نغادر هذين البيتين (سأشاغب) هنا على كلمة الزمان، فأخشى ما أخشاه هنا أن يفهم الزمان أنه الدهر، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿لا تسبوا الدهر، فأنا الدهر﴾.. وليته جعلها «الظلوم» ولم يضطرني إلى هذه «الدعابة» التي لي عليه غيرها، وليعذرني عليها الآن محبوه والمدافعون عنه، فقد أسمعته في حياته عن تخوفي عليه في أمثالها، وأشار إلى هذه الخشية من أشار من محبيه الذين يريدون له العصمة مما يفهم أو قد يفهم منها، وقد بين ذلك بشيء من التفصيل الدكتور حيدر الغدير جزاه الله خيرًا بدراسته الدقيقة والشاملة التي سبقت الإشارة إليها.

إن هذا العري، وذلك الجوع اللذين ذكرهما في البيت الثاني هما أول ما يفعله الظالمون فيجعلون شعوبهم لا هم لها ولا مطمح إلا بكساء يلبسونه، أو برغيف يسكتون به ضجيج أمعائهم التي أفرغها ظلم الظالمين.

وعمر يطلب من هؤلاء أن يدعوا قادة الظلم يتفانون في خسيس مغنمهم، فهم مهما طالت أعمارهم وانتفخت كروشهم فإنهم يسارعون إلى مصيرهم المحتوم بما كسبت أيديهم وجره طغيانهم على شعوبهم فكان ذلك بالضرورة تعجيلهم بذلك المصير المحتم، وتلك سنة الله التي لا تبديل لها، فللشعوب صحوتها، ولليلهم فجر لا يطيقون رده ولا تأجيله.

سينجلي ليلنا عن فجرٍ معتركٍ
ونحن في فمه المشبوب تغريدُ

بهذا الأمل، وبهذا الفجر يبشر إخوانه الذين «هو واحد منهم» وإن كان قد وصفهم بما يبعث غيره على التشاؤم فيقول عن معاناته مما ألم بهم وكيف وقفت أحوالهم حياله لتثير جراحه التي تموج في صدره وتضج من وأدها فيه:

وقفتْ لتنثرَ كل جرحٍ
كان في صدري وئيدْ

وإذا سألناه من هم هؤلاء الذين نثروا جراحك من جديد، فسرعان ما نجد الجواب بعد قوله هذا مباشرة فقال:

مِن صيحةِ الوطن الطَّعين ورقدةِ الوطن الشهيدْ
وكآبةِ الشيخ الطّريد ودمعةِ الطفل الشريدْ
وتململِ الأحرارِ في أغلال حكّامٍ عبيدْ
وتكالبِ الأقزام فوق ذيول عملاقٍ عنيدْ

إنه في حجرته في موطن جد بعيد عنهم، لكنه معهم، بل هم معه في حجرته لكن رغم كل ذلك ورغم كل الجراح فإنه يخبرنا كي لا يذهب بنا وبمن هو معه، فيرى أن الفجر الجديد لا محالة أبدًا:

وحدي هنا، في حجرتي، والجرحُ والفجر الجديدْ
ورسائلٌ شتّى تقول جميعُها، عيدٌ سعيدْ

إن الفجر الجديد الذي ناضل من أجله شاعرًا وثائرًا هو أمام عينيه أبدًا..

ولنقف عندما قاله صديقه وزميله ورفيق دربه الملازم له الشاعر عبدالله يوركي الحلاق:

«ما رأيت أعفّ منه نفسًا، ولا أصدق عاطفة.. فيه ما في الإنسانية أكرم هباتها، وأمتن مقوماتها»[1].

وحينما رثى عمر أصدقاءه فإنما يرثيهم من خلال صفاتهم الإنسانية التي تجعلنا نشاركه مرارة الحزن، ولوعة الفراق لفقدهم.. فنحن وكل من يملك الشعور

---

(١) انظر مجلة الضاد، العمودان ٣ و٤ ص ١٠٣.

الإنساني شريك في تلك الصفات الكريمة والمواقف النبيلة التي يبكيها عمر ويجعلنا نبكيهم معه، فها هو ينادي صديقه حلمي الأتاسي بقوله:

حُلْمُ يا بسمةَ المروءةِ والإحـ
ـسان والنُّبل، والوفاء، والسماحِ
كم تغاضيتَ عن وشايةِ واشٍ
وتصاممت عن إساءة لاحي
وبذلتَ الحياةَ في دفع ضيمٍ
وهُدى حيرةٍ، وفكِّ سراح

إنه لو من ألوان الحرقة والتوجع الإنساني على بسمة المروءة، وهدى الحيرة، والمغفرة للمسيء وتجتهل المسامح عن إساءة الخصم اللاحي.

وما إلى ذلك من تلك الصفات الإنسانية التي اشتملت عليها هذه الأبيات وأمثالها من مراثيه لرجالات أمته وأبطالها.

وهو يتساءل معرجًا على القدس وما تعاني منه فيقول قولة العارف:

هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أخباره

الكهف هنا كهف عبادة، والعبادة برجسهم يرى أن من حق جدرانه وجميع جوانبه أن تحنو على هؤلاء العباد من جعلوا:

خشب الصليب على الرمال (مخضبًا)
بدماء من نعموا بطيب جوارهِ
فإذا سبيل الحقِّ منفض الصّوى
تاهت به الطلقاء من زوّارهِ

فيا لعار أولئك الجبناء الذين انفضوا عن صوى الحق وسبله.. الحق الذي هو ملك كل إنسانٍ وغاية وجوده.

لكنه:

هيهاتَ ما لانت عقيدةُ مؤمنٍ

مهما تحدّتها غوايةُ كافرِ

وأنى للغواية التي لا يعرف الاطمئنان إلى قلوب أهلها سبيلًا، وأنى لها أن تتحدى إيمان المؤمنين وعقيدتهم الراسخة أو تنال منها أدنى منال..!

فـ:

يا طول ما انهد الحديد مبعثرًا

قطعًا على مِزَقِ الصّليب الطّاهرِ

وعلى ذكر الصليب هنا وقبل أن نغادره نؤكد على ما قاله الدكتور حيدر الغدير، وما نقله عن إصرار عمر على ذكر الصليب الذي أعاقه عن دخول الانتخابات للبرلمان السوري قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي[1].

أما حماة الضيم، من فاقدي الضمير الحي فإنه يقول لهم بكل الوضوح:

مهلًا حماة الضيم إن لليلنا

فجرًا يلفّ الضيم في اطمارهِ

وبهذه الكلمات النارية الفاضحة حماة الضيم وأساليبهم، وبهذه الألفاظ الإنسانية عاش عمر المآسي الإنسانية وتطلع إلى نصرتها، وبهذه الروح الإنسانية السمحة أعطى من شعره لتلك الزمر ما أعطاها مما قل نظيره، وعز أن نجد عند

---

(١) انظر كتابه شعراء سورية ص ٢٧ الأسطر الأخيرة.

سواه بهذا الصدق، وتلك العاطفة أكثر ما نجدها ونجد صدقه في توجهه المتعقل حتى على المستعمر عله يوقظ فيه شيئًا من إنسانيته فهو حينما تحدث عنه وعن جرائمه فإنه قد عمد إلى التشهير به من خلال أداته المدمرة التي تحركها على الشعوب الآمنة يده الآثمة فيقول متسائلًا:

ما كان أغناهُ عن تزوير غايتهِ
من يحمل السيف لا يبري به قلما

نعم يا شاعري ما كان أغناه وأغنانا لو لم يمت حسه الإنساني، فعمد إلى التزوير والتدمير، ولو كانت له ولو بقية من خلق إنساني فطره الله عليه لما كانت منه تلك الجرائم، لكنه سخر كل ما وهبه الله من قدرات للتزوير والتدمير.

وحينما قال عمر في قصيدته «هكذا» الشهيرة جدًّا:

هكذا تقتحمُ القدسُ على
غاصبيها، هكذا تُستَرجعُ!

فقد جعل اقتحام القدس على الغاصبين فعلًا إجراميًّا لا جنسًا بشريًّا، فهؤلاء هم الذين بدأوا العدوان، واغتصبوا الحق، وقتلوا الأبرياء، وانتهكوا الحرمات فكان لزامًا كما كان حقًّا أن تقتحم عليهم القدس - وكما يقال في المثل الشائع: «البادي بالظُّلم وبالشرِّ أشرّ».

ثم أليس هم الذين جعلوا:

في كلِّ كفٍّ غضَّةٍ سكينةٌ
وبكلِّ عرقٍ نابضٍ مسمارُ

ولنستروح قليلًا عند رثائه للزعيم الوطني الكبير سعد الله الجابر الذي طالما اختلف معه بالرأي اختلاف النظراء لأنه كان يريد له ومنه أن يكون فوق كل ملام أو أنتقاد، ويشهد الله على ذلك:

عَـلِـمَ الـلـهُ مـا انـتـقـدتُـكَ إلا

طـمـعًـا أن أراك فـوق انْـتـقـادِ

فانتقاده له ما كان إلا حبًّا وإخلاصًا، فها هو يوضحه لنا بقوله:

وكـفـى المـرءَ رفـعـةً أن يُـعـادي فـي مـيـاديـن مـجـده ويُـعـادي

وهكذا إذن عندك النقد يا أبا شافع!!

ليت من أغراهم وأضلهم ما لم يغرَّك ولم يضلك يا عمر ليته كان لنا من وعودهم ولو بعضه إذن لكفينا الشرور التي ما بعدها من شرور، فإن ما انتقدت به ومن أجله كان غاية إنسانية نبيلة يقف عندها كل منصف بإجلال واحترام.

و عمر هذا الخصم الناقد خصومه نجد في كثير من شعره عن المرأة أنه كان من همّه أن يراها الإنسانية التي التزم بما أراده لها، وما تريده لنفسها كل عاقلة، «تفتح العيون الكسلى للسنا» و«تفجر في الروح الهدى» لتبقى أبدًا شامخة أبية فوق أنساب البرايا تتعالى.

وبذلك تكون شريكته في الإنسانية، وحسبها وحسبه منها ما أراده لها.

وفي قصيدته «عودة الروح» رأينا شعوره الإنساني منسابًا بصدق وعفوية يعطف على أنوثتها التي وضعت في غير ما خلقت له ويريد أن تحتفظ بما عندها للفارس الموعود فهي أحق به وهو أجدر بها مما هي فيه.. وأحسب أنها لفتة إنسانية منه بالرغم من الصورة التي شاهدها عليها.

وفي رائعته الشجية «مصرع الفنان» رأيناه يذوب حسرة وتوجعًا في المعنى الإنساني لموت الفنان بائسًا محرومًا من أدنى حقه في الحياة الكريمة التي أعطاها من فنه ما قدر عليه، ولم يجن من ذلك إلا موته بطيئًا فقال عنه:

نــــام عـــن كــأســهِ وعـــن أحــبــابــهْ
قــبــل أن يــنــقــضــي نــهــار شــبــابــهْ

فهو لم ير أنه مات، إنه «نام» وكأني به من شدة حزنه عليه يراه عائدًا إليه، فلقد قدم لنا بتلك القصيدة العجيبة في تصويرها حالة ذلك الفنان وفداحة ظلمه في بلاده إذ جعل فقده بسبب ذلك الظلم الذي عجل برحيله «قبل أن ينقضي نهار شبابه» وأعيذك يا أبا شافع أن يكون قد غاب عن ذهنك قول رب العالمين:

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمونْ﴾ النحل ٦١.

فربك هو الذي قدر أعمار جميع مخلوقاته.. فلقد انقضى ما قدره الله من عمر فمات ولم ينم..

ولنسرِّ معك يا أبا شافع لنتعرف على ما كان من صاحبك الفنان «كميل سمبير»:

والـــصـــخـــورُ الجـــســـامُ نـــاتـــئـــة الأنـــ
ـــيـــابِ تُـــدمـــي أقـــدامَـــهُ وهـــو تـــائـــهْ
ورؤوسُ الأشـــــــواك تـــرتـــد عـــنـــه
وعـــلـــيـــهـــا ممـــــزَّقٌ مـــن ردائـــــهْ
والأفـــاعـــي تَـــفِـــحُّ مـــن كـــل صـــوبٍ
نـــازعـــاتٍ إلـــى امـــتـــصـــاص دمـــائـــهْ

في حين كان هذا الفنان:

لـــيـــس يـــرجـــو مـــــن الـــــورى
بـــســـمـــةً تـــغـــســـل الألـــــمْ
أحـــــــزمُ الـــــنـــــاسِ عـــاقـــلٌ
لمـــس الجـــــرح، وابـــتـــســـمْ

فهنا تتجلى المأساة الإنسانية في معاناة الفنان، وفي ظلم مجتمعه له كما تظهر في حرة صديقه عليه، وحزنه على فقده وهو على هذه الصورة.. فقد أراد لنا عمر أن نتألم معه ومع صاحبه الراحل لإهمال الشرق بعامة للفن وأهله بخاصة في ذلك الزمن طبعًا وليس الآن فلخصها بقوله:

مـــوردُ الـــفـــنِّ مـظـلـمُ لـم يـصـوِّبْ

فـوقـه الـشـرقُ مـشـعـلًا مـن ضـيـائـهْ

وأحسب أننا متفقون على أسلوب عمر في رده هذه المأساة إلى جذورها لتزول أمثال هذه المأساة بزوال أسبابها وهي إهمال الشرق لنبغائه.

وأما في «كوباكبنا» فقد أشفق كل الإشفاق على ذلك النوع الغريب من المخلوقات، أولئك الزنوج الذين عاشوا في الأدغال، فقرضهم المستعمر الذي مات حسُّه الإنساني، وها هو يشعر أنه يسير في صحبة أرواحهم التي أزهقت ظلمًا وعدوانًا من دون أي شعور إنساني فيقول:

مـطـاف الجـمـال، مـطـاف الجـلالْ

أتـتـك الجـيـاعُ تجـرُّ الـوبـالْ

وسـابـت عـلـى الـشـطِّ حـمـر الـنِّـصـالْ

فـضـجَّ الـصـدامُ، وضـجَّ الـقـتـالْ

فـلا كـوخَ إلا وفـيـه انـهـيـالْ

ولا شـمـلَ إلا وفـيـه انـحـلالْ

قـرابـينَ تُـذبـحُ ذبْـحَ الـسِّـخـالْ

فِـدى المـتـغـنِّـي يـطـيـب الـفـعـالْ

وفـي روحِـه مـن نـذيـر الـضَّـلالْ

ومـن رجـس دنـيـاهُ داءٌ عـضـالْ

وفي قصيدته «حكاية سمار» يذكرنا بواجب إنساني أغفلته الأمة وكأنه عود على بدء حينما تكلم عن معاناة صديقه الفنان «كميل شمبير».

ما اعتاد هذا الشرق يُعطي إلى
نبغائهِ الأحياءِ زند مُناصرِ

فتكريم النبغاء ليس واجبًا قوميًّا فحسب.. لكنه إنساني.. إنسانية النبوغ الذي ينال الجمع حقهم منه.

وفي الصليب الأحمر يقول:

دمع الأرامل واليتامى ما همى
إلا ليمسَحَهُ الحنانُ الخيِّرُ

فهو مع الأرامل واليتامى في توجعها.. ومع اليتامى في تشردها. وما أجمل وأرحم الحنان الخير يمسح تلك الدموع الحرار!!

ثم إن عمر كان مع الأحرار في كل مكان.. وكيف لا يكون من عاش للحرية وسعى إليها مع الأحرار!!

فها هو يقول:

أقسى جراحِ المجدِ جرحٌ لم يكن
يَقوى على تضميدهِ الأحرارُ

فالأحرار هم الأحرار أينما كانوا..

ولتضميد «جراح المجد» وحمايته يجب أن تكون هناك القوة كل القوة:

إن الضعيفَ على عريقِ فخارهِ
حَمَلٌ يَشدُّ بعنقهِ جَزَّارُ

ولكي يفلت الحمل من قبضة الجزار عليه أن يستأسد، وإلا ستظل عنقه في يد جزاره يجزها متى شاء.

وفي قصيدته «مع المعري» يقول:

لــســتَ تــســتــطــيــع أن تــكــون إلــهًــا

فـــإن اســطــعــتَ فَــلْــتــكُــن إنــســانــا

أوليس الإنسان خليفة الله في الأرض ومنفذ شرعته، وحامل رسالته!

ولئن كانت غضبة عمر عارمة على ذلك النوع المتاجر بحق الناس تحت شعارات شتى، فإن غضبته تلك لم تفقده حسه الإنساني الرحيم.

إنها لا تعدو أن تكون دراً لشرٍّ مستطيرٍ، بشرٍّ جد صغير.

أأقل من أن يستأصل الداء؟

درنُ الـنـفـسِ لـيـس يُـمـحـى إذا لـم

تجـــرِ فـيــه مــبــاضــعُ الـحـكــمــاءِ

في «عرس المجد» يقول:

أيــن فــي الــقــدس ضــلــوعُ غـضّــةُ

لــم تــلامــسْــهَــا ذئــابــى عــقــربِ!

الضلوع الغضة التي حرصت على تكريمها كل الشرائع والأديان مزقتها في القدس «يهود».

هذا التذكير.. وهذا الانتصار للضلوع الغضة التي لا حول لها ولا طول هما قمة الشعور الإنساني والانتصار لمن عانت إنسانيتهم فقدان إنسانية أولئك الغاصبين.

وقف معي قارئي الكريم عند هذه اللوحة الإنسانية:

وأرى الشتاءَ تطاولتْ أيامُهُ
وازدادَ عسفًا قلبُه المتحجِّرُ
كم زارني فكشفتُ عن صدري له
فأقام لا يزهو، ولا يتكبّرُ
مازلتُ أذكرُ كيف كان لهاثُهُ
من دفءِ أضلاعي يذوب ويقطُرُ

ولا أجد ما أقوله لك قارئي حول هذا الشاعر إلا أن تعود إلى قراءة هذه الأبيات مسترسلًا متبينًا قدرته على التصوير للشعور الإنساني، ولعلك تتلمس كثيرًا من الفائدة في وقفتنا عند التمثال الروماني الذي صور لنا جهد الفنان انتصارًا إنسانيًا لذلك الجهد فقال:

هنا ينفضُ الموتُ أشباحَهُ
وينتحرُ الموتُ من يأسهِ
لقد تعبتْ منه كفُّ الدمارِ
وباتتْ تخافُ أذى لمسهِ

إذ ليس التمثال في الحقيقة إلا ذلك الجهد الإنساني الذي ينتحر الموت من يأسه أمامه.

ولنحاول أن نتسلق معًا الآن إلى هذه القمة الشامخة العالية من الشعور الإنساني وهو يقف بنا حائرًا إذ لا يرى من يهدي إليه تلك الزنبقة التي لوى أنامله في شبه الذهول وقطفها، وكأنها لما اشتملت عليه من معان أكرم من أن تعطى لمن لا يحفظ لها قدرها أو لا يوازيها نقاء وصفاء.

ولَــويــتُ فــي شبــه الــذهــول أنــامــلــي

وقــطــفــتُــهــا.. لــهــفــي لمــن أُهــديــهــا!

أما مدينة «أوغاريت» التي وهبت العالم الأبجدية، والتي أغفت قريرة العين بعد عملها الإنساني الكبير تستيقظ فترى الدنيا مهاد الظالم.. شملها مشتت ممزق.. وكأنماط لم تجمع العالم أبجديتها الخالدة، فلم يرحم ولم يقدر ما قدمته فرأينا عمر يذوب أسى على ماضيها، ويقف أمامها خجلًا من هذا الحاضر، فيقول لها وقد بلغت إحساساته السامية حدًّا اضطر معه إلى أن تقول وكأنه يعتذر لها عما جنته أيدي الظالمين المتظلمين.

عـــــودي إلـــــى حــــرم الــغــيــاهــبِ

واهـــــجـــــعـــــي.. لـــــن تــنــدمــي

وما كانت استجاباته الإنسانية في كل ما نقله إلى العربية من آداب الأمم الأخرى إلا دليل نزعته الإنسانية التي انطلقت من إيمانه بقيمة الإنسان، وتساميه، وحقه في حريته المطلقة في بناء حياته من خلال إرادته في الحياة مستمدًّا ذلك من إسلاميته السمحة.

إن موقفه مع البلبل في كبره الذي أبى عليه كبهر أن يورث ذل القيد من بعده، فلم يصرخ به كي لا يدع لأفراخه ذل القيد، كما رأيناه في إشفاقه على الزنبقة أن تهدى لمن لا يستحقها، ومع النسر في وثبته إلى القمة حيث عاد إلى مكانه الطبيعي، وهكذا نرى في كل ما استعرضناه وما لم نستعرض.. أنه ليس في ذلك كله إلا دليل انتصاره للحق الإنساني، والتزامه به فجعلنا نقول: إن شاعر إنسان وإنسان شاعر.

****

النفس في شعر عمر

ولد عمر - كما علمنا - في بيت من بيوت الدين والأدب والتصوف.. فنشأ نقي السريرة.. يقظ الضمير.. مطمئن النفس، كأنه في صفاء نفسه وخلقه يوم من أيام ربيع شرقي باسم، وهذا ما وصف به نفسه.

وقد اكسبته دراسته للكيمياء مدى أوسع في التعامل مع النفس والحياة والأشياء، والشاعر ينضج بما امتلأت به نفسه بيسر وسهولة.

فنحن إذًا مع العلم الذي يكشف لنا خبايا النفوس على ضوء المعرفة ليزرع فيها النقاء والصفاء، والخير والحب وما إلى ذلك مما تلهمه تلك النفوس النقية والأشياء المحببة الملهمة، ونحن أيضًا على مثل هذا مع شاب نشأ على قسط كبير من التصوف الذي يأخذ بيد النفوس ليزرع في أعماقها الطهر والرقة والإيمان من خلال ما يتمتع به من إمكانات، وما لديه من خبرات وقدرة على التعبير، أو دقة في التصوير.

وهذا أهم ما جاءتنا به الرسالات السماوية ومن اهتدى بها، أو ممن حملها متأثرًا بها من الفلاسفة والعلماء، فاعتماد النفس الإنسانية أساس لكل بناء؟

ألم يقل سقراط ملخصًا فلسفته بقوله «اعرف نفسك».

ألم يعلم السيد المسيح عليه السلام بوحي من ربه: «ماذا ينفع الإنسان إذ ربح العالم وخسر نفسه».

ثم ألم يقرر القرآن الكريم: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾

إذًا فإن النفس الإنسانية هي الأصل في كل دعوة، وهي الأساس لكل عمل، ولقد اعتمد عمر في التعامل مع النفس الإنسانية بما تنشأ عليه وما تعلمه من علوم و تجارب حياتية، لذلك رأيناه يغوص إلى أعماق النفس والأشياء، ويكشف الستار عن خباياها، وخفاياها، وينقل لنا خلجاتها بأمانة ووضوح فإذا السبيل إلى التعامل معها قصير يسير.

فلئن استطاع العلم أن يصل فيما وصل إليه إلى آلة ومعدات تنقل ما في داخل جسم الإنسان، فلعمر محاولاته في ذلك، فقد سبق إلى ذلك بما أوتي من بصيرة نافذة، وعلم ومعرفة إضافة إلى ريشة ملونة معبرة، وإحساس مكنه من نقل شبه أمين إن لم يكن كذلك عن إحساس النفس إلى الناس تجربة مدللة، ونتيجة مؤكدة، كما ينقل إلى تلك النفس ما تشاء على رعشات كلمات منغومة موقعة توقيعًا حسنًا.

اسمعه في خجل العذراء:

طوَّقها، يا للشذى ... مُطوَّقًا مُقبِّلا
فما انثنت حائرةً ... ولا رنت تدلُّلا
ولا دَرَتْ وجنتها ... من خجلٍ تَبدُّلا
كأنها في طُهرها ... أطهرُ من أن تخجلا

إن وجنتها لم تتبدل من الخجل كما تبدلت في شعر الآخرين لأن الشاعر هنا قد اعتمد التحليل النفسي، فهو أعلم بما طويت عليه مشاعر هذه العذراء ربما

حتى من العذراء نفسها، فهي لو أرادت التعبير عما في نفسها لما أتى على هذا النحو الذي جاءنا به عمر.

وفي قصيدة «محمد ﷺ» يقول:

فبكى أحمدُ.. وما كان من يبْـ

ـكي، ولكنها دموع الإباءِ

نعم إنها دمعة النبي.. دمعة الإباء والرفض و تحدي المغريات التي قدمتها قريش في مقابل تخليه عن دعوته، إنها دمعة النبي الإنسان التي هي أفصح من كل لسان وبيان.

ولم أجدْ في شعر غيره هذه الدمعة الحرى، دمعة الإباء والرجولة يذرفها سيد الأنبياء فالرسول عنده نفس إنسانية، كما رأينا هذه الدمعة الغالية على فقد ابنه إبراهيم عليه السلام، وفي قصيدته «خالد» يقول:

وإذا راضتْ العقيدةُ قلبًا

فمن الصّعبِ أن يكون أناني

أرأيت إلى هذا الفهم الدقيق لهذه النفس السوية التي راضتها العقيدة في ذلك الجيل الفريد الذي كان وسيظل المثل الأعلى عبر التاريخ نتيجة بنائه البناء الصحيح الكامل على يد قائده ورسوله محمد ﷺ ، لقد كان بناء النفس المتصلة بالله العلي العظيم بكل اسمائه وصفاته.

فنحَاه الفاروُق، فانضمَّ للجندِ فخورًا بعزّةِ الإذعانِ

نعم إنها عزة إذعان المؤمن الحق.. لذة الانتصار على النفس الأوابة حين ترفض الأوهام والمغريات، و تعمل لله غير عابئة بكل ما لا تقبله على تصرفاتها

النفس المؤمنة الأوابة، فقد حكمت العقيدة كل حركاتها وصبواتها، وتطلعاتها فجسدها عملًا وسلوكًا أولئك الصحابة الكرام ومنهم هذا القائد الخالد.

فالعقيدة هي الأرضية الصلبة التي يجب أن يرتفع عليها كل بناء، وبقدر ما تتعمق جذور هذه العقيدة في النفس، وبقدر ما تكون مهيمنة على النفس يكون صاحبها مترفعًا عن كل ما في هذه الدنيا.. مقتربًا من الملأ الأعلى الذي تشده إليه مباهجه العلوية المشرقة بنور الله ورضائه.

ولعل في موقف خالد بن الوليد المتميز في تلك الحادثة التي رواها لنا عمر في قصيدته الخالدة محللًا فيها إيمان هذا الرجل الذي عرف قائده كيف يبنيه مع نفر قليل بناء أثبت للدنيا كلها على مر الأيام ما للعقيدة من قيمة وأثر في تكوين الإنسان.

أقول: «لعل هذا الموقف النادر كان رائد عمر حين عمد إلى تحليله في وقت كان عرضه للناس ضرورة ملحة، وهذا ما أراده، وأراه.

ولقد أحسن عمر في اختيار هذا الموقف العجيب الفريد لينفذ من خلاله إلى ما قاله بعد أن أبدع في التحليل النفسي لذلك القائد، وكأنه يقول للأمة وهي في أشد حالات تربص الأعداء بها:

«عليكم بالعقيدة والإيمان فيها.. هما سبيلا النصر»

وما أجمل وأعظم هذا التوظيف لهذه الحادثة «الخالدية» حينما يخاطب خالدًا بقوله:

لا تـقـلْ ذلّـتِ الـرجـولـةُ يـا (خـا
لـدُ) واستـسـلـمتْ إلـى الأحـزانْ

حمحماتُ الخيول في رَكْبِكَ الظا

فِرِ مازلنَ نشوة الآذان

قُم تلقّت تَرَ الجنود كما كانوا

منار الإباءِ والعنفوان

ما تخلّوا عن الجهادِ، ولكن

قادهم كلّ خائنٍ وجبان

ويعمد عمر إلى هذا الموقف فيذكره في مكان مماثل لكل على لسان خالد:

إنا نقاتل كي يرضى الجهاد بنا

ولا تقاتل كي يرضى بنا عمر

هكذا كان دأب عمر أن يبحث عن المواقف النفسية وينقلها لنا صورًا جذابة وبيانًا مشرقًا لا نملك إلا أن نتقبله أحسن القبول.

وفي رائعته «هكذا»:

بدويٌّ أَوْرَقَ الصخرُ له

وجرى بالسلسبيلِ البُلقعُ

منتهى دنياهُ نهدٌ شرسٌ

وفمٌ سمحٌ، وخصرٌ طَيّعُ

ألم يصدق عمر كل الصدق في نقل هذه النفس البدوية لنا ببيتين ربما تعجز أدق الكاميرات أن تنقلها لنا بهذه الدقة.

أجل.. إن ذلك منتهى دنيا ذلك البدوي، وحدود صبوته وغاية طماحه، وكهف رجائه.

أرأيت قارئي كيف دخلنا إلى أعماق نفس ذلك البدوي الذي أورق الصخر له، وجرى بالسلسبيل البلقع من غير كد ولا عناء؟

ثم ينتقل بنا إلى زاوية أخرى في نفس هذا البدوي.

لقد ظن أنه يصل بالمال إلى كل ما يريد.

أوما يملك النيرين فأكد لـ «فاتنته العابرة» أنه طوع أمرها في كل ما تريد لقاء لحظات مما يريد.

قـال يـا حـسـنـاء مـا شـئـتِ اطـلـبـي
فَـكِـلانـا بـالـغـوالـي مُـولـعُ

نعم.. أولم يتحقق له ما يريد منها مع أختها الشقراء قبلها؟

أخـتـكِ الـشـقـراء مـدّت يـدهـا
فـاكـتـسـى مـن كـلٍّ نجـمٍ اصـبـعُ

ويقف بنا عند من فقدوا النخوة العربية فما استجابوا لألوف النداءات، في حين أن المعتصم استجاب لنداء امرأة زبطرية على الرغم من بعد المسافات وصعوبة المسير..

رُبَّ وامـعـتـصـمـاهُ انـطـلـقـتْ
مِـلء افـواهِ الـصـبـايـا الـيُـتَـمِ
لامـسـت أسـمـاعَـهـم.. لـكـنّـهـا
لـم تـلامـسْ نـخـوة المـعـتـصـمِ

فالقضية عند شاعرنا إذن تتخلص في نفوس ماتت نخوتها فما تسمع أو ناظريه..

لا تحـسـبـيـنـي سـالـيًـا إن تـلـمـحـي
فـي نـاظـري هـذا الـذهـولَ الـمُـبـهـمـا

إن تهتكي سِرَّ السَّرابِ وجدتهُ

حلم الرمالِ الهاجعاتِ على الظَّما

وفي قصيدته البلبل نرى أنه قد استطاع أن ينفذ إلى أعماق ذلك البلبل الذي «لا ينسل في قفص» فـ:

أبَى عليهِ الكِبرُ أن يورث الـ

أفراخَ ذُلَّ القيدِ من بعدهِ

والذي:

أسقمهُ العيش على وِفرهِ

لما رآه ليس من كدِّهِ

إن كثيرًا من الطيور تتكاثر في الأقفاص لكن البلبل يأبى وفرة العيش إذا لم يتعب بتحصيلها.

وشاعرنا عمر أدرى بأن الداء إذا استعصى فلابد من المبضع، وهكذا النفس كما قال البصيريك

والنفس كالطفل إن تُهمِلْهُ شبَّ على

حُبِّ الرضاعِ، وإن تفطمْهُ ينفَطم

ويقول عمر:

درنُ النفسِ ليس يُمحى إذا لم

تجرِ فيه مباضِعُ الحكماءِ

وإذا الحلمُ لم تجدْ فيه بِنا

ءً فأكرمْ بالسيفِ من بناءِ

أما في قصيدته «حواء» فقد سافرنا معه إلى أعماق حواء.. ورأينا الحقيقة التي كان عمر ترجمانها، وكانت ترجمتها على هذا النحو الذي جاء على لسانها:

غـــابَ ولـــم يـرجـع فـيـالـيـتـني
أعـطـيـتـهُ بـعـضَ أمـانـي الحـيـاةْ
يـالـيـتـنـي أطـبـقـتُ أجـفـانـهُ
قـبـل الـرُّؤى بـالـقُـبْـلـةِ المشـتـهـاة
أشـعـر بـالـوحـشـةِ مـن بـعـدهِ
ولـم يـكـن لـي فـيـهِ مـن أمـنـيـاتْ
كـم مـرَّ بـي والـشـوق يـزري بـهِ
ولـم يـجـدْ مـنـي إلـيـه الـتـفـاتْ
مـا لـي إذا مـا زارنـي طـيـفـهُ
أمـسـحُ مـن أجـفـانـي الـدَّامـعـاتْ
لـيـس سـواهُ بـين أتـرابـهِ
كـان يـرى أنّـي أحـلـى فـتـاةْ

ما رأيك قارئي إن كان قدم لهذه القصيدة بهذه الكلمات؟

«لم تبكه لأنه مات»، أوما يكون عمر ترجمان أعماق تلك الفتاة ولسانها الصادق الأمين فيما كان عنه يبين.

هذه اللمسات السريعة لبعض ما في شعره لا تعني في أي حال الإحاطة بما أولاه هذا الشاعر من اهتمام بالنفس الإنسانية.

فأنت حينما تقرأ شعره تجد أنه في الكثير منه لا يخرج عن الالتزام بالنفس وتحليلها، وإظهار ما خبأتهُ عنا، لكنها لم تستطع أن تخبئه عنه..

وليس القارئ بمحتاج إلى كثير من الجهد، أو البحث حتى يتبين مدى اهتمام عمر بهذا الجانب الحي والهام في شعره.

كما أنه ليس من السهولة على القارئ وهو يقرأ أية قصيدة لعمر أن يخرج من دائرة التأثير النفسي والإعجاب به فتراه سرعان ما ينجذب إليها سعيدًا مرتاحًا.

ولا أدل على ذلك من قصائده مع المتنبي «شاعر وشاعر» ومع «المعري» و«أخرس»، و«لوعة»، و«مصرع فنان»، ومسرحيته «نحن والسلطان» التي سمعتها منه ولم ينشرها.

وليس ذكر عناوين هذه القصائد التي هي من هذا النوع هي الوحيدة في هذا المجال.. فكما ذكرنا إنه يعتمد جانب التحليل النفسي، ولا يخفى ما لهذا الجانب من تأثير هو غاية جميلة من غايات الشعر الجميلة الأساسية.

أما في مجال الحكمة.. فقد كانت حكمة عمر أو إن شئت القول: كان عمر في حكمته قريبًا إلى النفس، فقدمها بشكل خفيف على النفس التي تميل وترغب في الحكمة في تلك القوالب الخاصة التي صبها بها عمر بدبلوماسيّة ولباقة، وكأن النفس وعاؤها.

لستَ تستطيع أن تكون إلهًا
فإن استطعتَ فلتكنْ إنسانا

☆☆☆☆

تقضي الرجولةُ أن نمُدّ جسومنا
جسرًا، فقل لرفاقِنا أن يعبروا

وما أشد كبرياء صهوة المجد التي باحت بسرِّها لشاعرنا لينقله إلينا حكمةً هادئة.

صهوةُ المجدِ ما امتطاها جبانٌ
كلُّ نجمٍ عُشّاقهُ أندادهُ

وإذا كان الجهل بمكنوناتِ نفوس من يعيش معهم الإنسان أشقى أنواع الجهل، لما يسببه من مرارة وأسى متجدد، فإننا نتبين على ضوء ما قدمه لنا هذا الشاعر في هذا المجال ما يسهل لنا أمر المعايشة معه، ويختصر لنا الزمن بعد أن علمنا أسرار تلك المكنونات العميقة الخاصة التي قرأناها في شعره، مضافًا إلى هذا كله لذة الاكتشاف، وروعة الوصول ومتعة المعرفة، ويسر المعايشة، وحلاوة التفاعل، إذ:

لا تطيقُ الحديثَ عن رقّةِ الجد
ولِ أذنُ المشرَّدِ الظمآنِ

فالمشرد الظمآن حاجته إلى ماء الجدول، لا إلى صوته مهما كان ناعمًا ولطيفًا.

****

عمر في تعامله مع اللغة

إن اللغة مثلها مثل الهواء.. ملكٌ لكلِّ الناس، لا يحدُّ ملكيتها حد، ولا تقتصر على إنسان دون سواه.

إلا أن اللغة قد تدل على صاحبها فيما إذا استطاع أن يفرض سيطرته في استعمالها، وأن يتحكم في تصريفها بطريقته الخاصة فتنتقل بعدها اللغة من عموميتها إلى خاصيته.

وما أظن مكابرًا مهما بلغ به حد الإنكار إلا ونراه يقرر بتميز لغة القرآن حتى ولو كان جاهلًا بالقرآن.. أو منكرًا له ككلام إلهي منزل.

وكما استطاع الإنسان أن يتصرف ويتحكم في الهواء ويصرفه إلى مصالحه ساعة يشاء، وكيف يشاء باستخدامه العقل والعلم، كذلك فقد استطاع كثير من الأدباء والشعراء أن يتصرفوا باللغة تصرفًا خاصًّا بحيث نجد أنهم قد تركوا بصماتهم ظاهرة وواضحة في إنتاجهم، والنقاد والقراء يستطيعون أن يميزوا بين شاعر وشاعر، وبين كاتب وكاتب بمجرد القراءة ولو كانت قراءته لمقاطع أو أبيات قليلة.

فأسلوب الجاحظ وديباجة البحتري، وبلاغة أبي تمام، ورقة المنفلوطي دليل قاطع على تمكن هؤلاء من تلوين كتاباتهم بألوان خاصة جعلتها الدليل على صاحبها.

وقارئ شعر عمر أبوريشة لا يطول به الوقت حتى يشعر أن لهذا لشاعر لغته الخاصة، وأسلوبه المتميز الذي يكتب به شعره، فإذا بشعره متميز واضح السمات،

فهو بالإضافة إلى دقة التصوير التي هي ميزته الأساسية في شعره، تجد له كثيرًا من الجمل أو التراكيب التي تدلك عليه، ولا يلبث القارئ أن يتعرف إلى شعر عمر من خلال هذا التمكن الخاص في لغته، الأمر الذي يقود بالضرورة والدليل القاطع على عمر ولغة عمر، فهناك - كما قلنا - جمل وتراكيب تفرد باستعمالها فأعطت شعره هذا الميزة.. وهذه الخاصية، فكانت خطى أقدام ثابتة على مسيرته وأثر الأقدام يدل على المسير، خذ منها مثلًا:

غيهب الذل وذل الغيهب، عزة الإذعان، بدرية الخفقان، جسر الدموع، طيوف الألم، حفيف أشباح الونى، رماد المنى، مجمر الزمن الأزور، عصاب الذهول، انفلات العبير، ذيل النسيان، مخنوقة البوح، مجلى تهاويلنا، راحة الصحراء، خطى الطيف، مقلتي نعمائه، أذن المهابة الصماء. وليس هذا حصر لكل ما في شعره من تراكيب وألفاظ.. إنما هو قليل من كثير. وهذا في مجال التراكيب اللفظية، أما موضوعاته فإنها لتدل عليه أيضًا، بالإضافة إلى فنيته التي تؤكد على شاعريته، وخواتيم قصائده التي تهتف مشيرة إليه، وليست بأقل من هذا كله - كما ذكرنا - ميزة التصوير (العمرية).

ومع انصراف شاعرنا إلى إعمال الفكر في الكثير من شعره إلا أنه لم يهمل جانب الشعر، فقد جمع الفكر إلى الشعر باتساق فني جمالي، فلا الفكر طاغيًا عنده على جمال الشعر، ولا جمال الشعر يفقد جلاله. وخير دليل على ما ذهبنا إليه قصيدته «مع المعري». فلقد استطاع أن يظل محافظًا على توازن جناحي تلك القصيدة الملحمية الرائعة، واللذين ظل يحلق بهما ويحلق حتى بلغ المكان الذي أراد.

ولئن كانت الفكرة عند عمر تطغى على جانب الشعر أحيانًا إلا أن شفيعه في ذلك هو الوليد الجديد الذي يتركه بين يدي قرائه، ولقد كنت أتمنى لو أنا شاعرنا عمر أعاد النظر كعادته في مثل تلك التراكيب أو الأبيات التي طغى فيها الفكر،

أو الصورة على جمالية اللغة وسحرها، ولئن كان عمر يوم ولادة تلك «المولودات الجديدة» مشغولًا بما تقتضي «ضرورات الولادة» إلا أنه لم يعد بعد استقرارها في شغل عنها منها:

انــظــري الــنــعــش كــيــف قــد
لــبــس الــــورس وائــتــزر

ولو أنه قال مثلًا بدلًا من «كيف قد» «إنه» أو «مذهلًا» لكان في اعتقادي خلص شعره وخلصني خلص من هذا الإرباك.

فمع إعجابي في الشطر الثاني إلا أنني ظللت مشغولًا عن جماله بما أريك أذني في الشطر الأول.

ومثل هذا قوله أيضًا في رثاء حافظ إبراهيم يرحمهما الله:

شــاعــرُ الــنــيــلِ قــد ثــوى
وبــقــي ذكــرُه الــعــطِــرْ

فهذه الـ «بقي» لم تملك كغيرها المفتاح السحري الذي تلج به إلى أعماق أُذني، وليته استبدلها بقوله «تاركًا» لكان أسلس وأطوع.

وقريب من هذا القول في قصيدته «مع المعري» هذا التأخير لفعل «أوهى» فاختلت موسيقى البيت مع أنه حافظ على سلامة وزنه.

وبــقــايــا أشــبــاحــهــا مــن رؤى المحْـ
ـمــومِ أوهــى تمــاســكًــا واقــتــرانــا

هذا البيت إذا ما قارنته أذني مع بقية أبيات القصيدة أجد لها العذر إذا هي طالبت هذا البيت بالتريث والاستئذان قبل أن تأذن له بأن يلج إلى أعماقها.

ولنستمع الآن إلى مارون عبود يخاطب شاعرنا في كتابه «مجددون ومُجترّون» ص ٢٠٩.

«إن في ديوانك الرائع هنات هينات، كان في الاستطاعة تهذيبها، أو إبدالها لو لم تتعجل، وهب أنك كببت كنانتك ولم تجد عودًا أصلب، فالاستغناء عنها كان أولى».

ويُعدّد مارون عبود لعمر تلك «الهنات الهينات» ونحن وإن اتفقنا مع عبود فيما ذهب إليه في بعضها، إلا أن لنا من بعضها موقفًا آخر، منها قول عمر في قصيدة «مع المعري».

فتعالَتْ صيحاتُهُ الحُمرُ تهدي
لو أصابت من حولها آذانا

يقول مارون عبود في الصفحة ٢٠٨ من كتابه المذكور:

«إن هذه الصيحات الحمر لا تلائم شاعر الفلاسفة، من كان أكله العدس، وحلاوته التين»، ونحن نقول: «إن جانب الإلحاح وعمق النداء وحرارته من أبي العلاء في تلك الصيحات هو شفيع عمر في احمرار صيحات المعري، وليس ما قاله عبود عن المعري «ما عرفت من الألوان إلا الأحمر» ولكل ما يرى.

أما الشاعر أحمد الجندي فيقول:

«ويؤخذ على عمر، أو يأخذ عليه اللغويون بصورة خاصة أنه لا يكلف نفسه عناء البحث عن الكلمات التي تمر في شعره فيما إذا هو شك بصحتها، وسادتنا اللغويون لا يعذرون الشاعر إذا هو خَطَأٌ يمسُّهم ولو حلق في السماء» (كتاب شعراء سورية ص ١٢٦).

وأما الدكتور شوقي ضيف فيقول عن لغة شاعرنا في كتابه دراسات في الشعر العربي المعاصر ص ٢٤٤.

«ومن الغريب حقًا مع هذه السعة في التصوير أن اللفظة قلما يسقط عنده، فهو ينظم في لغة رصينة جزلى، وقد ترق فتعذب، ولكنها لا تسف ولا تسقط».

ومهما يكن من أمر فإن لعمر أسلوبه الذي يدل عليه، وتصويره الذي يؤكد قدرته فيه على الإبداع والتميز، ولغته التي تهتف: «هذا هو عمر أبوريشة، وتلك هي لغته»، وكم كنت أتمنى مرة ثانية أن يكون قد أعاد النظر في بعض الهنات الهينات وغير الهينات مما طغى به الفكر على الشعر كما بينا، ولئن كانت صغيرة عند غيره فهي كبيرة عنده لما تميزت به لغته من قدرات كما رأينا، إلا أن هناك بعض التجاوزات التي لم نذكرها، والتي استغرب كيف أذن لها أو تغافل عن وجودها في شعره الرائق العذب، فلم تملك كغيرها القبول لدى عشاق شعره، مما أجاد به وأبدعه فقد سكن ما لا يجوز تسكينه مثل قوله:

«قبلاتك» بتسكين الباء.. ومثلها «عبق»، وهي «عبق»، وماذا لو استعمل كلمة «عطر» وابتعد عن هذا التسكين، ومثلها ما أحسب أنه ركاكة في قوله: «وأطفتها العيون الكحيلة» ومثلها «أبك الوهب» ومن هذا القبيل قوله: «وانطفت» فصحيحها «فانطفأت» ومثلها أيضًا تسكين الدال في كلمة «بدوي» في حين أنه استعمل هذه اللفظة استعمالًا صحيحًا في قصيدة «هكذا»، ومثل هذا أحسب أنه أقل من القليل، وللحقيقة فإن معظم ما ذكر في هذا المجال هو مما أغفله فيما نشره مؤخرًا وهو غير نادم على عدم نشره، وهذا ما يجعل دراسته عملًا غير متكامل كما ينبغي له، وكما يجب علينا لأن ذلك سيكون أمرًا غير ميسور ولا دقيق، فليعذرني وليعذر كل دارس لشعره وسيرته عما أغفله وهو منه على أية حال، فكان كما قال النقاد القدامى إنه «من عبيد الشعر» الذين يملكهم شعرهم، وأحسب أنه ليس بريئًا من هذه التهمة وربما عدها فضيلة.

****

عمر في أوزانه وقوافيه

عمر الثقافة، عمر الفكرة، عمر الصورة، عمر المعنى، والمبنى، عمر الأسلوب، عمر السياسة، كما عرفناه في كل عمل كلاً لم يتجزأ، لقد ظلت مواكب إبداعه في دنياه المنفردة تسير معه، أحسن إكرامها فأحسنت خدمته، وكانت رهن إشارته وطوع بنانه.

وقد عشنا لحظات صفاء ممتعة مع هذا الوفاء المتبادل المطلق بينه وبينها، ومن أجمل ما كان وفاؤها له في أوزانه وقوافيه كما سنرى هنا بعد أن رأينا بعضًا من ذلك في بحث الصورة.

فلقد تخير لكل فكرة وعاءها الجميل، فعاشت فيه مطمئنة، وكأنها الحوريات في مقصورات الخلود.

إن شيئًا ما يتراوح بين السحر والعطر مُخبّأ في قوافيه، وبين السحر والعطر تكمن روح الخمر غير المسكرة.

كثيرًا ما استعمل عمر الأبحر القصيرة وفي هذا ما فيه من الإعجاز الذي لو لم تواكبه القدرة الكاملة لكان عجزًا، لكن عمر قد تمكن دائمًا من أن يصوغ المعنى كاملًا، والفكرة تامة بأقل الكلمات، وأكثرها قدرة على الوفاء.

يقول مارون عبود في هذا المجال: «والشاعر على طوله المفرط، وامتداد نفسه، يؤثر الأوزان القصيرة المرقصة حتى لكأن أبا نواس شاعره المختار، فقلما

تمخر في ديوانه بحور الشعر كبحر الأطلنتيك، بل تجدها كلها على طراز بحرنا المتوسط، ضاحكة، مطمئنة، صاخبة، بمقدار ما في هذا البحر من عتو وصخب» (مجددون ومجترون) ص ٢٠٥.

في الوطنيات أخذ الأبحر التي تجري على الألسن جريًا.. وانتقى القوافي المزمجرة، والمرنة الغاضبة أحيانًا أخرى:

رُبَّ وامعتصماهُ انطلقتْ
مِلءَ أفواهِ الصبايا اليُتمِ
لامستْ اسماعهم.. لكنها
لم تلامس نخوةَ المعتصم

أرأيت إلى هذا الوزن كيف جرى على اللسان باضطراده وتهاديه!!

ولننتقل معًا قارئي إلى القافية المرنة «النون المجرورة» التي تتجلى فيها عبقريته في اختيار الوزن الخفيف الذي ظل متماسكًا رغم ما حمله عمر من كلمات نارية، ولنستمع إليه وهو يهتف:

قُمْ تلفَّتْ ترَ الجنودَ كما كا
نُوا منارَ الإباءِ والعنفوانِ
ما تخلَّوْا عن الجهاد ولكن
قادَهُم كلُّ خائنٍ وجبانِ

لكأن هذا الروي المرن صوتُ أجراس مُنذرة.. في حين أنه استعمل هذا الروي نفسه وهذا الوزن أيضًا في الرثاء فجاء رثاؤه كما هو متوقع ومطلوب من عمر هادئًا حزينًا، وكان ذلك في رثاء جميل مراد وغيره.

أيمن منك الربيعُ يا ناسجًا من
طِيب دنياه افجعَ الأكفانِ

الزغاريدُ في كوى الخلدِ تهمي

في سماء النجوم سيل تهاني

أَوَراءَ الردى يُقام لك العر

سُ غريبَ الأوتارِ والألحان

قم تكلّم فإنّ صمتكَ دمعٌ

في جفوني، وعقدةٌ في لساني

يا حبيبي.. سالت حناجر تِحنا

نِي فهل أنت سامعٌ تحناني؟!

وكذلك كان موفقًا في اختياره البحر البسيط والقافية المزمجرة في «بنات الشاعر، ومرابع الخلد».

خافوا على العهرِ أن يُمحى فكان لهم

على الرباطِ لدعم العهر مُؤتمرُ

على أرائكهم - سبحان خالقهم -

عاشوا وما شعروا، وماتوا وما قبروا

إن خوطِبوا كذبوا، أو طولبوا غضبوا

أو حوربوا هربوا، أو صاحبوا غدروا

وفي قصيدته «جبل» والجبل - كما نعلم - منتصب شامخ اختار البحر الطويل، فأحسسنا معه أننا نصعد الجبل خطوة خطوة بتقطيع تفعيلاته:

معاذ خلال الكبر ما كنتُ حاقدًا

ولا غاضبًا إن عاب مسرايَ عائبُ

إن صعود الجبل يحتاج إلى نفس طويل، وحركات بطيئة حينًا، وهامة حينًا آخر فاختار له البحر الطويل، والكلمات القصار وكأنها الخطوات التي تعودها

محبو صعود الجبال، ولئن اقتضى صعود الجبل الوثوب حينًا فإنه جعلنا نثب معه وثوبًا، انظر إلى هذا التنقل القصير البطيء في الشطر الأول، والوثبات السريعة في الشطر الثاني:

فكم جبلٍ يغفو على النجم خدُّهُ

وأذيالُه للسّائماتِ ملاعبُ

أوما هكذا يكون صعود الجبال، هكذا أفهمني هذان البيتان، كما أفهمني سواهما ما ذهبت إليه.

ولعمري لم أجد وزنًا وقافية تجلت فيهما عبقرية شاعرها كما تجلت عند هذا الشاعر، والقول هنا ليس في الأقليات، وقارئ ديوانه لا يمكن له أن يجد قافية غريبة أو غير مألوفه ومأنوسة كاستعمال الصاد والضاد والجيم والثاء والكاف مما يمكن القول معه: إن من ينظمون على هذا الروي إنما يريدون ما لم يرد عمر أن يكون في شعره.

ولو تليت قصيدته «مصرع الفنان» على كل ذي لسان لعلم من يصغون إليه ولسانهم لأدركوا من حسن انتقاء كلماته وروعة إلقائه شيئًا مما فيها من لوعة وحسرة.. ولشارك هؤلاء الشاعر إحساسه بالمأساة المروعة على رغم تباين اللسان.

وصدقوني أن مثل هذا قد حدث معي حينما قرأت قصيدة «طفلي» أمام الأدبية العالمية «فيسنا بارون» التي رشحت أكثر من مرة لنوال جائزة نوبل العالمية للآداب.

وأما تلك اللفتات أو إذا شئتم الوقفات القصيرة بين كل مقطع من القصيدة ومقطع، والتي تخللت مقاطع بعض القصائد لعلها من أكثر ما استطاع أن ينقل لنا عبقرية عمر في محافظته على إصغاء سامعيه، وشدهم إليه، وتفاعلهم معه، فلكي لا تؤثر عليهم لوافح اللوعة جعل لهم ذلك المتنفس بين كل مقطع ومقطع ليعود

السامع معه إلى متابعة الرحلة في مصرع الفنان كما فعل أيضًا في رثاء عشيقته الإنكليزية ورثاء حافظ إبراهيم، وغير ذلك مما تجلى به تفننه في هذا المجال، مع ملاحظة تنويع الروي واختصار بعض التفعيلات مما يعطي شيئًا من القدرة على المتابعة.

ولعله أشفق أيضًا على الكلمات والروي.. فأراد أن لا يجعلنا ننفر منها في حال استمرت القصيدة على طولها على روي واحد مع تسليمنا بروعة رويه أبدًا، وكأني به أراد لنا أيضًا ألا نحملها ما لا تطيق من القسوة بعد أن حملها شحنات عجيبة من الأحاسيس التي يتمها الثكل، وأرقها اليتم، وتلظت بنار الفجيعة.. فراح يتنقل من روي إلى آخر عبر محطات استراحة قصيرة في الرحلة المروعة - كما أشرنا - ورحلة الموت إلى أنامل الفنان، أو رحلة الفنان إلى الموت، ولن أختار منها شيئًا فسأثبتها في مختاراتي التالية ليعود إليها القارئ، فاجتزاء أبيات منها يشعرني بالإثم..

ومع هذه المقدرة العمرية على حسن استخدام الروي والوزن إلا أن هناك بعض التجاوزات البسيطة الهينة التي حسب أنها جوازات وهي معدودة في أوزانه، ومع أن بعضها قد يكون كذلك فإنني كنت تمنيت ألا أجدها في شعره ومنها:

أُمَّتي كم غُصَّةٍ دامية

خنقت نجوى «عُلاكِ» في فمي

فهذه الكسرة في «علاكِ» التي كلّفها شاعرنا لتقوم له مقام الياء لم تكن وفية له من الناحية الموسيقية، ومثلها هذه الكسرة أيضًا في «كساك»:

زادَك الموتُ فوق حُسنكِ حسنًا

و«كساكِ» ببردةٍ من جلالِ

فاستقامة الوزن في هاتين «الكافين» تقتضي وجود الياء - كما هو معلوم - ليحافظ هذان البحران على سرحة موسيقاهما، وأختهما في ذلك هذه الفتحة في «علام».

وعلامَ تثقلُ نعشك خيلٌ
تتراءى دجنةً ظلماءَ

ولو قال مثلًا: «ليتها لم».. لربما كان ما يلائم حالته النفسية آنذاك، فهذه الوقفة على المتحرك التي ما عهدناها في موسيقى الشعر ولا في سلامة تفعيلاته، ومثيلات هذه التجاوزات قليلة اكتفينا منها بما ذكرناه.

ولعل في اجتهاده في «عروض» الخفيف وهي: فاعلاتن فجعلها فعلاتن أكثر من مرة وهذا ما يجعلنا نتمنى أن يكون قد حافظ على ما هي مألوفة عليه هذه التفعيلة الجميلة فعلاتن، لكن انصرافه الكلي إلى المعنى والفكرة كان أيضًا على حساب السرحة الموسيقية في هذا الوزن الخفيف اللطيف.

رُبَّ نزرٍ من الأسى «إخلاص»
وكثير من البُكا تعليلُ

ومثلها تحويل تفعيلة «متفاعلن» في البحر الكامل إلى «فاعلتن» أو «مفتعلن».

ومثلها تسكينه للسين في «بسْماتي» التي استعملها في مكان آخر: «بسَماتي»، ولعله أرادها وأمثالها صيدًا للباحثين عن الشغب أمثالي ممن يحرصون على سلامة العروض، وأخو هذا أيضًا تسكينه الراء في المقطع الأخير من قصيدته «أخرس»، إنه اجتهاد ما أظن أن غير عمر قد استعمله، إلا أن شفيعه عنده و عندي أنه قد شحن خاتمة قصيدته بشحنة عجيبة من التأثير النفسي، وأحسب أنه أيًّا كانت حركة هذه «الراء» فإنه ليستحيل عليها أن تشحن هذه الخاتمة العمرية بمثل ما شحنت به مع هذا التسكين.. فإن فيها الخاتمة المفاجئة، إلا أن هذا يظل تجاوزًا

لمألوف هذا الوزن الخفيف الرشيق، والقصيدة مثبتة فيما اخترته من روائعه، ومثل هذا الترفيل للبحر الخفيف جاء أيضًا في ضرب قصيدة «رجل» التي ختمها بقوله:

اعــفَ عنــي يــا ربِّ، بَــدِّد همومــي

فــلــقــد عِــشـــتُ مـــــرَّةً رجـــلا

☆☆☆☆

ويكفيه من هذا ما في ذلك من قوة حسن الخاتمة التي اشتهر بها عمر، وقد ورد عنده بيت من الخفيف بسبع تفعيلات مرتين بدلاً من ست كما هو في الأصل، منها قوله في قصيدته «خاتمة الحب»:

حكمةُ اللهِ هذه ملؤها الرأفه والعدل وكل الإنصاف في الأحكامِ

أمر آخر فإنه أجاز تحريك ساكن مفاعيلن فجاء بها مفاعلتن في بحر الهزج، وهذه غير مألوفة أيضًا عند العروضيين، وقد تكررت في قصيدة «في خندق» كما تكررت في مثيلاتها على هذا البحر، في حين أننا نجد له تطويرًا في تنوع القوافي، وجدة في التعامل مع الوزن فجاءنا محمودًا جميلًا لون به بعض قصائده الغنائية، فلم يكن متنافرًا مع السمع، بل قريبًا إلى النفس.. لوحدة تفعيلاته أو لترفيلها، ولا يفوت القارئ أنه يدركه في أمكنته كقصيدة «عودة الروح» و«خفاش» و«الخزان الأكبر» وغيرها.

أما في أوزانه الغنائية فقد شعرنا وكأنها خلقت على لسانه، ولتستقر مطمئنة في أوزانه.

ســيــري كــمــا شـــاء الــتَّــجــنِّــي

واشـــفــي غــلــيــلــكِ واطــمــئــنِّــي

مـــا أنـــتِ يـــا دنـــيـــا!! ومـــا

أبــقــيــتِ لـــلأحـــلام مـــنِّـــي!!

فتمازج الكلمات واتحادها في تفعيلاتها مع أداء المعنى جاء متناسبًا مع موسيقاها، وتناغم حروفها، ومثلها:

لِـــيَــــاتِ الحـــــبُّ ولــيـنـــقــلْ

حـــكـــايـــةَ حُـــبِّـــنـــا عـــنَّـــا

أحرف ناعمة، ناغمة، ووزن هادي جميل:

ألـــفـــيـــتـــهـــا ســـاهـــمـــةً

شـــــــــاردةً تـــــأمّـــــلا

طـــيـــفُ عـــلـــى أهـــدابِـــهـــا

كَـــــسَّـــــرهـــــا تـــنـــقـــلا

كلمات تصويرية، تعبيرية متحركة برشاقة وخفة وحسن إيقاع.

وتـــســـألُـــنـــي وأســـمـــعُـــهـــا

وأجـــــــرحُ وجـــــــه مـــــرآتـــي

وأحـــــمـــــلُ قـــــدسَ آلامـــي

وأُخْـــفِـــيـــهـــا بـــبـــسْـــمـــاتـــي

خلجات نفس عميقة.. أخرجتها الضرورة عن صمتها، فجاءت متقطعة.

قـــفـــي لا تـــخـــجـــلـــي مـــنِّـــي

فـــمـــا اشـــقـــاكِ أشـــقـــانـــي

تفاعل وانسجام:

لـــنـــا الحـــبُّ والـــكـــأس والمـــزْهَـــرُ

ولـــلـــنـــاسِ مـــنـــا الـــصّـــدى المـــســـكـــرُ

نغم متهادٍ.. كأنه الحياة.. خطوات الحياة.. صدى الحياة.

هـــنـــا فـــي مـــوســـم الـــوردِ

تـــلاقـــيـــنـــا بـــلا وعـــدِ

وســـرنـــا فـــي جـــلال الـصـمـ

ـــتِ فـــوق مـــنـــاكـــب الخُـــلـــدِ

نغم راقص رائع وهدوء عاشقين سارا في جلال الصمت في موسم الورد.

أمـــشـــي عـــلـــى رَسْـــلِـــي

فـــي مـــدرجِ الـــرّمـــلِ

حـــيـــرانَ أســـتـــقـــصـــي

دربـــي واســـتـــجـــلـــي

أنفاس متعب يجر خطاه على درب الحياة، على صدى همسات أنفاسه المتعبة في المسير على الرمل.

اســـتـــعـــرضُ أيـــامـــي فَـــأَرى

مـــا تـــخـــجـــلُ مـــنـــه أيّـــامـــي

فـــجـــفـــونـــي لا تـــعـــرف إلا

أحـــلامـــي تـــقـــتـــل أحـــلامـــي

انفتاح وانقباض مع الحياة في الوزن المتقابل المتضاد: فعلن.. فعلن..

غـــنّـــيـــتـــهـــا حـــتـــى غـــدتْ

فـــي مـــســـمـــعِ الـــدنـــيـــا أغـــانـــي

غنغنات مموسقة

وبـــقـــايـــا ذكـــريـــاتـــي تـــعـــبـــثْ

فـــهـــي لا تـــبـــكـــي ولا تـــبـــتـــسـمُ

تفعيلات متتالية، كتوالي أنفاس المتعبين.

عــــلـــى شـــفـــاهــــكِ بـــوحٌ

بــــصـــمـــتـــهِ يـــتـــلـــعـــثـــمُ

لا تُـــطـــلـــعـــيـــنـــي عـــلـــيـــهِ

إنــــي بمـــا فـــيـــه أعـــلـــمُ

استيقاظ على نقرتين موسيقيتين خفيفتين هادئتين.

لـــم أدرِ كـــيـــف تـــصـــدّى

لِـــيَ الـــنّـــعـــيـــمُ وولّـــى

لـــعـــلّـــهُ كــــان أشـــهـــى

مـــن أن يـــدومَ، وأحـــلـــى

☆☆☆☆

خشية وعزاء على إحساس خلجاتٍ وارتجافها.

لـــعـــوبٌ لـــو عـــرفـــنـــاهـــا

لمـــا كـــنّـــا ظـــلـــمـــنـــاهـــا

وهكذا تتوالى البحور الناطقة بما تحمله.

أريـــد أن أغـــفـــو وفـــي مـــسـمـعـي

مـــا يـــسـتـعـيـرُ الحـــبُّ مـــن حـبِّـنـا

☆☆☆☆

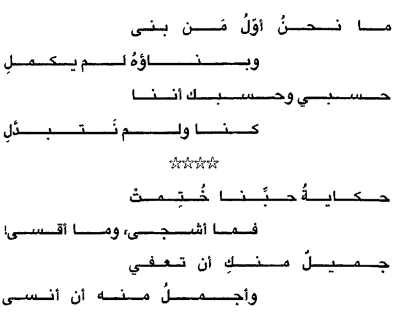
أومَـــــــأتِ إلـــــيَّ ولـــم

أســـــألْ أيــــن الـــتّـــســـيـــارْ

وتـــبـــعـــتـــك اســـتـــقـــصـــي الْـــ

ـــمـــنـــهـــل وأغـــــصُ أوارْ

تمازج عجيب بين الصورة واللفظ والمعنى والوزن ناهيك عن فعل (وأغص) وقد جاء كأنه غصة فعلاً.


ما نحنُ أوّلُ مَن بنى
وبناؤهُ لم يكملِ
حسبي وحسبك أننا
كنا ولم نَتبدِّلِ

☆☆☆☆

حكايةُ حبِّنا خُتِمتْ
فما أشجى، وما أقسى!
جميلٌ منكِ أن تعفي
وأجملُ منه أن أنسى

وحسبي ما اخترته لك قارئي، مما أرى فيه قدرة عمر على التعامل مع الأوزان القصيرة بمهارة فائقة، ومع البحور الهادرة في «المنبريات» كالخفيف والكامل والبسيط، ولنقف قليلًا عند هذا الرأي للأستاذ «مارون عبود» وهو يحدثنا عن موسيقى شاعرنا عمر، يقول:

«فبينما يكون الفكر سارحًا مارحًا على موسيقى (بحترية) حقًّا إذا برائدته العين تطل على واحات تلك الرسوم الرمزية فتصيح بالفكر المجد:

ثم يفاجئنا مارون بقوله: وقف.. «خفيف السير واتئد يا حادي» لنتابع معه الرحلة مستريحًا مستوعبًا ما سيقوله لك عن شاعره يقول:

«قلتُ موسيقى بُحتريّة وهاك التفصيل: «في شعر عمر ما في شعر الوليد من سياقٍ مطرد، ورنةِ إيقاعٍ، وتقسيم عباراتٍ، فتمشي القصيدة متزنة الخطى كأنها قطعةٌ من عسكر..» (مجددون ومجترون ص ٢٠٥).

«ونعم لقد أحسسنا المعنى من الموسيقى الذاتية للكلمات التي تخيرها هذا الفنان، وقد كان المعنى متكاملًا والفكرة واضحة، فلم نلمح أي أثر للكلفة،.. كما لم يكن في شعره للحشو مكان» (ص ٢٠٥). ونرى أن رأي عبود هنا ينطبق على ما وصل إليه مما أثبته عمر في ديوان «من عمر أبوريشة» في حين أننا نجد لشاعرنا وشاعره للحشو حضوره وبخاصة فيما لم يثبته مما «تنكر له» كما أتهم بذلك.

ولقد رأينا كيف أدت الكلمات دورها في رسم الصورة، كما فعلت في نقل المعنى.

ما رأيك أن نستعرض بعضًا منها:

أعد قراءة هذه الكلمة «تمطى» في هذا البيت وانظر إلى ما فيها من المد وكأنه حالة «المتمطي» حقًّا، وكذلك في «يهزها عضوًا فعضوًا».

أخــــذتْ تمـــطّـــي.. والــفــتــورُ
يـــهـــزُّهـــا عـــضـــوًا فَـــعُـــضْـــوَا

إن لفتور بتراخيه الذي جزأها عضوًا فعضوا ليسهل عليه هزها، أما أنا فقد أحسست المعنى من ألفاظه، ومن سياق البيت في القصيدة المتسقة المتكاملة بوحدتها العضوية؟!

وفي بيته المُعجز.

طَــلَــبَــتْ فــأعــطــى.. واشـــرَأبْـــ
ـــبَـــتْ فـــانـــحـــنـــى.. وقَـــسَـــتْ فَـــلانْ

أرأيت إلى هذه الكلمات كيف جاءت في مكانها وكأنها لم تخلق إلا لتعيش في هذا المكان، ولهذا المعنى الذي استخدمها شاعرك له، ثم إنك لتشعر أنك أمام قصة بكل حركاتها وما يتطلبه الوقوف والتأمل بين الكلمة وأختها، ثم الانتقال إلى كل مقطع من المقاطع الثلاثة التي تقتضي منك الوقوف لترسم الحركتين المتقابلتين.

وغـــطـــاؤهـــا المـــعـــطـــارُ يُـــزْ
لَـــقُ عـــن تـــرائـــبِـــهـــا ويُـــطـــوى

أوما أحسست الانزلاق.. وتصورت غطاءها كيف يطوى بقصد أو ربما بغير قصدٍ.

حسنا أعد القراءة، ثم اقرأ هذا المقطع من هذه القصيدة العجيبة من قصائده الخالدة «جان دارك».

نـــظـــرتْ إلـــى مـــرآتـــهـــا..
والـــشـــعـــرُ مـــضـــطـــربُ الـــضـــفـــائـــرْ
فَـــتَـــجَـــلْـــجَـــلَـــتْ خـــجـــلًا وغـــضـــ
ـــضَـــتْ بـــالـــشـــهـــيِّ مـــن الـــخـــواطـــرْ
وتـــنـــهَّـــدَتْ الـــمًـــا وأطـــ
ـــبـــقـــتِ الـــجـــفـــونَ عـــلـــى المحـــاجـــرْ

تجلجلت خجلًا.. تنهدت ألما.. أطبقت الجفون، تنهدت ألما.. حياة في كلمتين.

تجلجلت خجلًا.. صورة في كلمتين.

وأطبقت الجفون على المحاجر.. حلم الحياة في كلمات.

أما في ملامحه فإنك تعيش التكامل الفني في النفس الملحمي، وسترى فيما اخترته لك منها ما يجعلك تطمئن إلى ما ذهبت إليه، ولولا الشعور بالذنب معها لاخترت لك منها ما يناسب المقام هنا، لكنني آثرت أدخارها لك كاملة فمنك العذر، ولك ما ستستمتع به إن شاء الله.

ولئن كانت الموسيقى أولى الفنون السامية الرفيعة كونها أقرب إلى النفس، ولئن كان الغناء يلي الموسيقى في قربه من النفس أيضًا، فإنه يأتي دور الصورة لتأتلف معهما ليكون الشعر الحقُّ جامعها معًا.

أحسب أننا وجدنا في شعر عمر أن هذه الفنون الرفيعة السامية مجتمعة متآنفة ومتمازجة.. فأشجتنا موسيقاه، وأطربتنا غنائيته.. وانطلق شعورنا، وتاه خيالنا يتنقل في عوالم تصويره الخاصة الواسعة الرحاب، عوالم «الشعر» ولا أقول غير الشعر، فكان بذلك عمر أبوريشة رد الأمة العربية على منكري فضل هذه الأمة وإعجاز لغتها، وقدرتها على الصدق في التعبير والدقة في التصوير فكان شعره حجة الشعر العربي البالغة على منكري جمالية الشعر العربي وجاحدي أهمية عروضه ورويه وقيمتهما.

لقد كانت قوافيه البرهان على أن للقافية جمالها مهما حاول إنكار جمالها أعداء الجمال الفطري في طبيعة شعرنا العربي، أما أوزانه وأوزان أمثاله من المبدعين فكانت دليل الوزن على أنه هو الأكثر جريانًا على اللسان، وأشد علوقًا في الذاكرة.. وأسهل في الحفظ وأوقع في النفس وأشد تأثيرًا فيها.

أما من لم يستطيعوا تحقيق هذا في شعرهم فهم حجة على أنفسهم وليست على لغتنا وأوزانها الخالدة.

وبالعودة إلى أهم البحور التي أبحر عليها شاعرنا فقد كانت البحر الخفيف في عدد أبياته والثاني في استعماله، ولقد تعدد تعامله مع روي النون في أهم قصائده كما تكررت بعض مقاطع قصائده الطوال عليه أيضًا، ومنها «وانتفض العز» و«خالد» و«فراق»، فهو يبدأ كلًّا منها بقوله:

رُدّ لي ما استردّ مني زماني
وأراني ما الحلمُ كان أراني

☆☆☆☆

لا تنامي يا راويات الزمانِ
فهو لولاكِ موجةٌ من دخانِ

☆☆☆☆

كـيـف تـطـوي بُـــرْدَ الـصِّـبـا الـريـانِ

ولـــيـــالـــيـــكَ أكـــــؤسٌ وأغـــانـــي!

وفيما نجد أن هذا البحر أهم ما يميز بحوره الشعرية نجد في بعض الشعراء يتجنبون الإبحار عليه، ونجد أيضًا أن لعمر اجتهادًا في روي هذا البحر إذ (رفله) كما مر معنا في قصيدتيه «أخرس» و«رجل» فيقول في نهايتهما:

صـعّـدِ الـطـرفَ فـي الـسـمـا مُـزبـدَ الشد

قِ، وأبـــدى مـــا لـــسـتُ أدري وســـاز

☆☆☆☆

أعـــفُ عـنـــي يـــــاربِّ.. بَـــدِّد هـمـومـي

فـــلـــقـــدْ عِـــشـــتُ مـــــــرَّةً رجـــلا

لقد كانت طواعية هذا البحر الخفيف له ظاهرة جلية - كما أسلفت - رغم اختلاف المناسبات وتضادها أحيانًا، إذ أحسن التعامل معه فأحسن هذا البحر خدمته فجعل من يعرض عن هذا البحر الخفيف في الأهمية عنده البحر السريع بعدد قصائده ومقطوعاته وهذا البحر أوشك أن يكون مهملًا عند كثير من الشعراء، وقليلًا ما تعامل عمر مع البحر الطويل، وكان تعامله مع البحر الكامل ومرفله في قصائد كثيرة، وكذلك البحر البسيط الذي جاءت روائعه ومطولاته على هذا البحر، وكرر استعمال رويه أيضًا فكان من مطالعه عليه:

مـرابـعَ الـخـلـدِ أضـنَـى جـفـنـيَ الـسّـهـرُ

وصـاحـبـاي عـلـيـهِ: الـكـأسُ والـوتـرُ

☆☆☆☆

نِـدّيـك الـسـمـحُ لـم يُـخـنـق لـه وتـرُ

ولـو يَـغِـبْ عـن حـواشـي لـيـلـهِ سُـمَّـرُ

☆☆☆☆

تُصغينَ؟.. أغنيتي رفات أجنحةٍ
ما مسَّها في ليالي شوقهِ وترُ

في حين أنني لم أجد له بيتًا واحدًا على البحر المنسرح ولا على المضارع، كما أنه لم يحجم عن الإبحار على المجتث، إبحارًا جد موفق، وكان أكثرها ما جاءت قصائده الإبداعية على الأبحر الغنائية القصيرة - كما بينت سابقًا - وأحسب أن اطلاعه على شعراء الأندلس وغنائيتهم أغرى به فأخذ يوقع على ما وقعوا عليه، فكانت إبداعياته القصار في بداياته إضافة إلى تأثره بالموشحات الصوفية التي حفظها منذ نعومة أظفاره وظل يرددها مغنيًا مرتلًا إيقاعاتها القصيرة، وقد كثر استعماله لهذه الأبحر القصيرة عند نضج شاعريته وتنوع ثقافته في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته فهي أخصب وأهم شعره الإبداعي وأكثره..

وخلاصة القول: إن عمر كان موفقًا في تعامله مع الوزن والقافية تعاملًا محمودًا مشكورًا، ولست أشك في أن المنصفين من النقاد هم الذين سيقدرون شعر هذا الشاعر، وسيكون لهم الحكم الفيصل الذي سيقدمونه زادًا للأجيال القادمة التي ستكون مطمئنة إلى روعة لغتها، وأوزان شعرها وخلوده، والتي سيكون أول ما سيصل إلى النجباء المخلصين لها، والفخورين بشعر «عمر»

****

عمر والنقد

لعل من أبرز مسؤوليات الناقد، هي إظهار العيوب وبيان المحاسن، وفرز الغث عن السمين، وبالتالي تحديد قيمة العمل وأبعاده.

ومن أجل أن يؤدي الناقد واجبه، على الوجه الأمثل، كان عليه أن يتزود بثقافة عميقة، وإطلاع واسع شامل في قضايا الأدب وفنونه، وأن يتسلح بالموضوعية والنزاهة، وبقدر ما تتحقق هذه الشروط، فإن عمل الناقد يأتي بناءً ومفيدًا، فلا غرابة على ضوء هذا الأساس، أن ننفي صفة النقد عن غالبية ما كتب في هذا المجال وبخاصة في صحافتنا باعتبارها الأكثر انتشارًا، إذ لا يتعدى نقدها حدود إضاءة على المحاسن وتذويقها، وحقنها بمفسدات المدائح والمبالغة في الثناء إلى درجة إغفال القارئ وذهنيته، هذا إن وجد قراء لمثل هذا النوع من النقد الدعي الذي ابتلينا به.

كثيرًا ما تكون الصداقة أو غيرها من الارتباطات الأخرى هي الدافع، لمثل هذا الذي يعد إساءة إلى الأديب قبل الإساءة إلى إنتاجه، ومن المؤلم أن تطالعنا بعض الصحف العربية وقد نشرت مواد نقدية لا تغدو أن تكون عملية تسفيه وسباب ولا صلة لها بالعمل النقدي، وما خرج عن هذا الاعتبار يأتي في معظم الحالات هشًّا سطحيًّا، لافتقار من احترفوا هذا النقد وسيلة للوصول إلى المكاسب المتنوعة، وتحقيق المغانم السريعة ليس لها مؤهلات الناقد فكرًا، وثقافة، ومعرفة، ودقة وفطنة، ورؤية موضوعية لا يزعزع ثبات أخلاقيتها عرض زائل، أو دافع رخيص.

ومن المفيد، أن نحدد مع شيخ النقاد العرب - كما يسمونه - الأستاذ مارون عبود: أن النقد لا يجر على صاحبه إلا المتاعب والعداوات، ونحن نؤيد هذا الرأي ونرجعه إلى عدم أهلية الناقد وبالتالي عدم إنصافه، ومن الممكن أن يكون لهذا العامل أثره في قلة عدد النقاد، الذين لا نزال بحاجة إلى نقدهم السليم المنصف، هذا النقد الذي ينير دروب الأدب، ويرصدها بعيون يقظة واعية، فيقي بذلك الأدب والأدباء من العثرات، ويرد عن دياره الدخلاء والأدعياء.

من هنا، نتمكن من القول، إن النقد لم يؤثر، أو لم يؤد دوره في حياة الشاعر «عمر أبوريشة» الأدبية، ويبدو أن عمر قد أفاد كثيرًا من الموسوعة العالمية النادرة THE BEBGLOT، التي تتصدر مكتبته العامرة.

هذه الموسوعة، تتناول بالنقد كل ما أنتجه الفكر في القرن التاسع عشر، ولم تتوفر في ذلك العهد ربما لأحد من الأدباء العرب.

ومن هنا، أصبحت مهمة من يدرس عمر، وينقد أعماله مهمة عسيرة وشاقة، لا سيما أنه لم ينشر كل شعره بعد، ومن مستلزمات الدراسة النقدية الوافية أن يتوفر للدارس كل ما نظم الشاعر أو كتب، ليكون عمله كاملًا، لا خلل فيه، ولا ثغرات ولا قصور، يضاف إلى هذا أن لعمر طريقته الخاصة بتقديم شعره للقراء كما وكيفًا، فقد حجب الكثير من شعره فيما نشر من شعره، وكأنه قد تنكر له وغير وبدل فيما سمح بنشره.

وأعتقد أن سبب عدم اهتمامه بالنقد العربي هو بعده عن الساحة لعقدين متتاليين، ولعل ذلك يرجع أيضًا إلى ما اكتسبه عمر من ثقافته العالمية، وتجاربه الغنية التي لم يكن للنقاد العرب أثر في تحصيلها، فلم يتح لهم أن يلعبوا دورهم في حياته الأدبية، كما أورد ذلك بنفسه في حديثه لمجلة الأسبوع العربي وغيرها،

ولكن من كتبوا عن عمر قد وجهوا اهتمامهم إلى ما شغلهم به من روائعه، فقد رأينا كيف كانت الآراء تجمع على قدرات عمر في الخلق والإبداع، ومن يتتبع ما قيل عن عمر وشعره، يجد أنه لا يعدو أن يكون مجرد إشارات بسيطة تتناول بعض الجمل والتراكيب أو الكلمات.. وهذه، ليس من الجائز أن نعاملها على أنها نقد أفاد الشاعر وأغناه، في حين يمكن أن تكون من العوامل التي جعلته يحجب عنا الكثير من شعره، وبخاصة القديم منه.

لقد تجاوز عمر في تجديده أطر المدارس النقدية، ومقاسات النظريات، وترك لإبداعه صياغة روائعه الخالدة، فكان في هذا الإبداع عطاء ليس كأي عطاء، ولأن النبوغ الأصيل لا يرضى بغير صعود القمم الشامخة، ولا يتربع إلا فوق ذراها، فلقد رأيناه كثير العناية والرعاية لشعره، يقرأه كثيرًا، ويعود إليه بين الحين والآخر يستبدل لفظة بلفظة، وربما تجاوز ذلك إلى حذف أشطر أو أبيات.. فالكلمة مسؤولة عنده، وهو المسؤول المباشر أمام إبداعه ومجال فخره بها واعتزازه بدقتها وروعتها.

وإذا كانت الثقافة أم النقد، فإن ثقافة عمر قد أهلته ليقدم النقد في مسيرته، وفي جميع ما قرأنا عن كتابات عن شعر عمر نجد الإجماع على الثناء عليه أو إذا شئت «الانبهار» بما شغل الناس به.

****

عمر والمديح

لم يزل المديح والثناء على الجميل وشكره قائمًا بين الناس مهما أنكر أهميته المتنكرون الذين يرون أنه مثلبة جملة وتفصيلاً، وشكر الناس على جميلهم عمل إنساني مبرور يعزز في الناس المحبة، ويزيد من فعل الخيرات، ولأهميته فقد جعل رسول الله ﷺ شكر الناس من شكر الله فقال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

لكن علينا أن نفرق بين الشكر على الجميل، وبين تملق الطامعين الذين غايتهم تبرر وسيلتهم، وإن كانت على حساب تجاوز الدين، أو العرف أو كان مخلًّا للقيم كما رأينا ذلك عند الكثير من الشعراء الذين سخروا موهبتهم الإلهية للتكسب الرخيص، وأرجو ألا آلام إذا لم استثن المتنبي الذي جعل جل بديع شعره في مدح نفسه حينما كان يمدح الوزراء والأمراء وسواهم ممن كان ينشد عندهم مأربه، وحينما تخيب آماله ينقلب مديحه العجيب ببلاغته وكذبه إلى سخرية مرة كما فعل مع ممدوحه سيف الدولة وكافور، ألم يقل لسيف الدولة بعد أن خاب أمله في أعطياته:

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسُنا
بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ

وكان قد قال له قبل أيام قليلة:

ليت أنّا إذا ارتحلت لك
الخيلُ وأنا إذا أقمت الخيامُ

فتصوروا على هذه الأمنية التي تمناها لنفسه؟!

وحينما غادر سيف الدولة قال لكافور معرِّضًا بسيف الدولة:

حببتك قلبي قبل حبّك من نأى

وقد كان غدّارًا فكُن أنت وافيا

ومنها قوله: «ومن قصد البحر استقلَّ السّواقيا»

لقد أصبح سيف «الدولات» عنده غدارًا، واصبح ساقية حين أصبح كافور عنده البحر.. وعندما خاب أمله في كافور أيضًا هجاه أمرَّ الهجاء وأقذعه.. مثل هذا الشعر، ومثل هذا «التمليق والتدجيل» ليس من الإنصاف أن نعده مديحًا، فالشعر في حقيقته فوق كل هذا النوع المبتذل من الكلام مهما بلغت بلاغته وروعته، أما ما كان من كلام صائب وطيب يحث على الفضيلة ويحض على الخير ومكارم الأخلاق والإيثار، ويثير الهمم والإباء، ويبعث في النفس العزة والكرامة.. فإنه مطلوب ومرحب به كل الترحيب.. من المهتمين بالشعر لا يُكبِر لأبي تمام قصيدته في فتح عمورية، ومَن مِن المنصفين لا يصفق طربًا للمدائح التي انهالت على البطل العظيم صلاح الدين حين فتح القدس وأجلى عنها الغزاة وكان رحيمًا حتى بأعدائه..

ومن منا لا يعجب بهذا المديح الإنساني لأبي تمام بوصف ممدوحه:

وتراه يُصغي للحديثِ بقلبِهِ

وبسمعِهِ، ولعلَّهُ أدرى بهِ

ومن منا لا يهتز طربًا مع المتنبي وهو يمدح نفسه بقوله:

خلقتُ أليفًا لو رُدِدتُ إلى الصّبا

لفارقتُ شيبي موجعَ القلب باكيا

أين هذا الحس الإنساني الرائع من مبالغاته المنفردة، وأين هذه المبالغات من رائع شعوره الحي الصادق وبما يثيره بنا أبدًا حزنه الحق على جدته:

أحـــنُّ إلـــى الـكــأس الـــذي شـربـت بـهِ

وأهـــوى لمثـواهـا الـتـراب ومـا ضـمّـا

ومن قوله المنفّر مع ما فيه - من صورة وبلاغة في مديحه - لسيف الدولة:

طـلـبـتـهـمـو عـلــى الأمــــواهِ حـتـى

تـــخـــوَّف أن تـفـتـشـه الـسّــحــابُ

وتمـلــك أنـفــس الـثّـقـلـين طُــرًّا

فـكـيـف تحـــوزُ أنـفـسَـهـا الـكـلابُ

فأين هو الأمواه في حلب، وهل يملك أنفس الثقلين إلا الله؟

لقد كثر هجوم «الحداثيين» على شعراء المديح، وطال تعرضهم له ولأصحابه من دون أن يفرقوا بين المديح الحق، وبين التدجيل والتملق المضلل المنفر!!

لقد كانت هذه المقدمة للأجيال القادمة التي قد لا تصل إليها تلك السوداوية التي نظر من خلالها أولئك المغرضون إلى هذا الباب الإنساني من أبواب المديح..

وها هو عمر أبوريشة يصف لنا شعراء زمانه حينما رحب بالشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي يوم أن زار حلب سنة ١٩٣٣م فقال:

شـــعــراء الــزّمـــان يـــا ثـاقـب الــرّأي

نـــعـــانـــي مـــن أمـــرهـــم مـــا نـــعـــانـــي

لـــم يـــكـــدّوا حـــنـــاجـــرَ الـشِّـــعـــر إلا

فـــي سـخـيـفٍ مـــن فـكـرةٍ ومـعـانـي

وها هو يقول في ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي يرحمهما الله، معرضًا بأشهر شعراء العربية الأقدمين:

إن تجدني أقولُ ما لم يقلْهُ
فيك في الشرق نادبٌ وثكولُ

فلأني كرهتُ سُخفَ ابن هاني
وابن أوسٍ، ومن بهم تدجيلُ

زلزلوا الأرضَ والسماء إذا
مات حبيبٌ، أو غاب عنهم خليلُ

إلى أن يقول:

أعذبُ الشعر ما يشعّ به الصدقُ
وتمشي على خُطاهُ العقولُ

وقبله قال شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت:

وإن أصدقَ بيتٍ أنت قائلُهُ
بيتٌ يُقال إذا أنشدتهُ صدقا

ورحم الله القائل:

أرى الشّعر بعد الوحيِ أكرمَ هابطٍ
من الملأ الأعلى إلى الملأ الأدنى

أجل فالشعر مما يعلِّمه الله لنفرٍ مختارٍ من عباده، فمنهم من يصون قدر شعره وقدر عطاء الله له ومنهم من صدق فيهم وصف كتاب الله لهم ممن ﴿في كل وادٍ يهيمون﴾ ندرك هذا من قول الله تبارك وتعالى نافيًا عن نبيه الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، أن يكون قد علمه الشعر، وهذا ما يجعلني أقول: «إن الشعر علمٌ من عند الله» ورحم الله القائل:

والشعرُ عرضُ الفتى الثاني فأحرِ به
ألا يدنَّس بالأوحالِ والوطرِ

ولنتوقف الآن عند ما كان من عمر أبوريشة ومدائحه:

لقد تركزت مدائح عمر بالملوك الهاشميين الذين كان على أيديهم تحرير البلاد – كما يقول المؤرخون – فرأى في بطولاتهم وجهادهم ما يستحق الثناء من رجل عانى من المستعمرين أشد المعانة حتى أنه حكم عليه بالإعدام مرتين – كما يقول – وبالسجن مرات، وكان العرب في مجملهم يتطلعون إلى هؤلاء «الهاشميين» منقذين يرجى منهم كل خير للبلاد والعباد، ومن تلك القصائد التي لم أعثر على شيء منها حتى الآن سوى ما كان من بيت أو بيتين، أو مجرد عناوينها فقط، ومن تلك القصائد قصيدته في فيصل الأول وفي الملك غازي، فقد سافر إلى العراق في ١٩٣٨/٢/١٨م ليلقي قصيدة طالما تحدث عنها المعجبون، لكنها لم تظفر بالإذن منه بنشرها، وفي العام ١٩٣٩م يشارك الناس حزنهم الشديد على الشاب الذي وجد العرب فيه ما يطمحون إليه من قيادة حكيمة وجرأة وطنية ويعني الملك غازي بن فيصل الأول فيقول في رثائه:

شهقةٌ في الدّجى وراء البوادي
روّعتْ خاطر الضُّحى المتهادى

ويقول مادحًا إياه على ما كان منه من بطولة ووطنية عربية إسلامية:

ليس يطوي الزمانُ صفحةَ مجدٍ
أنتَ سطَّرتها بأسنى مِدادِ

وكذلك ذكر الملك فاروق في يوم بيعته بيتين فقط من قصيدته الطويلة «مرابع الخلد» المثبتة في المختارات، وأحسب أنه كان في ذكره له معولًا عليه بما يتمناه

لأمته بعد هزيمة الجيوش العربية في سنة ١٩٤٨م فقال بعد شكواه المريرة من واقع الأمة متطلعًا إلى مصر أكبر البلاد العربية:

لكن نظرت إلى الفاروق فاقتتلت
على هواهُ المعاني، فاكتفى النظرُ
حَسبي من القول هذا يوم بيعته
والروضُ بالأرجِ الفوّاح يُختصرُ

وقد آن أن نتوقف عند أهم مدائحه بعد أن تبين لنا مما ذكر أن ذلك ما كان منه إلا لإعجابه بالبطولة، ويكفي أن نذكر أن له ثلاث قصائد في بطل الجهاد الحق إبراهيم هنانو يرحمه الله، وفي السياسي الكبير سعدالله الجابري مع ما كان بينهما من خلاف في الرأي لكنه كان ينظر إلى تلك البطولات التي عز نظيرها إلا من أمثالها، وأمثالهما لم تكن بالقليلة..

تركزت مدائح عمر في المرحلة الأخيرة بالملك فيصل الذي تمتد صداقته معه منذ أن كانا سفيرين في أمريكا.. وطالما حدثنا عمر عن متانة الصداقة مع الملك فيصل الذي بادله بالوفاء وفاء؛ فقال عمر فيه أجمل ما قيل في المديح الملزم بجلائل الأعمال، وكريم الخصال، وقبل الخوض بما جاء في قصيدتيه في مدح فيصل نتوقف عند هذين البيتين اللذين يدلان على عمق الصلة ورفع «الكلفة» فيما بينهما – كما يقال – فيقول له بكل الصدق والجرأة:

يا فيصلًا للحقِّ بين يديك سفرٌ من ولائي
هو للوفاء جمعتهُ، ونشرتهُ لا للرجاء

ثم يأتي دور قصيدته التي القاها بين يدي فيصل في موسم الحج وقد تناقلتها معظم الصحف العربية فيقول له: «إن من ناداه في هذه القصيدة ليس عمر وحده إنما هم إخوانه الذين يعددهم له فإذا هم:

يـا ابـن عـبـدَالـعـزيـز، وانـتـفـضَ الـعـزْ

ــزُ وأصــغــى، وقـــال: مــن نـــادانـــي

قلتُ: ذاك الجريحُ في القدس، وفي سيـ

ـنـاءَ، فـي الـضـفـتـين، فـي الجـولانِ

قـلـتُ: ذاك الـسـجـينُ يـقـبـعُ فـي الـسجـ

ـن فــــرارًا مــن خِـسَّــة الـسـجَّــانِ

قـلـتُ: ذاك الأبــيُّ يـشـهـقُ بـالـصمـ

ـتِ وتُــرمـى أقــلامــه بــامــتــهــانِ

يــا ابــنَ عـبـدَالـعـزيـزِ تـلـك صِـحـابـي

مــنــهــا تـحـيـة الـرحـمـنِ

عـرفـت فـيـك طـلـعـةً مـن مــروءا

تٍ كــبــارٍ، وأمــنــيــاتٍ حِــسـانِ

كـن لـهـا بـسـمـةً الـعـزاء فـقـد طـا

لَ عـلـيـهـا تجـهُّـم الأحــزان

هكذا كان مديح عمر لصديقه.. إنه يضعه أمام مسؤوليات جسام وأعمال جليلة تنعكس على البلاد والعباد وتدعوه إلى الجهاد لتحرير القدس والصلاة في الأقصى الحبيب.

وفي مطولته الثانية في مديح فيصل يخاطبه مؤكدًا ما قاله في القصيدة الأولى.. إنه ينادي كل الرجال الذين يرجون للقدس ولمسجدها المبارك الطهور حيث كان فيصل يحلم أن يصلي في رحابه الطاهرة.

يـا ابــنَ عـبـدالـعـزيـز يـا لـنـداءٍ

فـي مــداه نـاديـت كــلَّ الـرجـالِ

طـــالَ حِـلــمُ الحــلــيـمِ، طـــال عــلــى كــيــ

ـــــدِ الـــعـــــوادي تمــــرُّد الأنـــــذالِ

وهنا تتجلى لنا غضبته المستمرة على «الأنذال» الذين «عاشوا وما شعروا، ماتوا وما قبروا».

ثم يضعه مرة ثانية جهارًا أمام مسؤولياته الجسام مذكرًا أياه أنه هو أهلها وهو المعد من الله لها فيقول:

شـئـتَ أم لـم تـشـأ فـأنـت مـع الـتـاريـخ

فـــي مـــوعـــدٍ يـــتـــيـــم المـــثـــالِ

الـــفَـــجَـــاءاتُ فـــي مــجــالِـكَ فـي الــسّـا

حِ، وفـــي راحـــتـــيــك ســـرُّ المـجـــال

لـــم تُـــهـــادن، ولـــم تـــزل تـتـحـدّى

كـــلَّ بـــاغٍ أو غـــــادرٍ خَـــتَّـــال

ثم يذكره بالقدس وبصلاح الدين ويطلب منه أن يكون صلاحها الجديد:

ربــــعُ حــطّــينَ مــوحِــشٌ يــا صـــلاحَ الــدْ

دِيـــــنِ إلا مـــن ذكـــريـــاتٍ غـــوالِ

ســرْ بــنــا صــوبَــهُ، وصَـــلِّ بـنـا فـي الـ

ـقـدسِ، واضـــربْ حـرامـهُ بـالحـلالِ

ويقول الدكتور الغدير معلقًا على هذه الأبيات:

«والأبيات ملأى بالصفات التي يطلبها الشاعر محب البطولة والنبل، غيور على دينه وأمته، متطلع إلى من يدفع عنهما ظلم العدو الغاصب في ملك يحبه ويرجو منه أن يحقق تلك الآمال الغالية الكبيرة».

إن هذا النوع من المديح إنما هو المديح الإيجابي الباني وهو البحث الصادق عن ما يحقق تلك الآمال العامة، وإن كان للمادح منها نصيب مما تمناه فهو نصيب واحد من الأمة.

إن مراثي عمر لهنانو وللجابري وللشهبندر وغيرهم من أبطال الجلاء إنما هو مركز على إيقاظ الهمم وحراسة القيم، وبعث الإباء لتحقيق آمال البلاد والعباد، ومثل هذا فليكن الرثاء، وليكثر المديح لنصفق له طربًا، ونطالب بالمزيد منه لنيل المفيد.

ويلتقي مديح عمر لمن يرى فيه هذه الصفات الحميدة، والبطولة العظيمة، والإباء الحق سواء كان ممدوحه عربيًا أو غير عربي.. معاصرًا له أم غيبه الموت وأبقى للناس إخلاصه وتحدثت عنه أعماله الحميدة الجليلة التي أصبحت ملك الإنسانية قبل كل شيء وبعده.. فكل عمل جليل، وكل خلق نبيل هو ملك للإنسانية كلها.

وقد تبين لنا صدق هذه المسلَّمة في قصيدة «جان دارك» وما كان من جان دارك من بطولة كانت مثار إعجابه فخلدها في الديوان العربي بعد أن كانت وقفًا على قومها الذين ربما لم يعد يذكر معظمهم بطلتهم الخالدة «جان دارك».

ثم ها هو يمدح نهرو عظيم الهند بقصيدة طويلة طواها النسيان كالعشرات من أمثالها المطويات، وبقيت لنا من تلك القصيدة هذه الأبيات القليلة التي هربت من بين يديه لتعيش إلى الأبد بعد أن حصلنا عليها يقول:

تلفُّتْ أيها الوطنُ المفدى
أتَلْمَحُ من يجرِ عليك قيدا
مشيتَ على الخطوبِ السّودِ دهرًا
ولم تمدد لزند الوهمِ زندا

والقصيدة تشيد بشعب الهند الذي انتزع استقلاله بقيادة زعيمه نهرو الذي تحمل القصيدة اسمه، وقد نشرت في العدد ١٠٩ من مجلة الهند ٢٥ أيلول وتشرين الأول عام ١٩٨٩م.

ولئن قيل إنما نظم هذه القصيدة لعلاقته الوثيقة وصداقته المتينة مع نهرو حينما كان سفيرًا لبلده في الهند، فسنتوقف عند قصيدة «موغل ممدوحها في القدم» إن الحجاج بن يوسف الثقفي، فقد خصّ جرأته وحنكته التي أدت دورها في توحيد الأمة كما يرى بعض من يتطلعون إلى الحجاج من هذه الزاوية، في حين يرى غيرهم غير هذا.. فالحجاج أصبح بين يدي الله لا يضيره ذاك ولا ينفعه هذا.. لكن عمر عاشق المجد والبطولة يخصه بقصيدة لن ينال منها عطاء ولن يكسب عليها حمدًا إنما يرى أنها قولة حق في زمن تلح الحاجة فيه إلى تذكير أهلها بالبطولات فيقول:

أحـــجـــاجُ يـــا نـــفـــحـــةَ الـــبـــاديـــهْ
ويـــا روعـــةَ الأعـــصُـــرِ الـــغـــافـــيـــهْ
ســـيـــاطُـــكِ رغـــم الـــبـــلـــى لـــم تـــزلْ
تُـجـلـــجِـــلُ اصـــداؤهـــا الـــقـــاســـيـــهْ

إن يناديه بنفحة الصحراء وليس بلفحها.. هذه الصحراء التي افتن بها عمر وأكثر من ذكرها والتغني بها، تعتبر الحجاج نفحة من نفحاتها.

وهذه القصيدة وسابقتها مثبتتان في مختاراتنا له..

وقد سبق أن رأينا اهتمامه بالموقف العربي الكريم حينما امتدح وقفة النعمان الذي رفض أن يزوج ابنته لسكرى عظيم الفرس وما تضمنته تلك الأبيات في مسرحيته «رايات ذي قار» من تركيز على مكارم العرب وبطولاتهم.

وربما كان جمال عبدالناصر يحلم بقصيدة منه حينما دعاه لمقابلته وحضر عمر ليقف نهاره في مكتب جمال ولا يؤذن له بالمقابلة، وطلب منه أن يعود ربما لأكثر من مرة فذهب مغضبًا وغادر القاهرة مقدمًا استقالته ليأتي بعده بأيام الانقلاب على نظام عبدالناصر فتلغى الاستقالة ويستمر سفيرًا لسوريته.

والذي أجوه مخلصًا ألا أكون قد أثقلت على القراء الكرام، فقد لا أعدم أن أجد من لم يرق له هذا الفصل الذي احتسبه للحقيقة، وللأجيال التي أرى من الأمانة أن ننقل لها هذه الوجهة من توجهنا، كما سينقل غيرنا وجهة نظره.. ولكل وجهته.

****

عمر والزوجتان

يبدو أن عمر كان محظوظًا أيضًا مع زوجتيه، فلقد كان زواجه من السيدة منيرة محمد مراد علي أيسر ما يكون وبما يشبه «الصدفة» ولا صدفة ولا مصادفة عندي، إنه قدر يهيئ الله له أسبابه لحكمة منه ورحمة فهو العليم الخبير الحكيم، وأمر الزواج لا يخرج عن هذه الحكمة الإلهية.

كان عمر في عنفوان شبابه في جلسة مع صديقه جميل محمد مراد وكانت تجلس على مقربة منهما صبية هي أخت صديقه فقد لفتت انتباه قلب عمر وعينيه إليها في لحظة واحدة.. وكانت فيما أذكر مغتربة في الأرجنتين جاءت إلى موطنها في لبنان ليتم قضاء الله وتصبح هذه «المنيرة» أم أبناء عمر أبوريشة الثلاثة، شافع وريف ورفيف.

وأحسب أنني أذكر جيدًا أن منيرة عمر هذه قد أصبحت متفهمة كونها زوجًا للشاعر الكبير والدبلوماسي الشهير.. وكانت على درجة كبيرة من الذكاء إلى جانب ثقتها بنفسها جعلتها تنال حب عمر وتقديره، ولم تكن منيرة هذه تطالب عمر بشيء، ولا تحاسبه على شيء إذا ما قدم لها قصيدة جديدة، قصيدة جديدة من عمر هي شافعه عندها مهما فعل.. فلا نكد ولا غيرة، ولا حدود، ولا قيود تحول دون اصطياده المزيد من القصائد التي قلما تعود شباكه منها خاوية كما حدث بذلك عمر.

هكذا كانت حياة عمر الزوجية عقودًا من حياته التي تألق فيها شاعرًا وسفيرًا.. ولست أدري تمامًا كيف تطورت تلك العلاقة التي يبدو أن أسباب استمرارها قد ضعفت إلى درجة تركت فراغًا في مشاعر عمر نحو تلك العلاقة على حميميتها، وربما كان لقوة شخصية أم شافع وثقتها بنفسها مما ساعد على

ما لم يعد يمنع عمر من أن يستسلم لقضاء جديد جاء هذه المرة مهيأة له أسبابه من القدر الرحيم بعمر، وقلب عمر، ومشاعر عمر، وشعر عمر حيًّا وراحلًا بعد أن أحس بحاجته إليه، فكانت هذه المرة السيدة «سعاد مكربل» اللبنانية التي ما فتئت أن أصبحت الزوجة الثانية لعمر..

وبعد مرور ما يقرب من ربع قرن على فراق الزوجين أحدهما إلى مغفرة ربه إن شاء له ربه.. ولتبقى «سعاد أبوريشة» رغم حزنها الأليم الشديد أسطورة في الوفاء لعمر ولآثاره بعد رحيله..

لقد ألفت السيدة سعاد كتابًا كبيرًا هو الجزء الأول من علاقتها وذكرياتها مع عمر منذ اللحظة الأولى الغريبة العجيبة التي جمعتها بتفاصيلها التي هيأت لها وله كل ما يجد منهما كل ما تمناه في تلك المرحلة من حياته فإذا بهما أمام كل ما رسمت لهما أحلامهما وساقته لهما حكمة الله.

كتاب الأرملة «سعاد أبوريشة» يقع في ٢٨٨ صفحة من الحجم الكبير، وقد صدر عن دار بيسان في بيروت سنة ٢٠٠٧، وهي تؤكد أن الجزء الثاني سيكون قريبًا جدًّا، وسيشمل على ما لم يذكر في أخيه الجزء الأول الذي حمل عنوان:

أبكي على زمن خلا

من شاعرٍ مثل عمر

وأهم ما استوقفني من حديثها عن عمر أنه كان دقيقًا في مواعيده وبخاصة في أوقات طعامه الذي كانت كأس من الويسكي تتخلل وجبة غذائه، وكان يحسن التخلص بلباقة إذا أخلف موعده، وأكثر ما كانت تظهر عاطفته ويتجلى حنانه للأطفال الذين كان يحبهم محبة شديدة.

وتبقى تفاصيل حياتهما الخاصة بهما قد أصبحت بين دفتي كتابها..

ومن خلال قراءتي للكتاب الذي تلطفت بإهدائه إليّ إهداءً خطيًّا فيه ما يدل على معرفتها السابقة بحبي لعمر واهتمامي معها باستثنائية هذا الشاعر زوجًا

فرضت عليها محبتها له أن تستمر ما زاد على الربع قرن وفاء بلغ حد الغرابة والإعجاب الذي يخولني أن أقول عنه إن من حقه أن يلفت النظر إليه، وأن يؤكد الثقة بأن يطلق عليه أنه «نادر المثال».

تقول السيدة سعاد مكربل أبوريشة إن لديها كل ما يتعلق بحبيب عمرها ورجل العالم الفذ «عمر أبوريشة» من شعر ومذكرات خطها بيده لتبقى أمانة عند «سعاد» منة الله الكبرى عليه في مرحلة كان في أمس الحاجة إليها، فهي التي ألهمته بمواقفها معه الكثير من القصائد التي خصها بها، وكان يضمِّنها اسمها لتزداد بها حبّا له وإخلاصًا لكل ما يلمح لها به من عينيه، أو بإشارة من يده فيأتي على أتم ما يهواه ويتمناه.

وقد تبين لي من هذا الكتاب أنه أسكنها في بيت زوجته الأولى الذي كنت أزوره فيه في بناء صمادي - وفي طابقه الأول - في شارع مدام كوري القريب جدًا من فندق بريستول في بيروت..

تعرف السيدة سعاد اهتمامي بفقيدها العظيم، بل هو فقيد الشعر والأدب والرجولة والوطنية - كما أسلفت - وهي تحتفظ في بيتها في بيتين لي قلتهما ارتجالاً عند سماعي نبأ رحيل عمر إلى العالم الآخر، تقول إنها تعتز بهما، وهما كما أملتهما عليَّ محبتي لعمر، ومعرفتي به وبما كنت موقنًا أن سيناله من اهتمام بعد رحيله، مما هو عندي من أدنى حقوقه على الأمة كلها، فقلت:

اليوم تبدأ عمّا كنته السِّيَرُ
وكلنا لك عمّا كان مُعتذرُ
فاضحك علينا أو ارحم قِصرَ قامتنا
فشأنُ كِبركَ أن يُعنى بمن صغروا

وأحسب أن السيدة الفاضلة «أم شافع» منيرة عمر الأولى تحتفظ بهذين البيتين أيضًا.

أمليت هذه الأسطر صبيحة ٢٠١٢/١/١٥ بعد أن علمت أن هناك مباحثات بين السيدة سعاد وبين رجل الشعر الأول في هذين القرنين، وربما في التاريخ ماضيه وحاضره ومستقبله، وأعني الشاعر الكبير عبدالعزيز سعود البابطين مؤسس جائزة باسمه الكبير للشعر العربي والذي أسس مكتبة له في قلب مدينة الكويت كأضخم وأكمل ما تكون عليه المكتبات الحديثة، والقصد من هذه الأسطر أن أنوه إلى هذا الأمر:

هل تملك حقًا السيدة سعاد كل ما ليس موجودًا عند شريكة حياة عمر الأولى لعقود طويلة؟ هل يكتفى بما عند السيدة سعاد من دون الحصول على ما لدى السيدة منيرة وأولادها الثلاثة من عمر، أم أن هذا الذي عند سعاد كاف وحده وجدير بالظهور العاجل على يدي هذا الرجل الذي يستحيل أن نجد من يسخو كسخائه، ويهتم كاهتمامه بكل ما يتعلق بمن سيكون التكريم من حقه في هذه الدورة القادمة بعد أشهر قليلة، هذا الرجل الذي يحرص على ألا يغادر ما يمكنه الحصول عليه من آثار عمر حتى وإن كانت قصاصة من ورق عليها بيت أو بيتان قالهما عمر، وفاء للراحل، وأمانة للتاريخ.

أرجو مخلصًا أن يهيئ الله أسباب نشر كل ما ترك عمر، وما أبدعته عبقريته سابقًا ولاحقًا، لاسيما ما تنكر له وأصبح متناثرًا مهجورًا.

تنويه وتذكير

كما آمل مخلصًا وراجيًا أن يكون فيما سينشر له قريبًا مما أعلم علمًا يقينًا من أنه موجود في أرشيفه ومنه:

١ - **مسرحية «نحن والسلطان»** التي يتحدث فيها عن طغيان جمال عبدالناصر و«جوقة السكارى» التي كانت تعزف له مما كان يجعله يزيد في طغيانه - كما يقول - وقد أسمعني قسمًا منها في منزله.

٢ - **قصيدة «عودة المغترب»** التي قال إنها من ٤٠٠ بيت وقد ألقى قسمًا منها في مدرج جامعة دمشق ١٩٧٢ وتقول السيدة سعاد إنها من ٢٠٠ بيت، وقد أهدتني

٨٩ بيتًا منها بخط يدها، والجدير بالذكر أن ما أهدي إلي منها مضاف إليه الكثير إذ يصور فيه ما جرى في سورية سنة ١٩٨٢ وكان هذا المضاف بعد ١٠ سنوات من إلقاء قسم منها سنة ١٩٧٢، وهذا دليل آخر على عودته إلى قصائده تبديلًا وتعديلًا بحسب ما تمليه عليه المناسبة.

٣ – قصيدته في عتاب المواطن العربي الأول فخامة الرئيس السوري شكري القوتلي رحمهما الله التي أسمعه إياها حينما استقبله عمر عائدًا به من المطار في سيارة السفارة حينما كان سفيرًا للجمهورية العربية المتحدة في سويسرا مبعدًا من «جوقة السكارى» فلم يجرأ أحد على استقباله رسميًا سوى عمر.. ولقد أسمعني قسمًا منها، ومنها قوله:

الشام يا شكريُّ بعد عثارها
جفنٌ على جرحِ الكرامةِ مطرقُ

ومما حدث في أثناء إلقائها وهم في السيارة، أن صرخت كريمة شكري – التي كانت ترافقه – رحمهم الله جميعًا.. «ما هكذا أبي يا سعادة السفير».

فكان جواب والدها الوقور: «دعيه يا ابنتي.. إنك لا تعلمين من «عمر».. إنه عمر أبوريشة يا ابنتي.

وبعد ...

إنك تطوي يا قارئي العزيز هذه الصفحات التي استغرقت عقودًا كنت أرجع إليها بين الفينة والأخرى، ولم يكن لدي الوقت لأجمعها وأنشرها فقد كنت دائمًا والحمد لله منصرفًا إلى أمور الحياة التي كثيرًا ما كانت قاسية.

وكنت أظن أن انفعالي (وانبهاري) بشعر عمر أبوريشة ليس من حقه أن يجمع وينشر إذا أبقيته على حاله يوم ولد.. ولكن ومع كل عودة إلى ما رأى فيه الدارسون المتخصصون.. أتهم نفسي.. ولكن بالقصور كما كتبت في المقدمة.

وليست دراستي هذه بالدراسة الأكاديمية الصرفة، كما لا تخلو من الإشارات إلى بعض ما جاء ذكره من الدراسات الأكاديمية، فهي وفي تصنيفي له «دراسة انطباعية» دراسة شاعر لشاعر وإنني لأخجل والله حينما أقول عن نفسي إنني شاعر، لكن كلما عدت إلى عمر تحديدًا وما كان - يتلطف - بسماعه مني ويطرب له جعلني أصدق حينًا أنني شاعر ولو ما زلت في بداية الطريق إلى الشعر الذي أتمنى أن أقوله.. مع أن تجربتي مع الشعر تنوف على نصف قرن.

وأحسب أن الدراسة الانطباعية لها ما يميزها أكان ذلك سلبًا أم إيجابًا، فليس كل عشاق الشعر وأهله يهتمون بالدراسة الأكاديمية فمثلًا حينما يبدأ الناقد الدارس المسدد د. حيدر الغدير، يقدم له بصفحات كثيرة يستعرض فيها آراء كل من كتب فيما يتعلق ببحثه ليبدأ الحديث عن عمر.. لهذا حق.. وهذا عين ما هو مطلوب منه كباحث لنيل درجة الدكتوراه، وقبل مغادرة شهادة الدكتور الغدير الذي اجتمع لديه كلُّ ما قيل عن عمر فكانت دراسته عنه الأوفى والأشمل فيما أعلم، وإليها أدعو من أراد معرفة المزيد عن هذا الشاعر.

أما أنا فحسبي هنا أن أقرِّب - بقدر ما وسعني الجهد - شعر عمر إلى عشاقه بعد أن غابت مع غيابه جُلّ عطاءاته.. فكان من الوفاء له ولنا أن نجدد لهذا الجيل وللأجيال القادمة معرفتهم بشاعر أمتهم عمر أبوريشة.

فإن كنت قد وفقت ولو إلى حد بسيط - فذلك بفضل الله ومنته عليّ.. وإن قصرت - وهذا شأني - فهو لجهلي وقصور فهمي.

والله أسأل أن يفيد ويثيب عني ناشره وقارئه.

إنه خير مسؤول ومن يرجى عفوه..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق ٢٠/١٢/٢٠١١

****

قطوف مختارة

من شعر أبي ريشة

بعد النكبة

أمّتي، هل لكِ بينَ الأممِ
منبرٌ للسيفِ أو للقلمِ
أتلقاكِ وطرفي مطرقٌ
خجلاً من أمسكِ المنصرمِ
ويكادُ الدّمعُ يهمي عابثًا
ببقايا كبرياءِ الألم!
أين دنياك التي أوحت إلى
وترِي كلَّ يتيمِ النَّغمِ
كم تخطيتُ على أصدائهِ
ملعبَ العزِّ ومغنى الشَّمم
وتهاديتُ كأني ساحبُ
مِئزري فوقَ جباهِ الأنجُم

☆☆☆☆

أُمّتي! كم غصّةٍ داميةٍ
خنقتْ نجوى عُلاك في فمي
أيُّ جرحٍ في إبائي راعفٍ
فاتَه الآسي، فلمْ يلتئمِ
ألإسرائيلَ تعلو رايةٌ
في حمى المهدِ وظلِّ الحرم!
كيفَ أغضيتِ على الذُّلِّ ولم
تنفضي عنكِ غبارَ التُّهم

أَوَمَا كنتِ إذا البغيُ اعتدى
موجةً من لهبٍ أو من دم
فيمَ أقدمتِ؟ وأحجمتِ ولم
يشتفِ الثأرُ ولم تنتقمي
اسمعي نوحَ الحزانى واطرَبي
وانظري دمعَ اليتامى وابسمي
ودعي القادةَ في أهوائها
تتفانى في خسيسِ المغنم!
رُبَّ «وامعتصماهُ» انطلقتْ
ملءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتم
لامستْ أسماعهمْ لكنَّها
لم تلامسْ نخوةَ المعتصم!
أمّتي! كم صنمٍ مجَّدْتِهِ
لم يكن يحملُ طهرَ الصَّنم!
لا يلامُ الذئبُ في عدوانه
إن يكُ الراعي عدوَّ الغنم!
فاحبسي الشكوى فلولاك لما
كان في الحُكم عبيدُ الدّرهم!

☆☆☆☆

أيها الجنديُّ يا كبشَ الفدا
يا شعاعَ الأمل المبتسم
ما عرفتَ البخلَ بالروح إذا
طلبتها غصصُ المجد الظَّمي
بوركَ الجرحُ الذي تحملُهُ
شرفًا تحت ظلال العَلم

١٩٤٨

****

حب الأرض

مـــلاكُ المـــوتِ طـــافَ بـــيَ الأعـــالـــي
وشـــقَ بـهـــا غـيـــاهــبَ كـــلِّ تـيـهِ
وأبـــــرزَ لِـــي الــنّـــجــومَ، وكـــلُّ نجـمٍ
يـتـيـــهُ بمـــا لـــديـــهِ عـلـــى أخـيـه
وقـــال لـــيَ انْـــتَـــقِ المـــأوى فـإني
أريـــــــدكَ تـنـتـقـي مـــا تـشـتـهـيـه
فـــأنـــت شـقـيـتَ فـــي دنـيـــاكَ مما
بـلـــوتَ بـهـــا مـــن الـعـيـشِ الـكـريـه
وأنـــت قـضـيـتَ عـمـرك فـــي الـتّـغـنـي
بـــفـــردوسِ الجـــمـــالِ وسـاكـنـيـه
فـــأيـــن تُـــريـــدُ أن تحـيـا بـعـيـدًا
عـــن الـقـلـق المـــريـــرِ، وعـــن بنيه
ولاحَ إلـــــيَّ نجـــمٌ مـــن بـعـيـدٍ
تـفـلَّـتَ مـــن مـــواكـــبِ راصـديـه
تـــوشّـــح بـــالـغـيـوبِ فـكـان بِـدْعًـا
يـتـيـمَ الـنِّـدِّ، مـنـفـرِدَ الـشَّـبـيـه
فـقـلـتُ هـــنـــاك! قـــال بـكـلِّ رفـقٍ
هـــو الـنـجـمُ الـــذي قـد كـنـتَ فيه

****

قيود[1]

وطــــنٌ عـلـيـه مــن الــزمـــانِ وقـــارُ
الـــنـــورُ مـــلءُ شـعـابـهِ والـنـارُ
تـغـفـو أسـاطـيـرُ الـبـطـولـةِ فـوقَـهُ
ويَـهـزُّهـا مـن مـهـدهـا الـتّـذكـار
فَـتَـطـلُّ مـن أفـقِ الـجـهـاد قـوافـلٌ
مَـضَـرٌ يـشـدُّ ركـابَـهـا ونِـزار
تـسـتـيـقـظُ الـدنـيـا عـلـى تـزآرهـا
وتـنـام تـحـت لـوائـهـا الأقـدار
أيـامَ لـم يُـعـجـمْ لـهـا عـودٌ ولـم
تُـهـتـك لـسـدرةِ مـجـدِهـا أسـتـار
سـارتْ عـلـى هـامِ الخـطـوب ولـلـمـنى
شـبـحٌ عـلـى وهـج الجـحـيـم مـثـار
والـصـبـحُ مـن دَفْـقِ الـدخـان دُجـنّـةٌ
والـلـيـلُ مـن سـيـل الـلـهـيـبِ نـهـار
والمـوتُ جُـرحُ الـكـبـريـاءِ بـصـدرهِ
يـعـوي وتـضـحـكُ حـولَـهُ الأعـمـار
فـاخـفـضْ جـنـاحَ الـكـبـر هـذي تـربـةٌ
غـمـرَ الخـلـودَ أريـجُـهـا المِـعـطـارُ

(١) ألقيت في حفلة الذكرى لإبراهيم هنانو.

فـي كـلّ صـقـعٍ مـن جـمـاجـمِ نـشـئِـهـا
خَـــرَمٌ عـلـى شـــرفِ الجــهـــاد يـــزار

☆☆☆☆

مـا أقـــربَ المـاضـي الـذبـيـحَ يـغـيـبُ في
طـيـاتــهِ المـسـتـبـسـلُ الجـبّـار
نَـــوحُ المـــآذنِ مـا يـــزال بـمـسـمـعي
تَـــــذوي بـــه الآصـــــالُ والأسـحــار
فـكـأنمـا بـالأمـس ضـلّـتْ فـي الـدجـى
سـفـنٌ، ومـــال عـلـى الـرمـــال مـنـار
يـا مـنّـةَ الـزمـن الـبـخـيـل، ومـنـتـهـى
حُـلْـمِ الـعـلـى، إن الحـيـاةَ إسـار
مـــرّت لـيـالِـيـكَ الـعِـذابُ وأنـــت فـي الْـ
أجـــفـــانِ طـيـفُ الـــعـــزّةِ الخَـطّـــار
مــــاذا وراءَ غـيـاهـبٍ لجـيّـةٍ
قـصّـتْ بـهـنَّ جـنـاحـيَ الأشـــرار
روحٌ عـلـى شـفـة الخـلـود وهـيـكـلٌ
خـــاوٍ عـلـى قـــدم الـفـنـا يـنـهـار
ذكـــراك عـــرسُ المـجـد لـم يُـكـسـرْ لـه
دفٌّ، ولـــم يُـحـطـمْ لـــه مـزمـار
تـشـدو بـنـاتُ الـنـورِ لحـن جـلالـه
وعـلـى سـواعـدهـا الـلـدان الـغـار
ونِـقـالُــه الـزاهـي ضـحـايـا حـرةٌ
ويـســاطـه الـضّـافـي دمٌ مِـــدرار

يهمي بنفحات البطولة مثلما

يهمي بنَفحاتِ الرّبى آذار

فافتح كوى الآباد واسفح نظرةً

تعيى بحل رموزها الأفكار

هذي الديارُ عشقتها ولطالما

هزَّتْ حنينَ العاشقين ديار

تلك القوافلُ من شبولة يَغْربٍ

ما زال منها فيلقٌ جَرَّار

تتوائبُ الويلاتُ نصبَ عيونهِ

ولها على عنق الوفا أظفار

يهفو على تمزيقهن وليس في

كفيه من حُللِ الرَّدى بتَّار

أقسى جراحِ المجدِ جرحٌ لم تكن

تقوى على تضميده الأحرار

☆☆☆☆

والقدسُ، ما للقدسِ يخترق الدّما

وشراعه الآثارمُ والأوزار

أيُّ العصور هوى عليه وليس في

جنبيهِ من أنيابهِ آثار

عهدُ الصليبيين لم يبرح له

في مسمعِ الدنيا صدى دَوَّار

صفُّ الملوكَ فما استباح إباؤهم

شرفَ القتال، ولا أُهينَ جِوار

نامـوا على الحلم الأبـي فنفَّرتْ
منه الطيوفَ بـنـوُّةٌ فجَّار
صلبوا على جشعِ الحياة وفاءهم
ومشَوْا على أخشابه وأغاروا
ولكل كفٍّ غصَّةٍ سكينةٌ
ولكلِّ عرقٍ نابضٍ مسمار
مدُّوا الأكفَ إلى شرادمَ أمةٍ
ضجَّت بنتنِ جسومِها الأمصار
ورموا بها البلدَ الحرامَ كما رمتْ
بالجيفة الشطٍّ الحرام بحار
وبنَوْا لها وطنًا وعبقُ محمدٍ
وابن البتول بأفقه زخَّار
أين العهودُ البيضُ ترقبُ فجرَها
بتلهفٍ صيَّابةٍ أبرار
ولَّت، وفي حلق العروبة بحةٌ
وعلى مراشِفها العِطاش غبار
إن الضعيفَ على عريق فخارهِ
حَمَلٌ يشد بعنقهِ جَزَّار

☆☆☆☆

عفوًا أبَا لأحرار كم من زفرةٍ
مخنوقةٍ أخشى الغداة تثار
فإذا وجمتُ فلست أول شاعرٍ
تعبث وراء بنانهِ الأوتار

أنــا عـنـد عــهـدكَ لا تـلـين شـكيـمتي

كـــلاً ولا يـــعـــزي إلـــــيّ عِـــثـــار

لا عـشـتُ فـــي زهــو الـشـبـاب مـنـعمًا

إن نـــال مـــن زهـــو الـشـبـاب الـعـار

١٩٣٧

****

يا رمل[1]

يا رملُ، ما تعبَ الحادي ولا سئما
ولا شكا في غواياتِ السّرابِ ظَما!
على وجومِك من نجواهُ أخيلةٌ
شقَّ الفتونُ بها أكمامَهُ ونما
كأنما من وراء الغيبِ هاجسةٌ
فضَّتْ على سمعِهِ السرَّ الذي كتما
فرنَّحَ الكون في لألاءِ أمنيَةٍ
عذراءَ ما عرفت أرضًا لها وسما
مرَّتْ طيوفًا على الدنيا فما غمستْ
فيه جناحًا ولا جرّت بها قدما
حتى إذا طالعتها مكّةٌ، اختلجتْ
شوقًا وسالت على أجوائها نِعما
فلاحَ أحمدُ في أعراسِ دعوتِهِ
يسلسلُ الوحي إن صمتًا وإن كلما
ويسحب المرودَ الأسنى على مقلٍ
ما زادها النورُ إلا ضلةً وعمى!

(١) القيت في ذكرى المولد النبوي في الأسبوع الذي أعلن فيه الرئيس روزفلت: أن الميثاق الأطلسي، كفيل الحريات الأربع، لا أثر له في الوجود، وكانت المراقبة حذفت بعض مقاطع من هذه القصيدة لم يذكرها الشاعر فأثبتت كما نشرت:

هناءةٌ شقيتْ هوجُ النفوس بها
فعربدتْ صلفًا واستكبرتْ شَممًا!

والحلمُ إن لم يعزَّ المرءَ من درنٍ
فالسيفُ أكرم منه إن كساهُ دما

فأرسلَ الصرخةَ الزهراء فانطلقتْ
كتائبُ الله ترعى البيتَ والحَرما

فما هوَى صارمٌ إلا رمى عنقًا
ولا هوى معولٌ إلا رمى صنما

ولا بدتْ سدَّةٌ إلا تسنَّمَها
مؤذنٌ لم يدعْ في مسمعٍ صَمما

فتاب من لم يكنْ بالله معتقدًا
وثابَ من لم يكنْ باللهِ معتصما

فأقبلتْ سَرواتُ العُرْبِ خاشعةً
تجلو بإيمانها عن دينِها التُّهَما

وتحمل الشّهبَ في راحاتها قضبًا
والخيلُ تعلكُ في أشداقِها اللجما

وأحمدُ يتلقَّاها وبسمتُهُ
تَردُّ كلّ فمٍ للمجد مبتسما

والفتحُ يغمزُها حتى إذا وثبتْ
لم تُبْقِ في الشركِ لا عربًا ولا عجما

فَرفَّ في كلّ مجلى للهدى علَمٌ
يُظلّ في كل مجلى للفدا علما

فـازّيّـنـتْ بـالـبـنـاة الـزُّهـر، مملـكـةٌ

الـعـدلُ مـا شـادهـا، والـحـقُّ مـا دعـمـا

كـم طـوّقـتْ شـيـع الـدنـيـا بـكـعـبـتِـهـا

وهـزَّتِ الـشـمـسُ عـن هـامـاتِـهـم عـمـمـا

نـعـمَـى أضـاءت عـلـى الأيـام وانـطـفـأتْ

فـيـا لـيـالِـي ادفـقـي مـن بـعـدِهـا ظُـلُـمـا

ويـا جـدودًا غَـواهـا الـزهـو وافـتـتـنـتْ

أعـطـيـتـه مـن بـقـايـا الإرثِ مـا عَـظُـمـا

ولاكِ أحـمـدُ مـن آيـاتـهِ سُـنـنًـا

فـمـا رعـيـتِ لـهـا عـهـدًا ولا ذِمـمـا

المـجـدُ فـي الـنـفـس لا يـشـفَـى لـه نـهـمٌ

لـو لـم يـجـعْ فـوق نـهـديـهـا لمـا فُـطـمـا

☆☆☆☆

ويـا نـجـيـعًـا عـلـى الـتّـذكـار مـنـسـربًـا

هـل مـن ضـمـادٍ يـردّ الجـرحَ ملتئما

تـلـك الـربـوعُ الـتـي نـام الـفـخـارُ بـهـا

لـم تـلـقَ مـن حـولـهـا إلا الـذي هـدمـا

نـهـفـو إلـيـهـا فـيـبـدو الـبـغـي مـحـتـدمًـا

والـذلُّ مـحـتـكـمًـا والـعـزُّ مـنـهـزمـا

ولـلـعـلـوجِ عـلـى أنـقـاضِـهـا سُـررٌ

لـو اسـتـطـاعـت لأهـوتْ فـوقَـهـم رُجُـمـا

أرخـى الـزمـانُ إلـيـهـم مـن أعـنَّـتـهِ

وسـلَّ مـن دربـهـمْ أحـداثَـه الحُـطـمـا

حتى إذا سَكروا من حانهِ انتفضتْ

أهواؤهم وذكَتْ أنيابهم ضَرَما

وسافكوا الدَّمَ عن مرعى فريستهم

من الشعوب وصبُّوا كيدَهُم حمِما

والنصر بينهمُ في لهوهِ طَرِبُ

يعطي ويَحرمُ من أعطى ومن حرما!

فقام منهم فريقٌ حائرٌ تعبٌ

يستصرخ الشّيمَ العرباءَ والهِمما

ويعرض الغد في ميثاقهِ صورًا

تندى أناملُها من رقَّةٍ كرما!

أطلّ يلثم جرحَ الأرض فاختضبتْ

شفاهُهُ بدماها بعدما لثما!

وقال يا أرضُ لا تستعبري ألمًا

فقد نحرتُ على أذيالك الألما

إن الذي سلت الأحقادُ خنجره

فراحَ يغمده في صدرها ندما

كم أطرقَ الحبُّ في جنبي مكتئبًا

وعربدَ البغي في كفيّ مُنتقما

إذا تَلفَّتُ لم ألمح سوى أممٍ

تمشي على كُرهها في موكبي خدما

تلك الليالي انطوتْ يا أرض فابتسمي

واستمطري لأزاهيرِ العلى دِيمَا

فسمّرت مقلتيها فيه ذاهلةً،

أتطلبُ البرءَ ممن أوجدَ السَّقما!؟

أَتــرقُــصُ الـطـيـرُ فـي أشــراك صـائـدِهـا

ويـحـسُّ الـذئـبُ فـي أعـطـانـهـا الـغـنـمـا؟!

حــلــمٌ تـنـاثـر أطـيـافًـا مـنـضَّـرةً

مـا كـان أكـرمَـه لـو لـم يـكـنْ حُـلُـمـا؟!

ومـا الـمـواثـيـقُ إن فـاه الـقـويُّ بـهـا

ونُـصِّـب الخـتـلُ فـي أقـداسِـهـا حَـكَـمـا؟!

مـا كـان أغـنـاهُ عـن تـزويـر غـايـتـهِ

مـن يـحـمـلُ الـسـيـفَ لا يـبـري بـه قـلـمـا؟!

☆☆☆☆

يـا رمـلُ... رجِّـعْ حُـداءً فـي مسامِعنا

هـل حُـمِّـلَ الـركـب بـشـراه ومـا عـلـمـا؟!

قـيـثـارةُ الـوحـي لـم تـجـرحْ لـهـا وتـرًا

أيـدي الـلـيـالـي ولـم تـحـبـس لـهـا نـغـمـا؟!

أَمِـن سـنـا أحـمـدٍ حـرٌّ سـتـطـلـعُـهُ،

وتـطـلـعُ الـمـجـدَ فـي بـرديـهِ مـضـطـرمـا؟!

فـيـرجـعُ الأرضَ ريًّـا بـعـد مـا يـبـسـتْ

ويـمـتـطـي الـدهـرَ غـضًّـا بـعـد مـا هَـرِمـا؟!

****

عرس المجد[1]

يا عروسَ المجدِ، تيهي واسحبي
في مغانينا ذيولَ الشّهبِ

لن ترىْ حفنةَ رملٍ فوقها
لم تعطّرْ بدمٍ حرٍّ أبِي

درجَ البغيُ عليها حقبةً
وهوى دونَ بلوغ الأربِ

وارتمى كبرُ الليالي دونها
ليّنَ النابِ، كليلَ المخلبِ

لا يموتُ الحقُّ، مهما لطمتْ
عارضيهِ، قبضةُ المغتصِبِ!

☆☆☆☆

من هنا شقَّ الهدى أكمامَهُ
وتهادَى موكبًا في موكبِ

وأتى الدنيا فرفَّتْ طربًا
وانتشتْ من عبقهِ المنسكبِ

وتغنّتْ بالمروءاتِ التي
عرفتها في فتاها العربي

(١) ألقيت في الحفلة التذكارية التي أقيمت في حلب، ابتهاجًا بجلاء الفرنسيين عن سوريا.

أصْـيَـدُ، ضـاقـتْ بـه صـحـراؤهُ

فـأعـدَّتْـهُ لأفـقٍ أرحـبِ

هـبَّ لـلـفـتـح، فـأدمـى تحتـه

حـافـرُ المـهـر جبيـنَ الـكـوكـب!!

وأمـانـيـه انـتـفـاضُ الأرض مـن

غـيـهـب الـذلِّ، وذلِّ الـغـيـهـب

وانـطـلاق الـنـور حـتـى يـرتـوي

كـلُّ جـفـنٍ بـالـثـرى مُـخـتـضِـب

☆☆☆☆

يـا عـروسَ المـجـدِ، طـال الملـتـقى

بـعـدمـا طـالَ جـوى المـغـتـربِ

سـكـرتْ أجـيـالـنـا فـي زهـوهـا

وغـفـتْ عـن كـيـد دهـرٍ قُـلَّـبِ

وصـحـونـا، فـإذا أعـنـاقُـنـا

مـثـقـلاتٌ بـقـيـودِ الأجـنـبـي

فـدعـونـاكِ فـلـم نَـسـمـع سِـوى

زفـرةٍ مـن صـدركِ المـكـتَـئِـب

قـد عـرفـنـا مَـهـركِ الـغـالـي فلم

نُـرْخِـصِ المـهـرَ ولـم نـحـتـسبِ

فـحـمـلـنـا لـكِ، إكـلـيـلَ الـوفـا

ومـشـيـنـا فـوق هـامِ الـنُّـوَب

وأَرقْـنَـاهَـا دمـاءً حُـرَّةً

فـاغـرفـي مـا شـئـت مـنـهـا واشـربـي!

وامسحي دمعَ اليتامى وابسمي

والمَسِي جرحَ الحزانى، واطربي

نحن من ضعفٍ بنينا قوّةً

لم تلنْ للمارجِ الملتهب

كم لنا من (ميسلونٍ) نفضتْ

عن جناحيها غبارَ التّعب

كم نَبَتْ أسيافُنَا في ملعبٍ

وكَبَتْ أجيادُنا في ملعب

من نضالٍ عاثرٍ مصطخبٍ

لنضالٍ عاثرٍ مصطخب

شرفُ الوثبةِ أن تُرضي العلى

غُلِبَ الواثبُ أم لم يُغلبِ!!

☆☆☆☆

فالتفِتْ من كوّةِ الفردوس يا

فيصلَ العلياءِ وانظر واعجب

أترى كيف اشتفى الثأرُ مِن الـ

ـفاتحِ المستترق المستلب

وطوى ما طالَ من راياتِه

في ثنايا نجمهِ المحتجب

ما نسينا دمعة عاصيتها

في وداعِ الأملِ المرتقب

رجفتْ بالأمس سَكرى ألمٍ

فاسألها اليومَ سكرى طرب!

يا لنعمى! خفَّ في أظلالِها

ما حملنا في ركاب الحقب

أينما جالَ بنا الطرفُ انثنى

وطيوفُ الزهوِ فوق الهدب

هذه تربتُنا، لن تزدهي

بِسِوانا من حماةٍ نُدُب

فَلْنصُنْ من حَرَم الملك لها

منبرَ الحقد، وسيفَ الغضب

ولْنُسل حنجرةَ الشدوِ بها

بين أطلال الضحايا الغُيَّب

ضَلَّتِ الأمةُ إن أرختْ على

جرح ماضيها كثيفَ الحجب!

☆☆☆☆

ما بلغنا بعدُ، من أحلامِنا

ذلك الحلمَ الكريمَ الذهبي

أين في القدس ضلوعٌ غضَّةٌ

لم تلامسْها ذنابَى عقرب؟

وقف التاريخُ في محرابها

وقفةَ المرتجف المضطرب

كم روى عنها أناشيدَ النُّهى

في سماعِ العالم المستغرب

أيّ أنشودة خزيٍ غصَّ في

بثِّها بين الأسى والكَرَب

مـــا لأبــــنـــاءِ الــسّــبـــايـــا ركــبــوا

لــلأمـــانــي الــبِــيــضِ أشـــهـــى مَـــركَـــب

ومـــتـــى هــــــزّوا عــلــيــنــا رايــــةً

مـــا انْــــطَـــوتْ بـــين رخـــيـــص الــسَّــلَـــب؟

ومَـــــن الـــطـــاغـــي الــــذي مـــــدَّ لـــهـم

مـــن ســـــرابِ الحــــقِّ أوهــــى سَــبَـــب؟

أوَمَـــــــا كـــنَّـــا لــــه فـــي خــطــبــهِ

مــعــقــلَ الأمـــــنِ وجــســـرَ الــــهَـــرب!

مـــا لــنــا نــلــمـــحُ فـــي مِــشــيَــتِــه

مــخــلــبَ الـــذئـــبِ وجــلــدَ الــثّــعــلــب!

يـــا لــــذلّ الــعــهــد إن أغـــضَـــى أسًـــى

فـــوق صـــــدرِ الــــشــــرفِ المــنــتــحــب!

☆☆☆☆

يــا روابـــي الـــقـــدسِ، يــا مــجــلــى الــسَّــنــا

يـــا رؤى عـــيـــســـى عـــلـــى جـــفـــن الـــنـــبـــي

دون عـــلـــيـــائـــك فــــي الـــرحـــب المـــدى

صـــهـــلـــةُ الخـــيـــلِ ووهـــــجُ الـــقُـــضُـــب!

لَـــــمَّـــــتِ الآلام مـــنـــا شــمــلــنــا

ونَمَـــــــتْ مـــــا بـــيـــنـــنـــا مـــــن نَـــســـب

فـــــإذا مـــصـــرُ أغـــانـــي جِـــلَّـــقٍ

وإذا بـــــغــــــدادُ نجــــوى يـــثـــرب

ذهـــبـــتْ أعـــلامُـــهـــا خـــافـــقـــةً

والْــــتَــــقَــــى مـــشـــرِقُـــهـــا بـــالمـــغـــرب

كلما انقضَّ عليها عاصفُ

دفنتْهُ في ضلوع السُّحب

بورِكَ الخطبُ، فكم لفَّ على

سهمه أشتات شعبٍ مُغضب

☆☆☆☆

يا عروسَ المجدِ حسبي عزَّةً

أن أرى المجدَ انثنى يعتزُّ بي

أنا لولاهُ لما طوّفتُ في

كلِّ قفرٍ مُتَرامٍ مُجدب

رُبَّ لحنٍ سال عن قيثارتي

هزَّ أعطافَ الجهادِ الأشيب

لبلادي، ولروّادِ السَّنا

كلَّ ما ألهمتني من أدبِ

١٩٤٧

****

مع المعري[1]

ملعبَ الدهرِ لو مَلكْنا هُدانا
لبلغنا من الحياةِ مُنانا

سَبَقتْنا إليكَ أجنحةُ الشو
قِ وشقَّت لنا سبيلَ خطانا

وتلقيتَنا ببسمةِ إشفا
قٍ وطوّقتنا رضًى وحنانا

ودرجنا مع الشروق نغنِّيـ
ـكَ ونسقي سمع الدُّنا ألحانا

وحنين المجهول أخيلةٌ تُنـ
ـبتُ من كل صخرةٍ ريحانا

أي زادٍ سوى الظنون حملنا
وتركنا إلى هواها العنانا

كلّما أوغلتْ ركائبُنا ضا
قَ على زحمةِ الدروب مَدانا

واحتوانا من كل صوب ضبابٌ
يرجع الطرفَ خاشعًا حَرَّانا

أتريد الوجود منهتكَ السّتْـ
ـرِ يرينا أسراره عريانا؟

(١) ألقيت في المهرجان الألفي لأبي العلاء.

ويـفـضُ الـفِـدام عـن قـلبـه الـسفْـ

ـح ويـجـريـه لـلـعِـطـاش دِنـانـا

لـو بـلـغـنـا مـا نـشـتـهـي، لـرأيـنـا الـ

ـلـهَ فـي نـشـوةِ الـشـعـورِ عِـيـانـا!

نـحـن نـسـجُ الـثـرى؛ فـمـا لأمـانـيـنـا

عـلـى كـل كـوكـبٍ تـتـفـانـى

تـلـك أقـدامـنـا تـعـثَّـرُ بـالأعـشـا

بِ حـيـنًـا، وبـالـحـصـى أحـيـانـا

وظِـلال الـغـروبِ، دون مـدى الـطـرْ

فِ؛ إلـى رهـبـة الـلـقـا تـتـدانـى

نـشـطـتْ قَـبْـلـنـا مـواكـبُ شـتّـى

وتـرامـت خـضـيـبـةٌ خـذلانـا

وبـقـايـا أشـبـاحـهـا مـن رؤى المـحـ

ـمـومِ أوهـى تـمـاسـكًـا واقـتـرانـا

تـغـمـزُ الـهـاجـسَ الـرهـيـفَ، فـمـا يـبـ

ـلـغُ صـدقًـا مـنـهـا ولا بُـهـتـانـا

وخـفـيُّ الـوجـودِ مـا انـفـكَّ لا يـنْـ

ـبِـضُ قـلـبًـا، ولا يـرفُّ لـسـانـا

طَـلَـبـتْـهُ عـيـنُ الـخـيـالِ ولـمّـا

لَـمـحـتْـهُ تـكـسَّـرتْ أجـفـانـا!!

☆☆☆☆

مـلـعـبَ الـدهـرِ، إن رجـعَ حـنـينٍ

مـن أقـاصـيـكَ أرهـفَ الآذانـا

واسْتفزَّ الأجيالَ من حجرةِ الغيـ

ـبِ، فهبّت تمزّقُ الأكفانا

وتهادتْ تقلّ موكبَ فكرٍ

يسحب الشُّهبَ خلفه أردانا

قام عنه أبو العلاء؛ وقام الْـ

ـموت، مستنزفَ الإباءِ جبانا

قد طواه الزمانُ حتى إذا الخلد

اجتباه أطلَّ يطوي الزمانا

ذاك تجوالُه كأنَّ انطلاقَ الرُّ

وحِ فيه لم يستطعْ ميدانا

بين شكٍ مروّعٍ، ويقينٍ

مطمئنٍ، ما يأتلي حَيرانا

وَهْوَ في حالتيه قيثارةٌ زهْـ

ـراءُ، تَروي نشيدَها الفتّانا

وقف الشرقُ بَعْدَ لأيٍ لتذكا

رِ صداها مرنِّحًا نشوانا!!

☆☆☆☆

يا أخا الحكمة السَّنيةِ هل نلْـ

ـتَ على سُدةِ الخلودِ أمانا؟

كيف ألفيتَ عالمًا لم يكحِّلْ

مرودُ النور جفنَه الوسنانا

هـل مـحـا بـسـمـةَ الـكـآبـة عـن فَـيْـ
ـكَ، وأردى فـي صـدركَ الأحـزانـا؟
وهـدى خـاطـرًا وَزانَ لـسـانًـا
وشـفـى مُـقـلـةً، وأرضـى جـنـانـا
كـم تـهـاوتْ مـن دونـه روحُـك الـحـزْ
ـرَى وسـالـت جـراحُـهـا ألـحـانـا
عـالـمُ الـوهـمِ نـحـن صُـغـنـا رؤاه
وأردنـاه أن يـكـونَ فـكـانـا
لـسـت تـسـطـيـع أن تـكـون إلـهًـا
فـإن اسْـطـعـتَ فـلـتـكـنْ إنـسـانـا!!

☆☆☆☆

لـمـن الأرضُ إن سـلاهـا بـنُـوهـا
وتـنـاسَـوْا سـخـاءهـا الـهـتـانـا
وَهَـبَـتْـنـا مـن قـلـبـهـا، خـفـقـة الـقـلـ
ـبِ، وشـدَّتْ بـسـاعـديـهـا قِـوانـا
وأبـاحَـتْ لـنـا جَـنَـاهـا وأعـطـتْ
فـوق مـا أفـقِ حُـلْـمِـنـا أعـطـانـا!!
فـهـي مـرآتُـنـا ومـرآةُ مـسـرا
تـنـا ومـرآةُ سـخـطـنـا ورضـانـا
مـا بـكـيـنـا نـفـارهـا، إنـمـا الـعـجـ
ـزُ عـلـى صـرخـة الـحـنـيـنِ بـكـانـا!!

☆☆☆☆

أيُّ قلبٍ حمَلْتَهُ بين جَنبيـ
ـكَ ووالاك طيِّعًا أسوانا!
طالعته الحياةُ مشبوبةَ الأنـ
ـفاسِ، تُذكي دماءه أشجانا
مرُّ من وهجها المليحُ فما هدْ
هدَ شوقًا، ولا شفَى حِرمانا،
كنتَ في حبِّك المجرّدِ، لا تحـ
ـبسُ عن كل معتفٍ إحسانا
أمِن الحبِّ أن تدارَ عليـ
ـكَ الكأس، ملأى؛ وتنثني ظمآنا!
ما العزاءُ الذي نحرتَ له العمْـ
ـرَ وقدّمتَهُ له قربانا
أتَصبّاكَ موردٌ من وراء الـ
ـغيبِ تغشى نعيمه جذلانا!
كنت تدري أن الهناءةَ طيرٌ
لاح في دوحةِ الحياة وبَانا
يا لزهو الصبا؛ نظرتُ بعينيـ
ـهِ إلى العيش مورقًا ريّانا
ما عرفتُ ارتعاشةَ الكفِّ بالكأ
سِ إذا كانت المنى ندمانا
هيكلي الرحبُ، كلُّ أهواءِ نفسي
في ذراه أقمتُها أوثانا
سوف أمضي كما مضيت، وتدري
في حِمى الروحِ، أينا أشقانا!!

☆☆☆☆

يـا أخـا الـحـكـمـةِ الـسَّـنـيـة، هـل مـنْـ
ـك الْـتِـفـاتٌ إلـى صـدَى نجـوانـا
سلسلـتـهـا عـلـى الحـنـاجـر ذكـرا
كَ وقـرّت فـي كـل سـمـعٍ بـيـانـا
منـك إشـراقُـهـا، ولـولا الجـذورُ الـ
ـخـضـرُ مـا هـزّت الـصّـبـا أغـصـانـا
أَتـخـاف الإصـغـاء أن يـجـرحَ الـهـدْ
أَةَ أو أن يـصـوغَـهـا أشـجـانـا!
قـد يـحـنُّ الـطـريـدُ لـلـربـع مـهـمـا
سـامَـهُ الـرَّبـعُ شـقـوةً وهـوانـا!
هـذه الـدارُ كـم سـئـمـت بـهـا الـعـيـ
ـشَ وكـم ذقـتَ مُـرَّاهـا ألـوانـا!
سـرحَـتْ فـي ضـلـوعـهـا شـيَـعُ الـنـشْـ
ـلِ فـنـزَّتْ ضـلـوعُـهـا أدرانـا
وتـلـقـيـتـهـا أسًـى فـتـلـقَّـتْ
أَسَـدًا فـي قـيـودهِ غـضـبـانـا
فـتـعـالـت صـيـحـاتـك الحـمـرُ تـهـدي،
لـو أصـابـت أصـداؤهـا آذانـا
فَـتَـواريـتَ عـن عـيـونٍ مـراضٍ
خَـلْـتَ ألحـاظَـهـا عـلـيـك سِـنـانـا
فَـطَـويـتَ الأيـامَ فـي عـزلـةِ الـزُّهْـ
ـبَـانِ لـم تحـتـسـبْ لـهـا حـسـبـانـا
قـد تجـفُّ الحـيـاةُ إلا وريـدًا
ويـضـيـقُ الـوجـودُ إلا مـكـانـا!!

☆☆☆☆

كيف تفترُّ عن رضًى ولياليـ
ـكَ أقامت عليك حربًا عَوانا
وعِجافُ الرجالِ أرفعُ قدرًا
منكَ في غيِّهمْ وأنبه شانا
طالما كنتَ مبصرًا في دياجيـ
ـكَ وكانوا في نورهم عميانا
أسرَجُوا صهوةَ المذلَّةِ وانْقَضْـ
ـضُوا على مثخن الجراح طِعانا
واستباحوا مالَ الضعيفِ عتوًا
وأهانُوا حرماته طغيانا
وأزاحوا عن المنابر أحرارًا
فهزَّتْ أعوادُها عُبدانا
وتمشَّوْا لدى الأعاجم حملا
نًا وسابوا في قومهم ذؤبانا
هذه الزمرةُ التي في حِماها
وقفَ المُلْكُ مطرقًا خزيانا
ما أظنُّ العصورَ مرّت عليها
فتلفَّتْ، أما تراها الآنا!!

☆☆☆☆

يا فؤادًا من المراحم نبضا
تٍ ومن جامدِ السّنا شريانا
مِرجلُ الحقدِ لم تلامسْهُ كفُّ الـ
ـحبِّ إلا أدمى لظاهُ البَنَانا

لم يزلْ شُرَّبُ النَّجيعِ سُكارى

يتباورنَ حوله عدوانا

طرفوا مقلةَ السماء وأدمَوْا

كَبِدَ الأرضِ عثيرًا ودخانا

ما ألانَتْ قلوبَهم أدمعُ الأيـ

ـتامِ أو هزَّهم أنينُ الحَزانى

فَضَحاياهمُ تَمُورُ على الرمـ

ـلِ المدمَّى، وتعتلي صُلبانا!!

كلُّهم في وليمةِ البغي يخشى

أن يرى جوفَ غيره ملآنا

والحجى بينهم شراعٌ على الدأ

ماء لا يُرتجَى له شطآنا!

قل لتلك الحمائم البيض طيري

فالخطايا تدفقتْ طوفانا!!

☆☆☆☆

أَأُناجيكَ يا نجيّ الدراري

وأغنِّيك أغنياتي الحِسانا

إنَّ آفاقكَ البعيدةَ لا تطْـ

ـلِقُ للخاطر الحبيس عِنانا

حسبُكَ المجد، أن ترى كلَّ يومٍ

لأغانيك عنده مهرجانا

١٩٤٤

****

أحمد شوقي

عبقريٌّ مضى ليومِ حسابهْ
وثناءُ الأجيالِ ملءُ كتابهْ
شاعرٌ كانت الحصافةُ مجلا
هُ وسحرُ الآياتِ عفو خطابه
طافَ في هيكلِ الحقيقةِ وانسلْـ
ـلَ يناجي الجمالَ في محرابه
ولكم حثَّ للخيال ركابيـ
ـه وخلّى الخيالَ خلفَ ركابه
فعراه شبه الغرور وما كا
نَ ليصغي إلا لرجع ربابه
هكذا آفةُ النبوغِ غرورٌ
يفصمُ المرءَ عن كريم صحابه
كسَفينٍ هوجاءَ جُنَّ بها الرّكـ
ـبُ وأفقُ الأنواءِ في تِصخابه
لطمتْ عارض الخضمِّ فأرغى
فكّه واعتلى ضجيجَ عبابه
ومضتْ كالسهامِ ضاحكةً منـ
ـهُ ووسنى عن بطشهِ وعقابه

فرماها على الصخور فكانت

لقمةً مزّقت على أنيابه

شاعرَ الحبِّ كيف قد نِمْتِ عن لذّة العمرْ

أترى هل مللتها بعدما فزت بالوطر؟

هذه «كرمةُ ابنِ هاني» وهذي

وُرْقُها لم تزلْ تنوحُ كأمسِ

أرسلتْ طرْفَها على غير جدوى

تتحراك بين آسٍ وَوَرْسِ

وإذا ملّها انتظارُكَ هزّتْ

جُنحها وارتمتْ على غير غرس

وعرَا الحيرةُ الزهورَ فسارتْ

بينها الوشوشاتُ هجسًا بهجس

فكأني بها تسائل كيف اسْـ

ـتلَّ من بينها هَزار التأسي

شاعر الحبّ كم طويت أصيلاً

تحت أظلالها بِخلوةِ أنس

والأماني قطوفُها دانياتٌ

ويدُ الحُسن بين عودٍ وكأس

تستمدّ الإلهامَ منها فتُملي

كلَّ ما دقّ عن خيالٍ وحِسٍّ

كلُّ منظومةٍ كأن صدَاها

ذكرُ «ليلى» على مسامع «قيس»

سنةٌ قد خلَتْ ولكن رؤاها

لم تزلْ في الطروسِ تطفو وترسي

شاعرَ الحبِّ قل لنا أعنِ الموت من خبرْ؟

نحن في أمرِه كمن نطحَ الصخرَ فازدجرْ

إنْ تجدْني أقولُ ما لم يقلهُ
فيكَ في الشرقِ نادب وثكولُ
فلأني كرهتُ سخف ابن هاني
وابن أوسٍ ومَن به تدجيل
زلزلوا الأرضَ والسماء إذا ما
تَ حبيبٌ أو غاب عنهم خليل
رُبَّ نزرٍ من الأسى إخلاصٌ
وكثيرٌ من البكا تَضليل
أعذبُ الشِّعرِ ما يشعُّ به الصدْ
قُ وتمشي على خطاهُ العقول
فلئن عابني الحسودُ فلا لو
مُ فداءُ الحسّادِ داءٌ دخيل
وكفَى المرْءَ سُؤددًا وفخارًا
أنْ يعاديه حاسدٌ وجَهول
رُبَّ رقطاءَ في الفلا شفَّها الجُو
عُ وخارتْ وهزَّ منها الذُّبول
صَفَرتْ صفرةَ الجنون ولمّا
طاشَ حسبانها ضاق السبيل
حَرَّكَتْ نابها وعضَّتْ على البطْ
نِ وماتتْ ولم يبَلَّ غليل
أمة الضاد هذه حكمة الله في البشرْ
مات شوقي وقَبْلَهُ ماتتِ القادةُ الكبَرْ

****

أحمد الصافي النجفي

الشموعُ الصفراء حين سرى الليـ
ـلُ وألقى على الأنامِ بثوبِهْ
أحرقتْ روحَها لترسلَ منها
شعلةً تطعنُ الظلامَ بِلُبِّه
والغريقُ الذي تخبَّطَ في اليمْـ
ـم أتته السفينُ تسعى لجذبه
والسَّفينُ التي أضلَّ بها الليْـ
ـلُ هداها المنارُ في نور شهبه
والمنارُ الذي أضاءَ في الفلكِ
وحيدٌ يشقى بفادح خطبه
يزيدُ الموجَ وهو يلطمُ رجليْـ
ـهِ ليرى بارقَ النّعيمِ بشعبه
هكذا الشاعر المبرزُ يلقي
شعلةَ الأنس من جهنّمِ كربه
يعصرُ القلبَ حكمةً فيروي
تربةَ الفكرِ من عصارةِ قلبه
أيها الشاعرُ الذي أترعت كأسه سَقمْ
لم أجدْ مثلكَ امْرأً حظُّهُ عاثرُ القدم

أنكرتْ قدركَ الشامُ وأزرتْ

بكَ حتى لم يُحمَل الأزراءُ

في فمي ثورة العتابِ ولكنْ

أنا أخشى أن تغضبَ «الشّهباء»

حاربتْكَ الحُسَّادُ عهدًا ولا بِدْ

عٌ فداء الحسادِ داءٌ عياء

أطلقوا ذمَّهم عليك وهيها

تَ يُرجَّى من الحسود ثناء

كلما جئتَهُ بما ينعشُ الرو

حَ تبدّى في وجهه استهزاء

إن عينًا ترى الصّوابَ وتُغضي

لَهْيَ عينٌ مطروفةٌ عمياءُ

منتهى الفخرِ أن تُعادى فلولا الـ

ـعبقرياتِ لم تكُ الأعداء

أرسِلِ الشِّعرَ مثلما تطلبُ النّفْـ

ـسُ وحلِّقْ ما شاءتِ العلياء

وامْلأَنْ مسمع المولّهِ نجوى

فلنجواكَ يعذُبُ الإصغاء

غيرَ أني أحار في كلّ ما قلتَ من كَلِمْ

تارةً تبعثُ الصفا تارةً تقذفُ الألم

☆☆☆☆

قد قرأتُ «الخيامَ» في شعرك العَذ

بِ فخلتُ «الخيامَ» فيكِ يشامُ

كم تغنيّتُ في نعيمِ لياليـ

ـهِ بشعرٍ يحلو كما الأحلامُ

كم تغنّيتُ في بساطٍ عليهِ

نُثِرتْ أكؤسٌ وفُضَّ فِدام

وحواليهِ زمرةٌ من حسانٍ

هنَّ للنفسِ بغيةٌ ومرام

هذه فوق صدرِها رقصَ العو

دُ وسالتْ من روحهِ الأنغام

تلك من نشوةِ الطِّلا تمضغُ النّطـ

ـقَ وتغفو في الشفاهِ ابتسام

موردٌ من سعادةٍ ونعيمٍ

قد تساوى حلالُهُ والحرام

غيرَ أنّي أراكَ تنظرُ للعيـ

ـشِ بعينٍ عاشتْ بها الآلام

وعلى ثغرِكَ ابتسامةُ هزءٍ

طَبَعتْها من شؤمِها الأيام

كيف يلقاكَ – بعد عمرٍ طويلٍ –

شاعرُ الخمرِ والهوى «الخيّام»

دولةُ الشعرِ لم تزلْ أيها الشاعرُ العلَمْ

غيرَ رسمٍ مشتْ على حسنهِ أرجلُ القدم

شعراءُ الزمانِ يا قابَ الرأْ

يِ نعاني من أمرهم ما نعاني

لم يكدُّوا حناجرَ الشعرِ إلا

في سخيفٍ من فكرةٍ ومعاني

لا يزالونَ يندبونَ – وقوفًا –

فوق أطلالِ سالفِ البنيان

كيف يبكي الأطلالَ شاعرُ عصرٍ

فيه ما فيه من سنا العمران

ولَئن حاولوا النسيبَ فلا تسْ

مَعُ إلا نواحَةُ الأوزانُ

ليس تخلو من ذكر ظبيٍ وبانٍ

أيُّ حسنٍ في الظبيِ أو في البان

إن يكُ الشِّعرُ ما يرونَ فإني

منك يا شعرُ قد نفضتُ بناني

ما أرى الشّعرَ غيرَ رؤى الرو

حِ تجلَّتْ في محكمِ التِّبيان

بعضُها ضاحكٌ وبعضٌ عبوسٌ

في سماءِ الأفراح والأحزان

أيها الشاعرُ أعفِني قد كبا مني القلمْ

خانني عند فادحٍ زلزلَ الرّكنَ والحَرمْ

حلب ١٩٣٣

****

البتراء[1]

هل بمغناكِ بعدَ طولِ السِّفارِ
أثرٌ من قوافلِ الأحرارِ
أَتَمَشَّتْ عليه هوجُ الليالي
وشفت ما بصدرها من أوار
أَحَيَاءً وَجَمْتِ؟ أم خِفْتِ من أن
تلعبي في مقابر التّذكار!
بنتَ قيسون.. أيُّ جرحٍ أواسي
في هواكِ؟ وأي جرحٍ أُداري!
أين حُلْمُ زاهي المفاتن؟ سالت
بروَاهُ محاجرُ السُّمَّار!
نَسَجَتْهُ الصحراءُ فاكتستِ الدنْ
يا بأحلى عباءةٍ، وإزار
يوم هزَّ النبيُّ رايتَهُ الخضْ
راءَ في موكبِ السَّنَى الزُّخَّار
وأطَلَّتْ كتائبُ الله ترويـ
ـكِ بعبقِ النُّبُوَّة المعطار
فَتَمايلتِ، بين هَزَّةِ أعطا
فٍ، وتجريرِ ذيولٍ، وزغرداتِ فَخَار[2]

---

(١) ألقيت بمناسبة أربعين الشهيد عبدالرحمن الشهبندر رحمه الله.

(٢) جاء هذا البيت من سبع تفعيلات بزيادة تفعيلة على أصل البحر.

فتمنَّتْ عرائسُ الأرض لَو كُنْـ
ـنَ على معصمَيْكِ وشيَ سِوار

تلك نُعمى.. لَمَسْتِ في جانبيها
ما وراء الخلودِ من أسرار

إنما راعَكِ انعطافُ لياليـ
ـكِ على زيغِ عُصْبَةٍ فُجَّارِ

سفَحَتْ نخوةَ الجهاد على الكأ
سِ، وحُلْمَ العلى على المزمار

ومَشَتْ تحملُ المروءةَ قُرْبَا
نًا يُضَحَّى في هيكل الأوزار

الدَّمُ الطُّهْرُ من جراحِ عَليٍّ
أبدًا دافقٌ على الأدهار

طُرِقَتْ مُقْلَةُ الرسالةِ فيه
فَتَنَزَّتْ عن دمعها المدرار

وأقامتْ أحزامَ يَعْرُبَ، هذي
في اكتئابٍ، وهذه في اغبرار

لم يزلْ هولُ يومِها يقطعُ الأر
حَامَ ما بين هاشمٍ ونزار

بنتَ قيسونَ.. أي جرحٍ أواسي
في هواك؟ وأي جرحٍ أُداري

أيُّ غارٍ لجبهةِ ابن زيادٍ
ضَفَرَتْهُ أيدي الوفا؟ أيُّ غارِ؟

أَوَلَمْ يُسْرِجِ الخيولَ ويطلِقْـ
ـها خِفافًا خطافةَ الأبصار

تتخطّى مدى الطموحِ، فما تَعْـ
ـثُرُ إلا بأنجم ودراري
أينما أثْبَتَتْ حوافرَها الحمْـ
ـرَ أطلَّتْ كرائمُ الأوطار
فإذا النور خفقةٌ من عنانٍ
وإذا المجدُ حفنةٌ من غبار
يا جبال النسور.. في المغرب المهْـ
ـجور.. لا تشفقي على الأوكار
نَسْرُكِ البِكْرُ، طارقٌ، في كهوف السْـ
ـسجن دامي الجناح والأظفار
يلفظ الروح بين جلجلة القيـ
ـدِ وبين احتضارةِ الأنوار
ولموسى ابن النصير.. أنينٌ
تحت وَطْءِ الإملاقِ والإعسار
يبسط الكفَّ مُسْتَدرًّا بها الجو
د، ويمشي مُمَزَّق الأطمار
وبقايا حياته تَتَشظَّى
فوق أنيابِ جوعِه الكَفَّار
فكأنْ لم تنهضْ بموكبِهِ الدُّنـ
ـيا وتُنْغَل أفراسُه بالنُّضار
صفحةٌ.. تطعن الوفاءَ، وترمي
شرفَ الفتح بالخنا والصَّغار

بنتَ قيسون.. أيّ جرحٍ أواسي

في هواكِ؟ وأي جرحٍ أداري؟

☆☆☆☆

أيُّ ركبٍ على نداك مشى من

حلبٍ.. خافقِ البنود، مُثار

وفَتاهُ أسنى أهِلَّةِ حمدا

نَ وأدهى فوارسِ المضمار

يقطعُ الدّربَ والمنى البِيضُ تحْـ

ـدوه بصنجٍ من الوُلوع وطار

وتُريه الأجيالَ ترنو إليه

فوق أنقاضِ عرشِها المنهار

فَعَراهُ ما يَعْتَري الأَسَدَ المئـ

ـنافَ إن زجَّهُ القضا في الأسار

وكبيرُ الفؤادِ ما اهتزَّ إلا

برغابٍ على الزمان كبار

هبط الغوطةَ النديَّةَ يطوي

ما عليها من مُخْجِلِ الآثار

ويَسِلُّ النفوسَ من حَمْأةِ الذُّلِّ

ويُذكي إباءَها المتواري

وإذا ما استوى على الذْرَةِ الشّمْـ

ـماءِ بين الإجلالِ والإكْبَار

رنَّ في سمعه الرهيفِ فحيحُ

لأفاعٍ وخَشّةٌ لِضَواري

فإذا الخُنَّعُ العجافُ تناجي

غَطْفَ كافورَ ضحكةِ الأقدار

فتنةٌ ما أرادَ أن يقطعَ الأو

صالَ فيها ما بين جارٍ وجار

فَثَنَى جيدَ مُهرِهِ، ساهيَ الطَّرْ

فِ جريحَ المنى، غريبَ الدِّيار

بنتَ قيسونَ.. أي جرحٍ أواسي

في هواكِ؟ وأي جُرحٍ أداري؟

☆☆☆☆

أين تاجٌ بِحُبِّهِ خاضتِ الأَحْـ

ـرارُ عبرَ الدما وعبْرَ الدمار

يلتقي في ظلاله بسمة النو

رِ، وفَوحُ الندى، وطِيبُ النُّجَار

إرثُ مُلكٍ أطلَّ من حَدَقِ الدهـ

ـرِ سخيًّا من بعد طول انتظار

فاشرَأَبَّتْ أعناقُ سيناءَ شوقًا

تسألُ العرشَ هل له من قرار

فيصَلٌ.. دمعةُ المسيح على الإثـ

ـمِ، وسيفُ النبيِّ للأوزار

أيُّ فَرْقٍ كَفَرْقِهِ يَصْدَعُ التَّا

جَ بتاجِ السَّنا، والوقار

قام بالعبءِ مؤمنًا وخطاهُ

بالتَّحايا محفوفةٌ والعِمَار

وإذا كـادت الأمـانـيُّ تـخْـضَـرْ

رُ وتـأتـي بـأطـيـب الأثـمـار

طـعـنـتـه الأيـدي الـتـي بـايـعـتـه

ورمـتـه مـشـرَّدًا فـي الـقـفـار

فَـخَـوَتْـهُ فـي صـدرهـا الـحُـرِّ بـغـدا

دُ وتـاهـت بـه عـلـى الأمـصـار

بـنـت قـيـسـونَ.. أيّ جـرحٍ أواسـي

فـي هـواكِ؟ وأي جـرحٍ أداري؟

☆☆☆☆

مَـنْ عـلـى الـنّـعـشِ؟ مـائـجًـا فـي خِـضَـمٍّ

آدمـيٌّ الإزبـادِ والإعْـصَـار

تحـت فـيـضِ الأذان، مـن لَـهَـواتٍ

دامـيـاتٍ مـع الأذان، جِـرار

أقَـتـيـلٌ؟ مَـن الـقـتـيـلُ؟ أبِـيٌّ

أيُـبَـاريـه فـي الإبـاءِ مُـبَـار؟

أتَـغـضِـيـنَ؟ فـي تَـنَـهُّـدَةِ الـصَّـمْـ

ـتِ وفـي غـصَّـةِ الأسـى الـقَـهَّـار

قـد عَـرَفْـتِ الـفـتـى، فَـضُـمِّـيـهِ فـي عَـقْـ

ـدِ الـضـحـايـا الـغـوابـرِ الأبـرار

ابـنُ سـتـينَ، كـلُّ يـومٍ عـلـى الخُـلْـ

ـدِ ربـيـعٌ مُـنـوِّرُ الأزهـار

لـم يَـلِـنْ لـلـخُـطـوبِ جـنـبًـا، ولـم يُـو

سَـمْ بـوهـنٍ، ولـم يُـقَـلْ مـن عِـثـار

مــن نــضــالٍ إلــى نــضــالٍ، فــطــوْرًا

بِــيَــرَاعٍ، وتــارةً بِــغــرار

رُبَّ لــيــلٍ طــواه، والمــجــدُ سـهـرا

نُ عــلــى رجــعِ أغــنــيــاتِ الــشِّــفــار

ومــيــاديــنَ خــاضَــهــا، وخــيــالُ الْــ

ــمــوتِ بــيــن الــلــقــا وبــيــنَ الــنِّــفــار

وصــخــورٍ، أغــفــى عــلــيــهــا طــريــدًا

بــيــن نــابِ الأذى وظُــفــرِ الــخــطــار

وأتــى مــصــرَ، مــثــلــمــا تَــزْلَــقُ الــنــعــجــةُ

عــن حَــدِّ مُــدْيَــةِ الجَــزَّار

يــرقُــب الــدارَ مــن بــعــيــدٍ فــمــا يَــلْــ

ــمَــحُ إلا الجــدارَ فــوق الجــدار

ومــحــامــيــن دونــهــا لــم يُــجــيــدوا

غــيــرَ فَــنَّــيْ هــزيــمــةٍ وفِــرار

فَــدَوَى صــوتُــه، فــمــزَّقَ عــن أو

جُــهِــهــم كــل بــرقــعٍ وسِــتــار

حــمــلــوا حــقــدَهــم كــمــا يــحــمــل المــذ

بــوحُ أنــقــاضَ روحــه لــلــثُّــار

ورمَــوْهُ بــمــثــلِــهــم مــن نــفــوسٍ

تــتــهــادى عــلــى يَــدَيْ كــلِّ شــار

مــا رَعَــتْ حــرمــةَ الــســنــيَن إذا لــم

تَــرْعَ حــرمــاتِ مــجــدِهــا والــفــخــار

فأتت تَجْتَديه عَطْفًا، وكأسٌ

بيمينٍ، وخنجرٌ بيسار

فإذا شيبةُ الجهادِ خضيبٌ

تحت أقدامها، فيا للعار

وكأني أراهُ في سكرةِ المو

تِ وفي مقلتيه وهجُ ازورار

لا ارتياعًا، لكنها غضبةُ الحُرْ

رِ على هَتْكِ عهده، والذّمار

لم يَجِدْ حوله سِوى شبحِ الغدْ

رِ حسيرًا عن أهْرَتِ الشّدْقِ، ضار

لا مواضيهِ قُطَّعٌ تخلعُ المو

تَ وتطوي مساحبَ الأعمار

لا ولا خيلُه تعضُّ على اللُّجْـ

ـمِ جُنونًا تحت القنا الخَطّار

فاعذُريه، إذا ترقرقَ في جفْـ

ـنيه ما يشبه الدموع الجواري

فَمِنَ المبكياتِ.. أن تُقْتَلَ الأحْـ

ـرارُ في غيرِ ملعب الأحرار

☆☆☆☆

إيهِ عبدَالرحمن.. ماجَ بيَ المنْـ

ـبَرُ، فانْزَعْ يديَّ عن أوتاري

لا تَدَعْني أُريقُ دمعَ اليامين

نَ، وأُلْقِي الهشيمَ فوق النار

قُــمْ تــكــلَّــمْ.. فــمــا أطــيــق اســتــمــاعًــا

لأنــاشــيــدِ جُــرجِــك الــفَــوَّار

☆☆☆☆

بــنــتَ قــيــســونَ.. أنــتِ أنــتِ ســتــبــقــيْـ

ـــنَ عــلــى الــدهــرِ قِــبْــلَــةَ الأنــظــار

ضَــمِّــدي ضَــمِّــدي الجــراحَ وســيــري

ســيْــرَ لا خــائــفٍ ولا خَــوَّار

لــن تمــوتــي.. فــكــاهــلُ الأرض لا يقـ

ـــوى عــلــى حــمــلِ نــعــشِــكِ الجَــبَّــار

****

مرابع الخلد[1]

مرابعَ الخلدِ أضنى جفنيَ السهرُ
وملّني صاحباي: الكأسُ والوترُ
حملتُ حبّكِ أشجانًا مؤرقةً
وما انقضى ليَ من نعمائها وَطَر
فكم أسلْتُ على نجواكِ حنجرتي
وللنجومِ على ألحانها سمر
ما كنتِ إلا الأديمَ السمحَ باكرَهُ
وبلٌ من الملأِ العُلويِّ مُنهمر
فما تكشّفَ فجرٌ عن كمائمهِ
إلا وذيل العلى من نفحها عَطِر
فأين أشتاتُ أطلالٍ نعمت بها
والدهرُ دونكِ فيما شئتِ يأتمر
أقلّبُ البصرَ المشدوهَ أسألُهُ
عنها، فَيُغضي على استحيائه البصر
تقاسمتْكِ يدُ الأهواء فاختلفتْ
على مقاصيركِ الراياتُ والسُّرُر
وما (الفُراتانِ)، ما (الأردنُّ)، ما (بردى)
إلا الشرايينُ في جنبيكِ تنتشر
وما ضَمَمْتِ سوى شعبٍ له نسبٌ
لم تختصمْ (تغلبُ) فيه ولا (مُضَر)

---

(١)من شعر عمر أبو ريشة.

أمسى، وكلٌّ فريقٍ بعد فُرقته
أسوانُ، لي غُصَص الأشواق ينفطر

لم يخفرِ العهدَ إيمانًا بوحدته
إذا الألى حكموا في أمره خفروا

دعاهُمُ الشرفُ المطعونُ منتحبًا
والقدسُ تحت سياط البغيِ تحتضر

فَيَمّموها على كُرْهٍ وكلُّ أخٍ
في خَطْبه، من أخيهِ خائف حَذِر

ومِصْرُ في زحمةِ الأهوال صامدةٌ
والغدرُ يأخذ منها فوق ما يَذر

فأمسكتْ بالجراح الحمرِ صامتةً
والثأرُ في صدرها المئناف ينتظر

فلم تُمَنِّنْ بما أعطتْه من فَلَذٍ
«إنّ الكريمَ لَيُعْطي وهو يعتذر»

إلا فتًى بينهم، يهتزُّ مُدَّكِرًا
أسلافَهُ الصِّيْدَ، إن الحُرَّ يدَّكِر

☆☆☆☆

ملاحمُ التَّضحياتِ الغرِّ ما ذهبتْ
ببكرِ روعَتِها الأيامُ والعُصُر

يا من رأى فارسَ اليرموك يخلفه
أبو عبيدةٌ، والهيجاءُ تستعرُ

فما أحسَّ بجرحٍ في كرامته
ولا ثنى عزْمَه حقدٌ ولا كَدَر

مضى ولم يستبقْ طعناتِه بطلٌ
ولا تأخَّرَ عن ميعادِه ظَفَر

فصاحَ في صحبِهِ الأبرارِ مبتسمًا
والمجدُ في نشوةِ الإصغاء مُنْغَمِر

إنا نقاتلُ كي يرضى الجهادُ بنا
ولا نقاتلُ كي يرضى بنا عُمَر

☆☆☆☆

يا مصرُ دارتْ بنا الأيامُ دورتَها
وطالعتنا بها الأحداثُ والغِيَر

نمُرُّ من حَرَمِ التاريخ في خجلٍ
وما لنا عن حياضِ الثأر مُصْطَبَر

لم نربَحِ الجولةَ الأولى فلا خسرتْ
على الغد المُشتَهى جولاتُنا الأُخَر

كم نازلَتْنا الليالي الدهمُ فانكفأتْ
وحول أعناقِها من وشمِنا أثر

☆☆☆☆

يا مصرُ هذي ربوعُ الشام عاودَها
فجرٌ عن الأمل المعسولِ يَنحسر

أغضتْ على صلف القربى وأَثْرَتِها
وجَفْنُها بخضيبِ الحلمِ منكسر

أثَرْتِ بالصرخةِ الزهراء نخوتَها
فهانَ دون خُطاها المسلَكُ الوَعِر

ولاح قائدُها المأمولُ، فالتفتتْ
إليه، وانطلقتْ بالشهبِ تَأْتَزِر

إن الألى شربوا من كأسِها سَكروا

وعَرْبَدوا ما أراد اللهوُ والأَشَر

وأرسلوا الحُكْمَ فوضى لا زمام له

كأنه بين أقدام الهوى أُكَر

إنْ طولبوا نَهروا، أو حُوسبوا نفروا

أو عوتِبوا مكروا، أو غوضِبوا غدروا

ألم يكونوا منـاراتِ الجهاد إذا

دجَا بنا ليلُنا واحولَك القدرَ؟

هذا البناءُ الذي قرَّتْ دعائمهُ

في كلِّ زاويةٍ منه لهم حَجَر

يا للرئاساتِ كم عزَّتِ مفاتنُها

وكم كبارٍ على إغرائها صَغُروا

ناموا على بهرَجِ الدنيا وما علموا

أنَّ الفراشَ على المصباحِ ينتحر

☆☆☆☆

يا مصرُ، تلك شجونٌ ما انفجرتُ بها

لو لم تكن ببقايا القلبِ تنفجر

لم أحبسْ الشِّعرَ في عيدٍ يرفُّ به

على مغانيك مخضلٌّ ومزدهِرُ

لكن نظرتُ إلى الفاروق فاقتتلتْ

على هواه المعاني فاكتفى النظر

حسبي من القول هذا يومُ بيعتهِ

والروضُ بالأرَجِ الفوَّاحِ يُختصر

****

حماة الضيم

عاتَبْتِه ونسيتِ طيبَ نجارِهِ
وأبيتِ أن تصغي إلى أعذارِهِ

تلك البقيةُ من سلافةِ حلمِهِ
نضبتْ ولم تنقع غليلَ أواره

أوَمَا لمحتِ على كآبةِ صمتِهِ
ما شقت الأقدارُ من أستاره

كانت له خيلاؤُه، أيامَ لم
تهتكْ بناتُ الدهرِ حرمةَ داره

أين انطلاقُ خيالِهِ في ملعبٍ
روّى الجفونَ الرمدَ من أنواره

كم نجمةٍ وثبتْ لتلثمه فلم
تظفرْ به، فتعلقتْ بإزاره

ولكم تموَّجَ في صداهُ نديُّه
والعزُّ بين يديه من سُمَّاره

غنَّى عريقَ فخاره حتى أتت
دُهمُ الخطوبِ على عريق فخاره

فذري العتابَ فلن يهزَّكِ لحنُهُ
ما دام مغموسًا بذلِّ إساره

لو شاء بثَّ شجونِهِ لتكسَّرتْ
منها أصابعُه على أوتاره

وطنٌ أذاب على هواه شبابَهُ
وحباهُ بالمأثور من أشعاره

المجد يخجل أن يجيلَ الطّرفَ في
ما هدَّم الجبناءُ من أسواره

فكأنه من نيله لفراتهِ
حَمَلٌ تجاذبه يدَا جزّاره!

ما ذنبُ فتيته إذا شبَّتْ ولم
تلمحْ بتربتهِ خُطا أحراره

تركتْ لها آباؤها الإرثَ الذي
يبقى مطوِّقها بلعنةِ عاره

هل في روابي القدس كهفُ عبادةٍ
تحنو جوانبه على أحباره

خشب الصليبِ على الرمال مخضَّبٌ
بدماء من نعموا بطيب جواره

فإذا سبيلُ الحقِّ منفضُ الضُّوى
تاهتْ به الطلقاء من زُوَّاره

وإذا قوافلُه العِجافُ طريدةٌ
والبغيُ يقذفها بمارجِ ناره

كم مُتعبٍ جرَّ السنينَ وراءَهُ
ومشيبُه يبكي جلالَ وقاره؟

متلفّتًا صوبَ الديار مودّعًا
وخطاهُ بين نهوضهِ وعِثاره

كم حُرَّةٍ لم تدرِ عينُ الشمسِ ما

في خدرِها، أغضتْ بطرف كاره

وبناتها وجلى، تضجُّ أمامَها

والرجسُ يدفعها إلى أوكاره

بمنِ استجارت هذه الزُّمرُ التي

مدَّ الزمانُ لها يدَ استهتاره؟

العُرْيُ ينشرها على أنيابه

والجوعُ يطويها على أظفاره

فلربَّ سكيّرٍ شدا مترنحًا

ودموعها ممزوجةٌ بعقاره

ولربَّ متلافٍ أشاح بوجهه

عنها، وملء البيد سيل نُضاره

حسبتُ بناء العرب مسموكَ الذرى

تتحطَّمُ الأحداثُ دون جداره

فإذا البناةُ على ذليلِ وسادِها

تغفو عن الشرفِ الذبيحِ وثاره!

مهلاً حُماةَ الضيم إن لليلنا

فجرًا، سيطري الضيمَ في أطماره

ما نام جفنُ الحقد عنك وإنما

هي هدأةُ الرئبالِ قبلَ نفاره

١٩٤٨

****

هكذا

صاحَ يا عبدُ.. فرفَّ الطيبُ واسـ

ـتَعَرَ الكأس، وضج المضجع!

منتهى دنياهُ، نهدٌ شَرِسٌ

وفمٌ سمح؛ وخصرٌ طَيِّعُ

بدويٌّ، أورقَ الصخرُ له

وجرى بالسلسبيلِ البلقعُ

فإذا النخوةُ، والكبرُ على

ترفِ الأيام جرحٌ موجع..

هانت الخيلُ على فرسانها!

وانطوتْ تلك السيوفُ القُطَّع

والخيام الشمُّ مالتْ، وهوتْ

وعوتْ فيها الرياحُ الأربع

قال.. يا حسناء ما شئتِ اطلبي

فكلانا بالغوالي مولع

أختكِ الشقراء، مدَّت كفَّها

فاكتسى من كل نجمٍ إصبع!

فانتَقِي أكرمَ ما يهفو له

معصمٌ غضٌّ، وجِيدٌ أتلع!..

وتلاشى الطِّيبُ من مخدعهِ..

وتولّاه السباتُ الممتع

والذليلُ العبدُ، دون البابِ

لا يغمض الطرفَ، ولا يضطجع!

والبطولاتُ، على غربتِها،

في مغانينا، جياعٌ خُشَّع

هكذا.. تُقتحم القدسُ على

غاصبيها.. هكذا تُسترجع!!

١٩٥٤

****

في طائرة[1]

وثبتْ تستقربُ النجمَ مجالا
وتهادتْ تسحبُ الذيلَ اختيالا
وحيالي غادةٌ تلعب في
شَعرِها المائج غنجًا ودلالا
طلعةٌ ريَّا؛ وشيءٌ باهرٌ
أجمالٌ؟ جلَّ أن يُسمى جمالا
فتبسمتُ لها، فابتسمتْ
وأجالت فيَّ ألحاظًا كسالى
وتجاذبنا الأحاديثَ فما
انخفضت حسًّا ولا سفَّتْ خيالا
كلّ حرفٍ زلَّ عن مرشفِها
نثر الطيبَ يمينًا وشمالا!
قلت يا حسناءُ، من أنتِ ومِن
أيِّ دوحٍ أفْرَعَ الغصنُ وطالا
فرنتْ شامخةً أحسَبُها
فوق أنساب البرايا تتعالي

(١) «كان في رحلة إلى تشيلي، وكانت إلى جانبه حسناء إسبانيولية، تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب، دون أن تعرف جنسية من تحدث»:

وأجابت أنا من أندلسٍ

جنّة الدنيا عبيرًا وظلالا

وجدودي، ألمحُ الدهرَ على

ذكرهم يطوي جناحيه جلالا

بوركتْ صحراؤهم كم زخرتْ

بالمروءات رياحًا ورمالاً

حملوا الشرقَ سناءً وسنًى

وتخطُوا ملعبَ الغربِ نضالا

فنما المجدُ على آثارهم

وتحدّى، بعد ما زالوا، الزوالا

هؤلاء الصِّيدُ، قومي، فانتسبْ

أن تجدْ أكرمَ من قومي رجالا!

☆☆☆☆

أطرق القلبُ، وغامت أعيني

برؤاها، وتجاهلتُ السؤالا!

١٩٥٣

****

نسر

أصبح السفحُ ملعبًا للنسورِ
فاغضبي يا ذرى الجبالِ وثوري
إن للجرح صيحةً، فابعثيها
في سماع الدنى، فحيحَ سَعيرِ
واطرحي الكبرياء شلوًا مدمًّى
تحت أقدام دهركِ السِّكيرِ!!!

☆☆☆☆

لملمي يا ذرى الجبالِ بقايا النْـ
ـنَسرِ وارمي بها صدورَ العصور
إنه لم يعد يكحّل جفنَ النْـ
ـنَجم تيهًا بريشهِ المنثور!
هجرَ الوكرَ ذاهلًا، وعلى عيـ
ـنيهِ شيءٌ، من الوداع الأخير
تاركًا خلفه مواكبَ سحبٍ
تتهاوى من أفقها المسحور
كم أكبَّت عليه وهي تُندِّي
فوقه قُبلةَ الضحى المخمور

☆☆☆☆

هبط السفحَ... طاويًا من جناحيـ

ـهِ على كل مطمح مقبور

فتبارت عصائبُ الطير ما بيـ

ـن شرودٍ من الأذى ونَفور

لا تطيري، جَوَّابةَ السفحِ، فالنَّسْـ

ـرُ إذا ما خبرته لم تطيري

نَسَلَ الوهنُ مخلبيه، وأدمتْ

منكبيه عواصفُ المقدور

والوقارُ الذي يشيع عليه

فضلةَ الأرثِ من سحيق الدهورِ!

☆☆☆☆

وقفَ النسرُ جائعًا يتلَوَّى

فوق شلوٍ على الرمالِ نثيرِ

وعجافُ البُغاث تدفعه بالْـ

ـمخلبِ الغضِّ والجناحِ القصير

فسرت فيه رعشةٌ من جنونِ الـ

ـكبر واهتَّز هزَّةَ المقرور

ومضى ساحبًا على الأفق الأغـ

ـبرِ أنقاضَ هيكلٍ منخور

وإذا ما أتى الغياهبَ واجتا

زَ مدى الظن من ضمير الأثير

جلجلتْ منه زعقة نشّت الآ

فاقُ حرّى من وهْجها المستطير

وهوى جثّةً على الذروة الشمْـ

ـماءِ في حضن وكره المهجور!

☆☆☆☆

أيها النسرُ هل أعودُ كما عدْ

تَ، أمِ السفحُ قد أماتَ شعوري؟!

١٩٣٨

****

طلل

مر بصرح روماني قديم، لا يستطيع غير الظن أنه يتحدث عن ماضيه، واسترعى انتباهه خلوه من الشوك وتألق ترابه النظيف.

فقال في نفسه: إن الموت يقف أمام ضحيته مجروح الكبرياء، لأنه لا يستطيع أن يفتك بها أكثر مما فتك.

قِفي قَدَمِي! إن هذا المكانَ
يغيبُ به المرءُ عن حسِّهِ
رمالٌ، وأنقاضُ صرحٍ هوىْ
أعاليهِ تبحث عن أسِّهِ
أقلِّبُ طرفي به ذاهلا
وأسألُ يوميَ عن أمسِهِ
أكانت تسيل عليه الحياةُ
وتغفو الجفونُ على أُنسِهِ
وتشدو البلابلُ في سعدِهِ
وتجري المقاديرُ في نحسه
أأستنطقُ الصخرَ، عن ناحيتهْ
وأستنهضُ الميتَ من رِمسه
حوافرُ خيلِ الزمان المشتِّ
تكادُ تحدِّثُ عن بؤسه

فما يُرْضِعُ الشوكَ من صدرهِ

ولا يَنعَبُ البومُ في رأسِه

وتلك العناكبُ مذعورةٌ

تريدُ التلفُّتَ من حبسه

لقد تعبتْ منه كفُّ الدمارِ

وباتتْ تخافُ أذى لمسه

هنا ينفضُ الوهمُ أشباحَهُ

وينتحرُ الموتُ في يأسِه

١٩٣٧

****

بلبل[١]

حلمٌ تخلّى عنه في رغدِهِ
هل يقدر النوحُ على ردِّهْ
لو يعلم الصيادُ ما صيدهُ
لم يجعلِ البلبلَ في صيده

☆☆☆☆

ألفيته ينثرُ ألحانَهُ
كأنما ينثرُ من كبْده
وإلفه المشفقُ، ظلٌّ له
باقٍ، كما كان على عهده
مُدلَّهُ اللفتات مستوحشٌ
طاوٍ جناحيه على وجده
كم أطبقتْ منقارَهُ غصّةٌ
فمدّه ينقر في قيده
أسقمه العيشُ على وفرهِ
لما رآه ليس من كدِّه
وأين مخضلُّ الجنَى حولَهُ
من زنبقِ الروضِ ومِن ورده

☆☆☆☆

(١)قال الجاحظ: البلبل لا ينسل في قفص.

طوى المنى نوحًا ولكنما
لم يغنهِ النَّوحُ ولم يجدْه

فعاف دنياه ولم يتخذْ
عِشًّا، ولم يحملْ سوى زهده

كأنه من طول ما مضّه
من عبث الدهر ومن كيده

أبى عليه الكبرُ أن يورثَ
الأفراخَ ذلَّ القيد من بعده

١٩٤٠

****

مصرع الفنان[1]

نــــامَ عــن كـــأســـهِ وعـــن أحــبــابــهِ
قـبـل أن يـنـقـضـي نــهــارَ شـبـابـهْ
نـــام عـــن ســكــرةِ الـحــيــاةِ وقـــد جـفْـ
ــفَ شــــرابُ الــســلــوان فـــي أكــوابــه
بــســمــاتُ الـــرضـــى عـــلـــى شـفـتـيـه
وشــتــاتُ الـــــرؤى عـــلـــى أهـــدابـــه
وبــنــاتُ الـــغـــروبِ تــســكــب فـــي أذنـــ
ـــيـــهِ مـــوجـــات عـــــوده وربـــابـــه
لابـــســـاتٍ حـــمـــرَ الـــمـــآزر مـــرّتْ
ريـــشـــةُ الأفـــــقِ فـــوقـــهـــا بـخـضـابـه
راقـــصـــات فــــي حـلـقـة مـــن عـبـاب الــ
ــلــهــو.. والـــرقـــص مـــوجـــة مــن عـبـابـه
رقــــصــــاتٍ الـمـطـهـمـاتِ مـــن الـخـيـ
ــيــلِ بـــعـــرسٍ يمـــوج فـــي تِـخـضـابـه
يـــا بـنـاتَ الـــغـــروبِ قـــد نـفـض الـلـيـ
ــلُ عـــلـــى الــكــون حــالــكــاتِ نـقـابـه
احـمـلـي الـــراحـــلَ الـغـريـبَ وسـيـري
بـــالـــزغـــاريـــدِ ســـلـــوةً لاغــتــرابــه

(١)«مات صديقه الموسيقار كميل شمبير وأنامله على الأوتار».

وادخـلـي هـيـكـلَ الـفـنـون وأبـقـيـ

ـه سـراجًـا يـضـيء فـي مـحـرابـه

☆☆☆☆

لـفـتـة نـحـو أمـسـه

أيـهـا الـشـاعـر الـعـلـمْ

إن فـي سـفـر عـمـره

صـفـحـاتٍ مِـن الألـمْ

☆☆☆☆

مـلّ دنـيـاه بـعـد مـا سـئـم الـسـيـ

ـرَ عـلـيـهـا وضـاق فـي بـلـوائـه

مـورد الـفـن مـظـلـم لـم يـصـوِّبْ

فـوقـه الـشـرق مـشـعـلًا مـن ضـيـائـه

سـار فـيـه.. وظـلـمـة الـيـأس تـطـفـي

تحـت أنـفـاسـهـا شـمـوعُ رجـائـه

والـصـخـور الـجـسـام نـاتـئـةُ الأنْـ

ـيـابِ تـدمـي أقـدامَـه وهـو تـائـه

ورؤوس الأشـواكِ تـرتـد عـنـه

وعـلـيـهـا ممـزقٌ مـن ردائـه

والأفـاعـي تـفـحُّ مـن كـل صـوبٍ

نـازعـاتٍ إلـى امـتـصـاص دمـائـه

والأمـانـي أمـام عـيـنـيـه أطـيـا

فُ سـرابٍ تمـوج فـي بـيـدائـه

فـحـنـى رأسَـه الـكـئـيـبَ وألـقـى

بـعـصـاه، وضـجّ فـي بـأسـائـه

وانثنى عائدًا يشيِّع حلمًا
يتلاشى من مقلتيْ نعمائه
عودةَ الشاكل الحزين وقد نفْـ
ـفَضَ كفيه من ثرى أبنائه

☆☆☆☆

ليس يرجو من الورى
بسمةً تغسلُ السَّقمْ
أحزمُ الناسِ عاقلُ
لمسَ الجرحَ وابتسمْ

☆☆☆☆

ضاق في وجهِهِ الفضاءُ وما في
قوسه نبلةٌ لصونِ كيانه
رعشاتُ الذهولِ في مقلتيه
وعتابُ الزمانِ فوق لسانه
فحوته في صدرها ألحانةُ الحمـ
ـراءُ خوفًا عليه من أحزانه
وهوى ينحر الكآبة نحرًا
بين نعمى أوتارهِ وحسانه
وانبرى يكرعُ المدامةَ حتى
هرئتْ لثَّتاه عن أسنانه
ويعبُّ الدخانَ حتى استحالتْ
رئتاهُ مَجامرًا لدخانه
خالعًا معطفَ الوقار مكبًّا
فوق شهواته طليق عنانه

لا تَلوموه في ضلال خطاه
ربَّ طهرٍ.. الرجسُ من أركانه

☆☆☆☆

جعل اللهو سلوةً
تحمل السمَّ في الدَّسمْ
لا يبالي صريعها
عبس الكون أم بسمْ

☆☆☆☆

يا لها سكرة لقد أطلقتْهُ
من قيودِ الملا ومن أتراحهِ
غسلتْ عن فؤادهِ ألم العيـ
ـشِ وألوتْ بباقياتِ كفاحه
وأرتْهُ طيوفَ آماله الغـ
ـرِ عذارى يطفن فوق وشاحه
حاملاتٍ على سواعدها البيـ
ـضِ أكاليلَ فوزه ونجاحه
فغفا هاتفًا بسكرته الهو
جاءِ والروح ممعن في رواحه
قبل أن يطلع الصباح عليه
ويرى الحلمَ كاذبًا في صباحه
هكذا الوهم للمحبِّط في اليأ
سِ ضمادٌ وبلسمٌ لجراحه
زحفَ الفجرُ باتئادٍ كنسْرٍ
قَصَّتْ الريحُ ريشه من جناحه

وأتى جثةً فصبَّ عليها
دَفَقاتٍ من عطفه وسماحه
والندى لم يزل عليها دموعًا
سِلن من زفرةِ الدجي ونواحه

☆☆☆☆

هكذا لاح واختفى
في خضمٍّ من الظُّلَمْ
تاركًا فوق أرضه
ضجر الروح والسَّأمْ

☆☆☆☆

ليت شعري وقد توارى وشيكًا
أطروبٌ أم بائسٍ في بعادهْ
ما أظنُّ الآلامَ في عالم الرو
حِ تزجي شراكَها لاصطياده
قد كفاهُ ما ذاق في دنياه
من لئام الورى، ومن حسَّاده
أهملتْ شأنَهُ البلادُ وصمَّتْ
أذنيها عن دمدمات فؤاده
فَتَحتْ صدرها لكل دخيلٍ
فاغر الشّدقِ واثبٍ في عناده
وسقتْهُ كأسَ الهنا دهاقًا
وفتى الفنِّ ظامئٌ في بلاده
لم يكن ذاك عن ذهولٍ ولكن
يرغب الهرُّ في دما أولاده

إنمـــا لـــم تـــزلْ رفـــاقٌ لـيـالـيـه

كـــرامًـــا عـلـى عـهـودِ وداده

تَجـمَـعُ الخـمـرُ شـمـلَـهـم فـيُـخـلَّـو

نَ فـــراغ اتـكـائـه واسـتـنـاده

كـلـمـا مـــرَّ ذكـــره قـلـبـوا الـكـأ

سَ عـلـى الأرض حـسـرة لافـتـقـاده

☆☆☆☆

صــفــحــةُ الحــــبِّ والــهـــوى

والأهـــــازيـــجِ والـنـغـمْ

قـــد طــوتــهــا يـــد الــــردى

فــهـــي فـــي حـــجـــرةِ الـــعـدم

☆☆☆☆

لـسـت أنـسـى الـنـاقـوسَ لـمـا نـعـاهُ

والمـصـلّـى يمـوج فـي أحـبـارهْ

ورؤسَ الـرجـالِ مـطـرقـةً، والــ

ـحـزنَ سـاجٍ مـسـربـلٍ بـوقـاره

والمـنـاديـلَ فـي أكـف الـغـوانـي

تـشـربُ الـدمـعَ مـن مـقـرّ انـفـجـاره

حـمـلـوه فـي نـعـشـهِ الأبـيـضِ الـلـو

نِ وسـاروا كـتـائـه فـي قـفـاره

وَحَـــدُوهُ بـكـلِّ لحـنٍ شـجـيٍّ

سـرقـتـهُ الآذان مـن أسـراره

إيـــــهِ ألحـــــانـــــهُ وأنـــــــتِ حـنـــينٌ

سـَـــال مـــن روحـــــــهِ عـلـــى أوتـــــاره

رافــقـــيـــه فـــي أفـــقـــه فَـــهْـــو ظمآ

نُ بـعـيـدُ الـعـهـودِ عـن قـيـثـاره

ربّ ورقـــاءَ فـــي الـفـضـا الـرّحـبِ لما

زقـــزقَ الـفـرخُ شـاكـيًا مـن أواره

أطـبـقـتْ فـوق صـدرهـا مـن جـنـاحـيـهـا

وأهـــوتْ كـالـنـجـم عـنـدَ انـهـيـاره

وأكـبَّـت عـلـيـه تمـنـحـهُ الـعـطـ

ـفَ ومـنـقـارهـا عـلـى مـنـقـاره

١٩٣٦

****

جان دارك[١]

الفجرُ أومأ، والبتو
لُ بحلمِها المعسولِ نشوى

حتى إذا أطيافُهُ
نفرتْ مِن الأجفانِ عَدْوا

أخذتْ تمطّى والفتو
رُ يهزّها عضوًا فعضوا

وغطاؤها المعطارُ يز
لقُ عن ترائبِها ويُطوى

وأكفُّها في شَعرها
تزداد دغدغةً ولَهْوا

والناهدانِ بصدرها
يتواثبان هوًى وشَجْوا

فَتَشِدّ فوقهما وِسَا
دَتَها وفي شغفٍ تلوى

هيهات تُروى والحيا
ءُ خَدِينُها هيهاتَ تُروى

☆☆☆☆

(١)رأى في معرض «اللوفر» بباريس صورة فتاة رائعة الجمال على صهوة جواد أدهم، فاستغرب عندما علم أنها «جان دارك».

نظرتْ إلى مِرآتها
والشَّعرُ مضطربُ الضفائرْ

ولحاظها بثمالةِ ال
أحلامِ ساهيةٌ فَواترْ

وقميصُها المحلولُ فو
قَ تواثبِ النهدينِ حائرْ

فاستعرضتْ عيشًا كما
شاء الهوى ريّان عاطِرْ

وتمثلتْ خِدنًا يحلُ
لُ براحتيه لها المآزرْ

ويضمّها شغفًا وتهـ
ـمي فوقها القُبَلُ المواطرْ

فتجلجلتْ خجلاً وغَضْـ
ـضَتْ بالشهيِّ من الخواطرْ

وتنهَّدتْ ألمًا وأطـ
ـبقت الجفونَ على المحاجر

☆☆☆☆

وقفتْ تصلّي هيبةً
والنفسُ خاشعةٌ كئيبهْ

وصليبها القدسيُّ يرمقها
بنظراتٍ رهيبهْ

فتزحزحتْ أجفانُها
عن دمعة القلقِ السّكيبهْ

وفـــؤادهـــا المـــخـــذولُ يـكْـ

ـتِـمُ فـي مـخـاوفـه وجـيـبهْ

فـاسـتـغـفـرتْ عـن حـلـمهِ الـطـ

ـطـاغـي ولـفـتـتـه المـريـبهْ

واسـتـعـصـمـتْ بـصـلـيـبـهـا

مـن كـلّ هـاجـسـةٍ غـريـبهْ

وبـنـتْ لـه خـلـفَ الـضـلـو

عِ هـيـاكـلَ الـحـبّ الـرحـيـبهْ

وأتـتْ عـلـى أمـل الـشـبـا

بِ وطـيـبِ زهـرتـه الـرطـيـبه

☆☆☆☆

مـضَـتِ الـلـيـالـي.. مـثـلـمـا الْـ

أحـلامُ فـي أجـفـانِ نـائـمْ

فـإذا الـبـتـولُ عـلـى جـوا

دٍ مـثـلِ جـلـدِ الـلـيـلِ فـاحـمْ

وأمـامَـهـا عَـلَـمُ الـبـلا

دِ ممـوّجُ الـجـنـبـات بـاسـمْ

ووراءهـا جـيـشٌ مِـن الـ

ـفـرسـان مـشـدودِ الـعـزائـمْ

وخـيـولـهُ مـخـتـالـةٌ

تحـت الـعـوالـي والـصّـوارمْ

يـنـسـابُ فـي الـوادي كـمـا الـر

رَقـطـاءُ بـات لـهـا قـوائـمْ

وغباره يعلو على
جنبيه من عسف المناسمْ
والأفق مطروفُ العيو
نِ بلفحهِ والصخرُ شاتمْ

☆☆☆☆

نادتْ بفيلقِها البتو
لُ وهزَّ ساعدُها المهنَّدْ
وعَدتْ إلى حرم الجها
دِ السمح بالعزم الموطَّدْ
فتلاحمَ الجيشانِ فانْـ
ـدلعَ اللظى والهولُ أرعدْ
هذا يفرُّ وذا يكرْ
رُ وذا يكبُّ وذاك يصعدْ
والموتُ يأكل ما تُلَقْ
قِمُهُ يدُ الطعن المسدّد
حتى إذا نالتْ نوا
جِذُهُ من الأشلاءِ مقصدْ
بدتِ البتولُ كما بدا
من كوَّةِ الظلماءِ فرقدْ
تختالُ جذلى بالفخا
رِ وعزّة النصرِ المخلّدْ

☆☆☆☆

نصرٌ على نصرٍ أقضْـ
ـضَ مضاجعَ الأبطالِ ذعرا

حتى إذا الوطنُ الأسيـ
ـرُ بدا من الأغلال حُرًّا
هَوَتِ البتولُ المستميـ
ـتةُ في يدِ الأعداء غدرا
فطغَتْ سخائمهم كما
لو في الهشيمِ قذفتَ جمرا
ومشَوْا مجوسًا يحملو
نَ بتولَهم للنارِ نُكرا
ورمَوْا بها وتجمَّعوا
من حولها تيهًا وكِبرا
فتجلّدَتْ ويدُ اللّظى
ترمي بمئزرِها فتَعْرَى
وتهزُّها هزًّا فتعـ
ـلو تارةً وتخِرُّ طورا

☆☆☆☆

أخذتْ تصعّدُ روحَها
في قبضةِ النار المهيبهْ
وأمامها تمشي طيو
فُ الخلدِ في حُللٍ قشيبه
فبدتْ تصلّي للصليـ
ـبِ صلاةً فائزةً طروبه
فإذا به مازالَ يرمُقها بِنَظْراتٍ رهيبه!!

١٩٣٥

****

حرمان

صعَّدَ الطَّرفَ في السماءِ وصلّى
بدموعٍ تَرجرجَتْ في هُدْبِهْ
بين شدقيهِ مَضْغَةٌ عقلتها
يومَ ميلادِهِ أناملُ ربِّه
جَرَّدتْ عن لسانِهِ لذَّةَ النط
قِ وبثَّتْ إعجازَهُ في قلبه
فإذا حبُّهُ يصوغُ مُناهُ
وإذا بؤسُهُ يعيثُ بحُبِّه

☆☆☆☆

أخذتْ ثورةُ الكآبةِ تطغى
بين حالي فؤادِهِ ولسانهْ
ليس يستطيع أن يبُثَّ خليلا
ماذا تقولُ الدموعُ في أجفانه
تتهاوى أشلاءُ آمالِهِ الغُرْ
رِ تِباعًا على خطى أحزانه
كيف يطوي سِفرَ النعيمَ كئيبًا
وشبابُ الحياةِ في ريعانه

☆☆☆☆

صفعَتْ قبضةُ الذهول حجاهُ
فانثنى في الوجودِ حيران تائهْ

يسحبُ السَّاقَ متعبًا كعليلٍ

هجرَ الدار قبل يومِ شفائهْ

أشعثَ الشَّعرِ لوَّحَ السُّهدُ خديـ

ـهِ وهزَّ الشقاءُ من كبريائهْ

كلما جاشتْ اللواعجُ فيه

أطرقَ الرأسَ غارقًا في شقائهْ

☆☆☆☆

وقفَ المدنفُ الشَّريدُ حزينًا

يرقبُ الغادةَ الطهورَ الإزارْ

فتراءتْ إليه من بعدِ لأيٍ

فَطَغتْ لوعةٌ وضجَّ اصطبارْ

فجثا باسطًا يديه إليها

شاكيًا بالدموعِ حبًّا مُثارْ

فَرمتْهُ بدرهمٍ! وتوارتْ

وعلى ثغرِها بريقُ افترارْ

صعَّدَ الطرفَ في السما مُزبِدَ الشِّد

قِ وأبدى ما لستُ أدري.. وسارْ

****

شباب

أشَبابُ، يا زهوَ الحيا

ةِ ويا نشيدَ العنفوانْ

دنياكَ أحلامُ العرائـ

ـسِ في لياليها الحسانْ

يكسو الربيعُ الطلقُ عطـ

ـفيها ويرقصها افتتانْ

فاجْنِ المنى منها اغتصا

بًا واجرِ محلولَ العنانْ

واترُكْ صدى ألحانها

ترويه حنجرة الزمانْ

أشبابُ يا زهوَ الحيا

ة ويا نشيدَ العنفوانْ

لا كنتَ، إنْ أرخيتَ معـ

ـطفِكَ النضيرَ على جبانْ

١٩٣٧

****

سلوان[1]

يـا قـلـبُ، حـزنُـكَ مـا أشـدَّهْ
خـفـر الـحـبـيـب الـيـوم ودَّهْ
مـاذا عـلـيـك إذا تـنـاسـيْـ
ـتَ الـهـوى وطـويـت عـهـده
أمِـنَ المـودّةِ أنْ تـعـيْـ
ـثَ بـأضـلـعـي! أمِـنَ المـودّهْ
جـاوزتَ حـدَّ الـشـوقِ يـا
واهـي الـقـوى، جـاوزت حـدَّهْ
لـو كـان جـرحُـكَ يـسـتـردْ
دُ وفـاءَهُ لـك لاسـتـردَّهْ
قـد طـاب بـعـدك عـيـشُـهُ
فـعـلامَ عـيـشـك سـاءَ بـعـدَهْ
كـم مـرتـعٍ بـتـنـا بـه
والـلـيـلُ حـاكَ عـلـيـه بُـرْدَهْ
ولَـكَـمْ أذعـتُ عـلـيـه وجْـ
ـدي فـي الـهـوى، وأذاعَ وجـده
وكَـمِ انْـبـرى حـلـوَ الـدلا
لِ ومـدّ لـي نـشـوانَ زنـده
حـتـى إذا طـوقـتـه
أدمـيـتَ بـالـقُـبـلاتِ خَـدَّهْ

١٩٣٣

****

(١) من غنائية الطوفان وهي من شعر الشباب وما لم ينشر في الطبعات التالية

عنفوان

لـم تـرتـشـفْ دمـعـي شـفـاهُ الـهـوانْ
ولـــم يـنــادِ المــجــد، هـــذا جـبـانْ
فـاعـصـفْ فـإنـي صـخـرةٌ يـا زمــانْ

☆☆☆☆

طـلـعـتُ فـي دنــيــاكَ عــفَّ الـــرداءْ
ومِـــلءُ جـنـبـيَّ انـتـفـاضُ الابـــاءْ
أمـشـي، ويمـشـي فـي ركـابـي الـرجـاءْ
والـــدربُ بـالـريـحـانِ، يـزهـو افـتـتـانْ
وأنـــت تـهـمـي بـالـرضـا يـا زمــانْ

☆☆☆☆

أنـــا الــذي فـضَّ غـيـوب الـوجـوهْ
وصـبَّـهـا لحـنًـا بـــأذن الخـلـودْ
فـلـم يَـلُـحْ لـي مـنـك غـيـر الجـحـودْ
كـأنمـا لـم تـصـغ لـي كـلَّ آنْ
وفـيـكَ مـنّـي نـشـوةٌ يـا زمــانْ

☆☆☆☆

افـتـح كـوى الـبـغـي، وخـل الـريـاح
مـجـنـونـة تـــزرع صـــدري جـراح

النَّسرُ لا يرجِفُ منه الجناحْ

خوفًا ولا يخذِلُهُ العنفوانْ

إذا دعاهُ حتفُه يا زمانْ

١٩٣٧

****

من أنتِ

مـــن أنــــتِ؟ كـيـف طـلـعـتِ فـي
فـــي دنــيـــاي؟ مـــا أبــصــرتِ فـيّـا
فـــي مـقـلـتـيـكِ أرى الحـيـا
ةَ تـفـيـض يـنـبـوعًـا سَـخـيّـا
وأرى الـــوجـــودَ تـلـفّـتًـا
سـمـحًـا، وإيمـــــاءً شـهـيّـا
أَلَـــفَـــفْــتِ أحـــلامَ الـصِّـبـا
وَخَـلـعْـتِ أكـرمـهـا عَـلـيّـا
مـــهـــلاً، فـــداكِ الـــوهـــمُ لا
تـــرمـــي بمـــنـــزلكِ الـــثـــريّـــا
أنــا فـــي جـديـب الـعـمـرِ أنـ
ــثـرُ مـــا تـبـقـى فـــي يــديّـا
عــــودي إلــــى دنـــيـــاكِ واجْــ
ــنـي زهــرَهـــا غـضًـا زكـيّـا
يـكـفـيـكِ مـــنـــي، أن تـكـو
نـــي فـــي فــمــي لحـنًـا شـجـيّـا
١٩٤٦

****

كان لي[1]

كـــان لـــي فـــي قـــــرارةِ الأقـــــداحِ

مـــا أروي بـــه غـلـيـلَ جـراحـي

رُبَّ نجـوى عـلـى الـطِّـلا هَـمَـسَـتْـهـا

فـــي خـيـالــي، حـنـاجـرُ الأتـــراحِ

لـطـمـتْ فـــي ذهـولـهـا جـبـهـةَ الخـطْـ

ـــبِ وأرخـــت عـلــى دجـــاه صـبـاحـي

وسَـــمـــتْ بـــي عـــن عـــالـمٍ مـــلء جـنـبـيـ

ــــهِ حـنـيـن الأشـــبـــاحِ لـلأشـبـاح

سـلـوةٌ سـلَّـهـا الـعـيـاء فـلا الحِـلْـ

ـــمُ إزاري ولا الـــعـــزاء وشـــاحـي

رُدَّهــــا يــا زمـــانُ! واخـلـعْ عـلـى دُنْـيـا

ي وهـمـي، واكـبـح عـلـيـهـا جـمـاحـي

حـسـبُ عـمـري أن أسـتـرق عـلـى كفـ

ـيـكَ عـــزِّي، واسـتـخـفَّ طـمـاحـي

وَأُزَجِّـــــي الخـطـى بـضـحـكـةِ سـكـرا

نَ وأطـــوي المـنـى بـدمـعـةِ صـاحِ

---

(١) حلمي الأتاسي نائب حمص وصديق الشاعر ورفيقه في الجهاد، احترقت به الطائرة وهو في طريقه إلى مصر فخسرت بموته البلاد شابًا من أنبه شبانها المناضلين.

أيـــن؟ لا أيـــن! نـــدوتـــي ونـــقـــالـــي

وصَـــــدى مـــزهـــري ونـــفـــحـــةُ راحـــي

والـصِّـحـاب الـصِّـبـاحِ، والـزهـوُ رفًّـا

فُ الـحـواشـي عـلـى الـصِّـحـابِ الـصِّـبـاحِ

يـــســـألُ الـــقـــلـــبُ عـــنـــهـــمُ وجـــلا

لُ الـصَّـمـتِ فـي مـسـمـعـيّ، رجـعُ نـواح

ردّ لـــي يـــا زمـــان! ســـلـــواي، فـــالـــدا

ءُ دفـــــينٌ والـــــبـــــرّ، غـــيـــرُ مـــتـــاح

ربمـــا حـــارَ فـــي وجـــومـــي حـــبـــيـــبُ

كـــان يـــشـــجـــيـــهِ فـــي الـــحـــيـــاةِ صِـــداحـــي

مـــات! مـــن مـــات؟ مـــات حـــلـــمـــي ومـــن حـــلـ

ـــمـــي؟ أجـــيـــبـــي تـــكـــلّـــمـــي يـــا جـــراحـــي!

قـــد يـــحـــنُّ المحـــبُّ فـــي يـــقـــظـــةِ الـــذكـ

ـــرى لأطـــيـــاف حـــبّـــهِ المـــســـتـــبـــاح

حُـــلْـــمِ.. يـــا بـــســـمـــةَ المـــــروءةِ والأحـــ

ـــســـان والـــنـــيـــل والـــوفـــا والـــســـمـــاح

أصـــحـــيـــحٌ، أن لـــن أكـــحـــل جـــفـــنـــيْـ

ـــيَ بـــنـــعـــمـــى شـــبـــابـــكِ الـــوضـــاح؟

كـــم مـــشـــيـــنـــا مـــعًـــا! وخـــلـــف خـــطـــانـــا

مـــخـــلـــبُ الـــشـــوكِ أو خـــدود الأقـــاحـــي

نـــحـــمـــل المـــجـــد والـــصِّـــبـــا وكـــلا الـــخـــد

نـــينِ لـــم يـــشـــك غـــصّـــةَ المـــلـــتـــاح

فَيَدُ بالدِّمَا لعوبٌ وأخرى

يجني كل ممتع فوّاح

أَ وَأَدْتَ المنى، وعيشُكَ مخضلْ

لُ ومغناكَ باسق الأدواح؟

ما انتهى بعدُ ما بقلبكَ من حبْ

بِ لخيرٍ ونزعةٍ لِصلاح

أملتَ الأدلاج، حين طغى الليـ

ـلُ على كل كوكبٍ لمّاح

ورأيت الرجال أسرابَ أهوا

ءٍ عجافٍ وأمنياتٍ وقاح؟

تنحرُ الكبرياء نحرًا على أعـ

ـتاب عيشٍ مدنّس فضّاح

وتصم الأسماع عن صوتك الدا

وي وتصغي إلى الهوى الملحاح

فلويتَ العذارَ عنها وأغضيـ

ـتَ ذبيح الرجاء نضوَ الكفاح

أرأتْ كيف ترتمي متعُ الدنـ

ـيا على راحةِ الردى المجتاح

وتجرُّ الحياةُ نعشَ صباها

في صباح الأعراس والأفراح

ما لها! ما تزالُ تخترمُ الحقْـ

ـقَ على كلّ غدوةٍ ورواح

عـظـةُ المـــوتِ لا تمـــرُّ عـلـى قـلْـ

ـــبِ غـــويٍّ، ولا ضـمـيـرِ إبـاحـي

رُبَّ عـفـوًا لـقـد ظـلـمـت سُـراهـا

فـي دروبٍ مـن الـضَّــلال فِـسـاح

مـا عـلـيـهـا! وخـمـرُهـا مـن خَـوابـيـ

ـنـا إذا عـرْبـدتْ عـلـى الأقـــداح

فـلـتـكـمُّ الأفـــواه، إن شـــاءتِ الـشـكـ

ـوى انـطـلاقًـا مـن الـضـلـوع الـقِـراح

أيُّ شـعـبٍ يـعـطـي الـسـلاحَ إلـى الـبـا

غـي ويـشـكـو مـن وخـز ذاك الـسـلاح

قـد يـعـفُّ الجَـــزَّار لـو لـم تمـرَّغ

تحـت أقـدامـه رقـابُ الأضـاحـي

☆☆☆☆

شـهـدَ الـلـهُ أن وفَـيْـتَ بمـا عـا

هَـدتَ فـي مـوقـف الـنـضـال الـصـراح

وتـغـاضـيـتَ عـن وشـايـة واشٍ

وتـصـامـمـتَ عـن إسـاءة لاح

وأبـيـتَ الحـكـم الـشـهـيَّ فـلـم نـلْـ

ـمَـحْـكَ فـيـه فـراشـةَ المـصـبـاح

وبـذلْـتَ الحـيـاةَ فـي دفـع ضـيـمٍ

وهـدى حـيـرةٍ وفـكِّ سـراح

فـإذا أنـت ذكـريـاتٌ غـوالٍ

وأغـانـي المـقـيـم والـنـزاح

ليس تُطوى كما طويتَ وراء السُّـ
ـسُحْبِ البيض في مهب رياحِ

☆☆☆☆

يا حبيبي أسامعٌ في حنايا الـ
ـقبرِ نجوى الأشباح للأرواحِ
لَهْفَ نفسي كم بحةٍ في لَهَاتي
ما لها في نشيجها من براح
نَمْ على التّربِ لا مزارك شافٍ
ما أعاني ولا خيالك ماح
كيف آتيك بالنجوم وسادًا
والليالي مقصُّها في جناحي
١٩٤٧

****

جبل

معاذَ خلالَ الكبرِ ما كنتُ حاقدًا

ولا غاضبًا إن عابَ مسراي عائبُ

فكم جبلٍ يغفو على النجم خدُّهُ

وأذيالُه للسائماتِ ملاعبُ

نظرتُ إلى الدنيا فلم ألفَ عندها

كبيرًا أداري، أو صغيرًا أعاتبُ

وما هان لي في موقف العزِّ موقفٌ

ولا لانَ في جانب الحقِّ جانبُ

فيا غربةَ الأحرار، ما أطول السُّرى

وملء غياباتِ الدروبِ غياهبُ

١٩٥٧

****

سر السراب[1]

كم جئتُ أحملُ من جراحات الهوى

نجوى، يرددها الضميرُ ترنُّمَا

سالتْ مع الأمل الشهيّ لترتمي

في مسمعيك، فما غمزتِ لها فما

فخنقتها في خاطري، فتساقطتْ

في أدمعي، فشربتُها مُتلعثما

ورجعتُ أدراجي أصيد من المنى

حلمًا، أنام بأفقه مُتوهِّما

☆☆☆☆

أُختاه، قد أَزِفَ النّوى فتنعَّمي

بعدي، فإن الحبَّ لن يتكلّما

لا تحسبيني ساليًا، إن تلمحي

في ناظري هذا الذهولَ المبهما

إن تهتكي سرّ السراب وجدتُهُ

حلمَ الرمال الهاجعاتِ على الظما

١٩٣٧

****

(١) رأى الشاعر في الصحراء ماء يتموج من بعيد، فقيل له إنه السراب، فتأمله طويلًا، وأحس بالرمل الملتهب ظمأ تحت أشعة الشمس ينام ليحلم بالماء، وما هذا الذي يسمونه سرابًا إلا أطياف حلمه اللذيذ، وكان الشاعر على حال عاطفية قلقة فوجد في إحساسه هذا منفذًا لها.

لوعة[1]

خَطُّ أختي لم أكُنْ اجهلُهُ
إنّ أختي دائمًا تكتبُ لي
حدثتني أمسِ عن أهلي وعن
مضض الشوق وبُعدِ المنزلِ
ما عساها اليومَ لي قائلةٌ؟
أيُّ شيءٍ يا تُرى لم تقُلِ
وفضضتُ الطِّرسَ.. لم أعثرْ على
غيرِ سطرٍ واحدٍ.. مختزل
وتَهجّيتُ بجهدٍ بعضَهُ
إنّ أختي كتبتْ في عجل
فيه شيءٌ.. عن عليٍّ مبهمٌ
ربما بعدَ قليلٍ ينجلي
وتوقَّفتُ.. ولم أتمّْ.. وبي
رعشاتُ الخائفِ المبتهل
وتراءى لي عليٌّ كاسيًا
من خيوطِ الفجر أسنى الحلل
مرِحَ اللفتةِ، مزهوَّ الخطى
سَلِسَ اللهجةِ حلوَ الخجل

---

(١)«سافر الحبيب علي الشهابي مع الفجر»

تسألُ البسمةُ في مرشفِهِ
عن مواعيدِ انسكاب القُبَل
وبناتُ الحيِّ في ملعبهِ
راحُ تومي وطرفٌ يجتلي!
طلعةٌ استقبلَ الدنيا بها
ناعِمَ البالِ بعيدَ المأمل

☆☆☆☆

كم أتى يشرحُ لي أحلامه
وأمانيه على المستقبل
قال لي في كبرياءٍ إنهُ
يعرف الدربَ لعيشٍ أفضل
إنه يكرهُ أغلالِي التي
أوهنَتْ عزمي وأدمتْ أرجلي
سوف يُعطي في غدٍ قريتَهُ
خبرةَ العلم وجُهدَ العمل
وسيبني بيتَهُ في غابةٍ
تترامى فوق سفحِ الجبل
وسأعتزُّ به في غدهِ
وأراهُ مثلاً للرَّجل!
عدْتُ للطِّرسِ الذي ليس به
غيرُ سطرٍ.. واحدٍ.. مختزل
وتجاذبْتُ.. لَعَلِّي واجِدٌ
فيه ما يُبعدُ عني وجلي

وإذا أقفلَ معناهُ على

وهميَ الضارعِ.. كلُّ السُّبُل

غرِقتْ عيناي في أحرفهِ

وتهاوى مِزَقًا عن أنمُلي!

☆☆☆☆

قلبُ أختي.. لم أكن أجهلُهُ

إن أختي دائمًا تُحسِنُ لي

ما لها تنحرني نحرًا على

قولها.. مات ابنُها.. مات علي!!

١٩٦٢

****

وانتفض العز وقال: من ناداني؟[1]

ردَّ لي ما استردَّ مني زماني

فأراني ما الحلمُ كان أراني

أنا منه في نعمةٍ نسيَ الشو

قُ عليها مرارةَ الحرمانِ

أنا في موئلِ النّبوّة في ركـ

ـبِ غيوبٍ مجلوّةٍ للعيان

نفضتْ عن إهابها صدأ الدهـ

ـرِ وطافتْ بالريقِ الرّيان

أتسلّى منه، ويرجع طرفي

ساكبًا خشعتي على وجداني

☆☆☆☆

فعلى البعدِ.. لاح ديرُ بُحيرا

ناشرًا سرَّ كاهنِ الكُهّان

وعلى القرب.. بيت آمنةٍ تَنْـ

ـفَضُّ عنه ستائر الأحزان

وذؤابات هاشمٍ تتلقّى

حول مهد الوليد فيضَ التهاني

(١) هذه الرائعة ألقيت بمناسبة أدائه فريضة الحج.

والـفـداءُ الـغـالـي يـسـوق إلـى الـكعـ

ـبـةِ مـا يـشـتـهـيـه مـن قـربـان

وتـــراءى إلـــيَّ غـــارُ حـــراءٍ

وهـو مـنـي ذاك الـقـصـيُّ الـدّانـي

شُـــرَّقٌ مــن جـبـين طــودٍ أشــمٍ

مـطـمـئـنٍ فــي هـــداةٍ وأمـــان

يـسـهـر الـوحـيُّ فـي حـمـاهُ عـلـى آ

لاءِ نـعـمـى يـتـيـمـةٍ فـي الـزمـان

والـنـبـيُّ الأمـــيُّ يـقـرأ بـاسـمِ الـ

ـلـه فـيـه مـن مـحـكـم الـقـرآن

وقـريـشٌ مـن حـولـه أعـيـنٌ رمْـ

ـدٌ تُـعـانـي مـن حـقـدهـا مـا تـعـانـي

تـركـت خـلـفـهـا ذلـيـل مـنـاهـا

وتـــوارتْ جـريـحـةَ الـعـنـفـوان

وأطـــلَّـــتْ عـلـيَّ يـثـربُ والأنـــ

ـصـار فـيـهـا طـلائـعُ الإيمـان

خـلـعـتْ زورةُ الـنـبـي عـلـيـهـم

بـركـاتِ المـهـيـمـن الـدَّيـان

كـلـهـم فـي هـوى رسـالـتـه الـعـذ

راءِ أسـيـاف نـخـوة وتـفـانـي

هـتـفـوا بـالجـهـاد وانـطـلـقـوا فـي

يـــوم بـــدرٍ أهـــلَّـــة المـيـدان

وقريشٌ دون القليب رماحٌ

تتشظّى على صخور الهوان!

وتجلَّت إليَّ مكّةُ في أكـ

ـرَمِ مجْلى وفي أجلِّ كيان

خَلَتِ الكعبةُ الوضيئةُ مما

نشرته الأهواءُ مِن بهتان

وانجلتْ عن سمائها غيمة الشر

كِ وماجت أرجاؤها بالأذان

وقريشٌ خلف النبيِّ تُصلي

ودموعُ المتاب في الأجفان

الهدى خدّرَ الجراحَ وأودى

ببقايا الأحقادِ والأضغان

ومَحا ظُلْمةَ الحياة وواسى

مُتْعَبيها بلفتةٍ من حنان

وأراني مقيَّد الخطوِ لا أبـ

ـرحُ في زحمة الصفوف مكاني

لجَجٌ من عمائم وعباءا

تٍ تشدّ الفرسان للفرسان

النبيُّ الأمين يخطبُ فيهمْ

موجزَ القولِ عبقريَّ البيان

والذهول المهيبُ فوق الوجوه السُّـ

ـسُمرِ يفشي كوامنَ الأشجان

إنها خطبةُ الوداع وما أو

جع سكب الدموع قبل الأوان

أدرك المؤمنون أن رسول الـ

ـله فانٍ ودينُه غيرُ فانِ

فَأتوا يثربًا ورجع حُداء الْـ

ـموتِ يدمي حناجرَ الركبان

فمضوا في الحياة يبنون فيها

ما أراد النبيُّ من بنيان

عقدوا بالشموس أهداب دنيا

همْ فعَزّت مرابعًا ومغاني

حملوا آية الهداية نبرا

سَ سبيل للتائه الحَيران

أينما خيَّموا وحلّوا سروجَ الـ

ـخيلِ فاضت مناهل الإحسان

فإذا الفتحُ نصرةُ الحقِّ في الأر

ضِ ومجلى كرامة الإنسان

يا لدنيا سلَلْتِ من حرم الرؤيا

تهاويل أمسِه الفتَّان

فاشرَأبَّتْ عليَّ منها طيوفٌ

بين مُغضٍ على الجراح وحان

وتلاشت في ومضةِ الصَّحو فانها

لَ خيالٌ واستوحشتْ مقلتان

أنـــا فـــي مـــوئـــل الـــنـــبـــوة يـــا دنـــ

ـــيـــا أُأدِّي فـــرائـــضَ الإيـمـــان

☆☆☆☆

أســـأل الـنـفـس خـاشـعًـا أتُـــرى طـهَّـرت

بُـــــــرُدَى مـــن لـــوثـــةِ الأدران!

كـــم صـــــلاةٍ صـلّـيـتُ لـــم يـتـجـاوزْ

قـــدسُ آيــاتِــهـــا حـــــدودَ لـســانـــي!

كـــم صـــيـــامٍ عـــانـيـت جـــوعـــيَ فـيـه

ونـســيـــتُ الـجـــيـــاع مـــن أخـــوانـــي!

كـــم رجـمــتُ الـشـيـطـانَ والـقـلـبُ مـنـي

مُـــرهـــقٌ فـــي حـــبـائـــلِ الـشـيـطـان

ربِّ عــفــوًا إن عــشــت ديــنـــيَ ألــفَــا

ظًــا عــجــافًــا، ولـــم أعــشْـــهُ مـعـانـي

لـــي شـــفـــيـــعٌ يـــا ربِّ عـــنـــدك أنـــي

لـــم أنمْ عـــلـــى غـــوايـــةِ الـسـلـطـان

أنـــا يـــــاربِّ مـــن بـقـــايـــا ســيــوفٍ

ثـلَّـمَـتْـهَـا مـــضـــاربُ الـحَـدَثَـــان

أنـــا مـــن أمَّــــةٍ تجـــوسُ حِـمـاهـا

جـاهـلـيَّـاتـهـا بـــلا اسـتـئـذان

أســقَـطَـتْ مـشـعـلَ الـنـبـوةِ فـي اللـيـ

ـــل وأرخــــتْ لـلـتـيـه كـــلَّ عـنـان

لــو مـشــتْ فـــي سـنـا هـــداه لـكـان الـنـ

ـنـجـمُ فـــي ركـبـهـا مـــن الـنّـدمـان

مَزَّقتْ شملَها شعائرُ شتّى
وقياداتِ طغمةٍ عبدان
تلك أوثانُها تعود ولكن
ليس فيها براءةُ الأوثان
مرّنتها على الهزيمةِ والجُبْـ
ـنِ وبعض الحياة بعض مران
فَاسْتَكانتْ.. لا بارك الله في صبـ
ـرِ ذليلٍ ولا بُكاءِ جبان

☆☆☆☆

يا بنَ عبدِالعزيزِ.. وانتفضْ العزْ
زُ واصغَى وقال: من نَاداني؟
قلتُ ذاك الجريح في القدس في سيـ
ـناءَ في الضفتينِ في الجولان
قلت ذاك الأبيُّ يشهق بالصمـ
ـتِ وتُرمى أقلامُه بامْتهان
يا بنَ عبدِالعزيز.. تلك صحابي
لك منها تحيّةُ الرحمن
عَرَفَتْ فيكَ طلعةً من مروءا
تِ كبارٍ، وأمنياتِ حسان
كُنْ لها بسمة العزاء فقد طا
لَ عليها تجهُّمُ الأحزان

****

خاتمة الحب[1]

سطَّرَ الحبُّ للورى
من دمي آيةَ العِبَرْ
آيةٌ صوَّرتْ على
لوحِها أحزنَ الصُّور
شمسُ حزني قدِ استوتْ وعجيبٌ
أنْ أراني أعيشُ من غير ظِلِّ
أبصرَ الدهرُ ناشرًا سِفر عمري
ولسانُ الآلام يقرَا ويُملِي
طعنةٌ إثرَ طعنةٍ إثرَ أخرى
نثرتْ هذه الحشاشة حولي
فتأمَّلتُ في الحياةِ وفيما
كنتُ أبني على الخيالِ وأُعلِي
فإذا موردُ النَّعيمِ سرابٌ
وإذا حائط المنى فوق رمل
هذه سلوةُ الفؤادِ تلاشتْ
فحرامٌ على فؤادي التَّسَلِّي
يا بقايا الأحلامِ في جفني النَّا
ئمِ أخلي مقركَ اليومَ أخلي

(١) يقال إنه نظم هذه القصيدة في لندن في آذار ١٩٣٢ في ليلة واحدة حينما عاد إلى مانشستر حاملًا لها موافقة أهله على زواجهما.

يا سراجَ الآمالِ قد نضب الزيْـ

ـتُ فبدِّدْ هذي الخيوط وأبلِ

يا فؤادي دعِ الوجيبَ لأقرأ

فوق رأس الحبيبِ سورةَ ثكلي

يا عيوني دعي البكاءَ فصعبٌ

أن أراها وأدمعي فيك تغلي

عدتُ للحبِّ والهوى

يا منى السمعِ والبصرْ

ولبانات خافقي

بين جنبيَّ تستعرْ

حملتني إليكِ أجنحةُ الحُبْـ

ـبِ ولمّا أبالِ بالأهوالِ

كلّما لاحَ ليَ السبيلُ كؤودًا

هوّنت صعبَهُ بروقُ الوصالِ

يا وصالَ الحبيبِ في مخدعِ المو

تِ تصرّف بهذه الأوصالِ

عقّةُ البردِ ما عهدتُ بك الصَّمْـ

ـتَ قبيلَ اللقاءِ في كلِّ حالِ

طوقيني بساعديكِ فلا خَو

فٌ علينا من أعينِ العُذّال

ما أرى الموتَ مطفئًا شعلةَ الحُسْـ

ـنِ ولا بالمزيلِ سحرَ الجمالِ

جفنُكَ اليومَ مثل جفنكَ بالأمْـ
ـسِ كساهُ الفتورُ يُتْمِ المثالِ
فكأنَّ الإغماضَ فيه نعاسٌ
أو حياءٌ أو نشوةٌ من دلال
زادكَ الموتُ فوق حُسنكَ حسنًا
وكساكَ ببردةٍ من جلال
مثلَ وردٍ يرفُّ بعدَ قطافٍ
وشهابٍ يشعُّ إثرَ زوال

إيهِ يا نفسُ فاصبري
يرحمُ اللهُ من صبرْ
ما أرى البثَّ ماحيًا
أسطرًا خطَّها القَدَرْ

يا نؤومًا ألا ينبه جفنيك
بكائي، وزفرتي، واضطرابي!
كنتِ إن هينم النسيم تَهبيْـ
ـنَ وطيفُ الأحلامِ في الأهدابِ
أَعَشِقْتِ المقامَ في عالم الرو
حِ ولمّا تفكري بإيابِ
لو تعذَّبتِ في الحياة لقلنا
لم تُطقْ نفسك احتمالَ العذاب
أيَّ أمرٍ يا بنتَ سبعٍ وعشرٍ
حثَّ منكِ الركاب نحو الغيابِ
فتناسيتِ أربُعًا وغرامًا
وجموع الأحباب والأصحابِ

اسمعي صرخةَ الشبابِ أمَا في
قلبكِ اليومَ رحمةٌ للشبابِ
احتسي الكأسَ من عصارةِ نفسي
حين أفنيتُ أكؤسَ الأوصابِ
وبرانِي الشَّرابُ حتى لو أني
جئتُ ربِّي ما استطعتُ حملَ كتابي
زوديني بقُبلةٍ منكِ تبقى
في فمي بسمةٌ ليومِ حسابِ

انظري النَّعشَ كيف قد
لبسَ الورى وائتزرْ
وعلى سجفه استوى
غصن الآس وانتثر

حضنَ النَّعشُ زهرَ غرسِكَ والْتفَّ
فَ وصعبٌ عليَّ رؤيةُ غرسكْ
فكأني بالورد وهو ضحوكٌ
أحسبُ السيرَ في مواكب عرسكْ
يا ابنةَ النُّورِ انفضي عنك ذا النَّعْـ
شِ وفُضِّي لنا هواجسَ نفسكْ
أَعَرَتْكِ ارتعاشةُ الرجاءِ حين لاحتْ
من زوايا الأوهام أشباحُ رمسكْ؟
فتخوّفتِ موردًا يقذفُ الوحْـ
شَةَ والسّقمَ في قرارةِ كأسكْ؟
أم تمثّلْتِ هوةَ الرَّمسِ ديرًا
ودمي الطهرُ سُجَّدًا حولَ رأسكْ؟

ورأيـــــتُ الـعـشّــاقَ شـمـعـةَ إثـمٍ

تـتـلاشـى عـلـى مـذابـحِ قـدسِـك؟

وتــصـــوّرتُ مـنـكـرًا ونـكـيـرًا

وَقَـفَـا يَـقـرآنِ صـفـحـةَ أمْـسِـكْ

فـتـغـنّـيـتُ فـي ضـمـيـرك جـذلـى

وحـسـرت الـشـفـاه عـن سـن أنـسـكْ

اهـمـسـي ردّك الـوجـيـز فـإنّـي

لـم أزلْ مـصـغـيًا لـرنّـةِ هـمـسـكْ

أيـهـا الـنـادبُ اتّـئـذ

وارسـلِ الـبـثَّ فـي حـذرْ

لا يـقـولـنّ جـاهـلُ

شـاعـرُ الـبـؤسِ قـد كـفـرْ

وعـــلامَ تـقـلُّ نـعـشَـكَ خـيـلُ

تـتـراءى دجـنّـةً ظـلـمـاءَ

أَهْـيَ أولـى بـحـملِ نـعـشـك مـنّـي

أم لـهـا هـمّـةٌ أشـدُّ مـضـاءَ

أتـركـيـنـي أجـمِّـل نـعـشـكِ بـالـدَّمْـ

ـعِ وأرمـي بـنـعـشـك الـغـبـراءَ

وأجـوبُ الـفـضـاءَ فـيـكِ وأطـوي

مـن فـسـيـح الـفـضـاءِ مـا يـتـراءى

رهـــوًا تـــارةً، وطـــورًا هـويـنـا

نُـــزلًا مـــرةً وأخـــرى ارتـقـاءَ

سائلًا عالمَ الملائكِ عن رو

جكِ عَلِّي أرى إليها اهتداءَ

بل دعيني حيالَ نعشكِ أجثو

حاسرَ الرأسِ أصعدُ الحوباءَ

ما أرى هذه الملائكُ إلا

أُذنًا عن ندائِنا صماءَ

وكأني أراهمُ الآنَ حشّدًا

مُشرأبِّين حَوليَ استهزاءَ

قائلينَ: انظروا لآدمَ هلاّ

رامَ إلا بأفقِنا حواءَ

هكذا يسكنُ الضعيفُ إلى الْـ

ـوَهْمِ ويُعلي على الهباءِ بناءَ

أيُّها البائسُ الذي

شفه اليأس والضجرْ

صَبِّرَ النفسَ واحترمْ

حكمةَ اللهِ في البشرْ

الوداعَ الوداعَ يا زهرةَ العمْـ

ـرِ ونبعِ الآمالِ والأحلامِ

الوداعَ الوداعَ يا شعلةَ اللطْـ

ـفِ ونورِ الإيحاءِ والإلهامِ

حكمةُ اللهِ أن تزولي وأبقى

هائمًا في الشّقاءِ أيَّ هيام

حكمةُ اللهِ أن أظلَّ حزينًا

أتلاشى على ضريحِ غرامي

حكمةُ الله أن أقطع أوتا
رَ نشيدي بأحزنِ الأنغامِ
حكمةُ اللهِ أن أجرَّ على صبْ
حِ نعيمي غشاوةً من ظلامي
حكمةُ اللهِ أن تسدّدَ في القلـ
ـبِ سهامَ الأحزانِ والآلامِ
حكمة الله أن تجفَّ على العشْـ
ـبِ زهور مازلنَ في الأكمامِ
حكمةُ الله هذه ملؤها الرأفةُ
والعدلُ وكلُّ الإنصافِ في الأحكامِ
ليس لي ما أقول يا مُبدِعَ الكو
نِ فوقع السكوتِ فوق الكلامِ
فعلى ما وهبتَ ألفَ عفاءٍ
وعلى ما أخذْتَ ألفَ سلامِ
لندن – مارس ١٩٣٢

****

نهرو[1]

تلفَّتْ أيها الوطنُ المفدّى
أتلمحُ من يلفُّ عليكَ قيدا

لئن خَفرَتْ لكَ النُّعماءُ عهدًا
فما خفرَتْ لكَ النعماءُ عهدا

مشيتَ على الخطوبِ السّودِ دهرا
ولم تَمْددْ لزندِ الوهنِ زندا

وللإيمانِ في جنبيكَ نورٌ
يريكَ الشّوكَ ريحانًا وورَدا

فكم شقَّتْ لكَ الأنواءُ بندًا
وكم قضَتْ لكَ الأهواءُ جندا

وأنت كما أرادَ الحقُّ أبقى
على الأيام أقدامًا وجهدا

«أهمسًا» صاح في نجواك «غندي»
فلم تجعلْ خماد الجرحِ حقدا

إذا وثب المحقُّ إلى مناهُ
فلن تلقى لوثبتهِ مردًّا

زعيمي في هواكَ طويتُ عهدًا
سخيًّا فيضُهُ ونشرتُ عهدا

(١) من قصيدة طويلة في رثاء الزعيم نهرو.

سراجي من سنانِكَ كيف أكبو

ومائي من معينك كيف أصدا

رميتُ بمعولي أصنامَ جهلي

وطَفَتْ بِدارتي للعصماءِ وجْدا

فناجيتُ الوجودَ على التّجلّي

ووذقتُ جمالَهُ وصلاً وصدًّا

****

الحجاج

أحجاجُ يا نفحةَ الباديةْ
ويا روعةَ الأعصُرِ الغافيةْ
سياطُكَ رغمَ البلى لم تزلْ
تجلجلُ أصداؤها القاسيةْ
إذا لامستْ أضلعَ الرّافدينِ
سَرَتْ فيهما رعشةٌ خافيةْ
وزاحم شطّيها الذكريات
زحامَ القطيع على الساقيةْ
فأقبسُ منها سَنا أمّةٍ
تجرُّ على الزمان النّاصيةْ
وتَرْكُزُ فوقَ قبابِ النسور
دعائمُ راياتِها الغاليةْ
فتلك التي جرّعتكَ العلا
لبانًا فكنتَ الفتى الدّاهيةْ
يمدُّكَ بالحزم إيمانها
فتضربُ ضربتكَ القاضيةْ
وزندُكَ من زندِها اليعربيّ
وروحكَ من روحها السّاميةْ

أحـــجَّـــاجُ صـــرحُ الـفـخـار ارتمـــى

ومُـــــــدَّتْ إلـــيــه يـــدٌ بـاغــيــةْ

ولــــم يـبــقَ لـــلـعُـــربِ مـــن أمسـهـا

سـوى غـضْـبَـة الـــرّمِ الـبـالـيـةْ

يــقــوم بـــهـا الحـــرُّ مـــن هــاويــةٍ

ويُـــقــعِــدهــا الـــوغـــدُ فـــي هـــاويـــةْ

وظـــفــــرُ الــــدخــيــلِ وأنـــيـــابُـــه

تمـــــزِّقُ أعـــنـــاقــهــا الـــدّامـــيـــةْ

☆☆☆☆

أحـــجّـــاجُ قـــام ذلـــيـــلُ الـــرجـــالِ

يـــقــلِّـــدُ ســيـــرتَـــكَ المـــاضـــيـــةْ

وعُـــدَّتُـــهُ مـــن حـــرابِ الـدخـيـلِ

فـــيـــا بـئـسـهـا عـــدّةٌ واهـــيـــةْ

تحـــــرِّك عـــزمـــاتِـــهـــا غـــمـــزةٌ

وتـــوقِـــفُـــهـــا غـــمـــزةٌ ثـــانـــيـــةْ

أحـــجّـــاجُ بـــئـــسَ زمـــــانٍ رمـــى

قـــنـــاعَ الـبـتـــولِ عـلـى الـزّانـيـةْ

****

عودة المغترب

حساب وعتاب

ألفيتُ منزلها بوجهيَ مُوصَدا
ما كان أقربهُ إليَّ وأبْعَدا
كَلَّتْ يداي على الرِّتاج وعربدتْ
في سمعيَ المشدوه قهقهةُ الصَّدى
ما كنتُ أحسبُ أن أطوف به على
غُصصِ النَّوى وأعود عنهُ مُجهدا
فكمِ اختزلتُ حدود دنيايَ على
أعتابهِ، وكم اختصرتُ به المدى
ما بالها تُصغي، وأحلفُ أنها
تُصغي، وتأبى أن تردّ على النِّدا
أخْبَتْ نجومي في مدارِ لحاظها
فتساوتِ الدنيا لديها موردا
ليست بأوّل بدعةٍ أوجدّتها
وأضعتها عبر الضّلالةِ والهُدى
وجَمّلتها ذكرى ولم أُرخِص لها
عهدًا أأشقى عهدها أم أسعدا
الذكرياتُ قطافُ ما غرستْ يدي
كَفِلَ الحنينُ بقاءَها وتعهُّدا

هي كلُّ زادي هوّنت صعب السُّرى
ورمتْ على قدميَّ غطرسة الرَّدى

كم نعمةٍ شمخت عليَّ فهجتها
وشربتُ نزف جِراحها مُستبردا

وكم استخفَّت بيَ المنى فصلبتها
وركعتُ تحت صليبها مُتعبِّدا

وتقاتلت فِيَّ الظنونُ وطاب لي
في حالتيها أن أُذمَّ وأُحْمَدا

جئتُ الحياةَ فما رأتني زاهدًا
في خوضِ غمرتها ولا مُتردِّدا

إني فرضتُ على الليالي ملعبي
وأبيتُ أن أمشي عليه مُقيَّدا

يا غربتي أشجاكِ طولُ تلفُّتي
صوب الديار تهالكًا وتَجلُّدا

أتعبتُ في نظري إليكِ معاتبًا
ومللتُ من صخبي عليك مُندِّدا

هذا التّجني لم تُطيقي حملَهُ
منّي، ولم تتوقّعي أن ينفُدا

أطلقتني وتبعتني وأريتني
مِلء الدّروبِ خيالكِ المتودِّدا

أنا عند ظنِّك سادرٌ في موطني
أسجي خُطايَ على ثراهُ مشرَّدا

وأغضُّ في طرفي حياءً كلما
عددتُ أعراسي عليه وعدّدا

أيامَ تستبقُ الرجالُ نداءَهُ

وأشقُّ موكبهم فتيًّا أمردا

وبناتُ كلِّ عجيبةٍ مجلوّةٍ

رصدًا على هضباتهِ متوعّدا

كم علّمتني أن تدوس جباهها

قدمي، وكم علّمتها أن تحقدا

لعبت ببردِ صبباتي بين جراحه

فالتفَّ حول ثخينهنَّ وضمَّدا

تأبى البنوّةُ أن أقول وهبتهُ

وتركتُ كلَّ هباتِ غيري حُسّدا

☆☆☆☆

أأمرُّ منهُ وصاحِباي كهولتي

والعنفوانُ ولا يمدُّ لنا يدا

أنا ما شكوتُ على اللقاءِ صدودَهُ

عنّي، متى صدَّ الكريمُ تعمُّدا

تلك الذوائبُ من لِداتي دونَهُ

رمحُ تكسّر، أو حسامٌ أُغمِدا

أخَذتْ بناصيتهِ أيدي عصبةٍ

كانت على سود الليالي هُجَّدا

جازَ الزمانُ بها حدودَ مُجونهِ

فأقام منها كلَّ عبدٍ سيّدا

تشقى العُلى إن قيل كانت جندها

ما كان للجبناءِ أن تتجنَّدا

نظرت إلى شرفِ الجهاد فراغَها

فسعتْ إلى تعهيرهِ فاستأسدا

من كلِّ منفض السبيلِ لقيطهِ

شاعت به الأحقاد أن تتجسَّدا

عقد الجفونَ بذيلِ كلِّ سماوةٍ

وأرادَ ملعبها كسيحًا مُقعدا

العاجز المقهور أقتلُ حيلةً

وأذلُّ مُنطلقًا وأنذلَ مقصِدا

نثر الخسيسَ من السلاحِ أمامَهُ

واختار منهُ أخسّهُ وتقلَّدا

وَحَبَا إلى حَرمِ الرجال ولم يذقْ

من قدسِ خمرتها، ولكن عربدا

وافتنَّ في تزييف ما هتفوا بهِ

وارتدَّ بالقيمِ الغوالي مُنشدا

البغيُ أروعَ ما يكون مُظفّرًا

إن سُلَّ باسم المكرماتِ مُهنّدا

لا يخدعنّكَ دمعهُ وانظر إلى

ما سالَ فوق أكفّهِ وتجمَّدا

لا تشرب الحُمّى دماءَ صريعِها

إلا وتكسو وجنتيه تورُّدا

وأزاحت الأيامُ عنه نقابهُ

فأطلّ مِسخًا بالضّلالِ مُزوَّدا

سكّينُهُ في شِدقهِ، ولعابُهُ

يجري على ذكر الفريسةِ مُزبِدا

ما كان هولاكو ولا أشباهُهُ

بأضلَّ أفئدةً، وأقسى أكْبُدا

هذي جماة عروسة الوادي على

كِبر الجِداد تُجيلُ طرفًا أرمدا

هذا صلاحُ الدين يُخفي جرحَهُ

عنها، ويسأل كيف جُرح أبي الفِدا

ثرواتُ دنيا الفتحِ هانت عنده

فأصابَ منها ما أقام وأقعدا

ما عفَّ عن قذفِ المعابدِ باللظى

فتناثرت حممًا وأجت موقدا

كم سُجدٍ لله فاجأهم، وما

كانوا لغيرِ الله يومًا سُجَّدا

☆☆☆☆

يا شامُ ما كذبَ العيانُ، وربما

شهقَ الخيال أمامه وتَردَّد

أرأيتِ كيف اغتيلَ جيشُكِ وانطوتْ

بالغدرِ رايةُ كل أروعَ أصيدا؟

وانفضَّ موكبِ كلِّ نسرٍ لو رأى

لِعلاكِ وردًا في النجوم لأوردا

مَن للبغايا من تراثٍ غاضبٍ

بالقدسِ من يسعى إليها مُنجدا؟

درجت عليها الغاشياتُ ولم تدعْ

منها بناءً للشمولِ مُشيَّدا

روَّتْ بـأقـداحِ المسيح غليلَها

ورمَتْ بها وهَوت تزيد المِزْوَدا

لمن الخيام على العراءِ تزاحمتْ

وكَستْ مناكِبَها وشاحًا أسودا

مرّتْ بها عبر السنين ولم تزلْ

نُصبًا على جرح الكرامةِ شُهّدا

شابتْ بناتُ اليُتمِ في أحضانها

ورجاوهنَّ كشملهنَّ تبدَّدا

ومن الخليج إلى المحيطِ عُمومةٌ

وخؤولةٌ طابتْ وعَزَتْ مَحْتِدا

وقفتْ تشدُّ على الجراحِ وكبرها

يرنو إلى الشرفِ الذَّبيحِ مُصفَّدا

والحاكمونَ الثأرَ راح مفرقًا

ما بينهمْ، والعارُ جاء موحّدا

كم ملعبٍ للتضحيات تواعدوا

أن يقطعوا شائكًا ومُعبَّدا

حتى إذا الخطبُ استمرَّ تواكلوا

وتَهالكوا فوق الأرائكِ أعبُدا

وتأنّقوا في سترِ ذلِّ خنوعهم

فجلوه نهجًا بالدّهاء مؤيّدا

أنا لم أكن يا شام أعرفُ فيهم النـ

ـندبَ العيوفَ، ولا النَّجيد المسعدا

تَرَفُ الحياةِ ذليلُهُ ورخيصُهُ

نادى على حرماتِهم أن توأدا

وَنَزا على أحلامهم فتهوّدت

وسَرى إلى سلطانِهم فَتهوَّدا

يا شامُ أوجع من وجُومِكِ زفرةً

واريتُها وأردتها أن تُخمدا

زَخَرت بما ادّخرت مناي إلى غدٍ

إني أخافُ على مصارعها غدا

لا يا عروس الدهرِ سفركِ ما رَوتْ

صفحاتِه إلا بعد العُلا والسُّؤددا

كم دون هيكلك الموشى بالسَّنا

مِن طامعٍ أردى وطاغٍ ألْحَدا؟

وكم انثنتْ عنكِ الخطوب حييّةً

ويداك ما انتهتا، وكِبرك ما ابتدا

جَمَدَتْ عيونُ الشرق من سهر على

ميعادِ وثبتكِ الجموحِ على العِدا

☆☆☆☆

يا غربتي كم ليلةٍ قَطَّعْتُها

نضو الهمومِ على يديك مُسَهَّدا

أطمعتني في كلِّ حلمٍ مُترفٍ

وضربت لي في كل أفقٍ موعدا

فوقفتُ أفنبل الرياحَ وما درتْ

من كان منّا العاصفُ المتمرّدا

ومضيتُ أنتعلُ الغمامَ وربما

أشفقتُ خدّ النجمِ أن يتجعَّدا

وأطلْت في التّيهِ المُشتّ تنقّلي
وحملتُ ما أبلاهُ فِيَّ وجَدّدا

ورجعتُ أستسقي السرابَ لسروةٍ
نسيتْ لياليها حكايات النّدى

فكأنما المجد الذي خلّدته
لم يكفني فأردتُ مجدًا أخلّدا

ما أكرمَ الوترَ الذي أسكتهُ
لأَجُرّ أنفاسي عليها تَنهُّدا

كم سلسلتْ فيه الشموخَ أناملي
ورمَتْ به سمعَ الزمان فَردّدا

خلعَ الفتونَ على الشجونِ وصانها
من أن تهونَ تفجّعًا وتَوجُّدا

أهفو إليه وما يزالُ غبارُهُ
متجَمّدًا في صدرهِ مُتلبِّدا

أفديهِ بالباقي من السَلوى إذا
أرجعتِهِ ذاك اليتيم المفُرَدا

هل كنتِ إلا درعَهُ وحسامَهُ
في حالتيهِ مُهدَّدًا ومُهَدَّدا

عودتهِ أن لا يُطأطئ هامَهُ
في عاصفاتِ نضالهِ فتعوَّدا

رُدّي إليه شموخَهُ وطموحَهُ
صعبٌ على الجبّار أن يُستعبدا

وختمت السيدة سعاد أبوريشة هذه المختارات من القصيدة بقولها: «بهذه الرائعة ودع الشاعر الكبير عمر أبوريشة سوريا.. وخص بها دمشق».

الشاعر أبوريشة ساعة وفاته

بكل تواضع أمام فداحة الفاجعة بفقد الشاعر الكبير عمر أبوريشة، انسالت من القلب الحزين هذه الأبيات، رأيتُ أن أثبتها هنا مع ما في هذه الإطلالة من ذكريات أليمة.

اليومَ تبدأُ عما كنتَهُ السِّيَرُ
وكلّنا لكَ عمّا كان معتذرُ

فاضحكْ علينا أو ارحمْ قِصرَ قامتِنا
فشأنُ كبرك أن يُعنى بمن صغروا

مثلَ النبيينَ عشتَ العمرَ مغتربًا
فَكَمْ هَدُونَا، وكم أُوذوا، وكم غفرَوا

أيُّ النوابغِ لم يظلمْ بأمّتهِ
أي النوابغُ لا يعطي، ويصطبر

عفوًا (أبا شافعٍ) ماذا أقول هنا
وطيفُ ذكراكَ يغشى كلَّ من (....)[1]

ماذا أقول وهل أحظى بقافيةٍ
عذراءَ إلا وسبَّاقٌ لها عُمَرُ!

من كل حاضرةٍ وافتْكَ كوكبةٌ
يشدُّها لك مما تشتهي أثرُ

قد أسرجوا شررًا قد كنت ترسِلُهُ
ما كان قبلكَ يومًا يُسرَجُ الشَّرر

أمَا أضأتَ لهمْ في ظُلْمةٍ قبسًا
أمَا استضاءت به والليلُ معتكرُ!

---

(١) كلمة غير موجودة في الأصل.

قد عشتَ عصرَك في إبداعه أبدًا
وأنت فيه بما أبدعته عصرُ

يا للمقادير من رحمانها اجتمعتْ
كما تجمَّعَ في نيسانهِ الزَّهَرُ

يا درّةً في زمانٍ ما به دررٌ
هيهاتَ ترخص مهما تكثر الدّررُ

في لوحةٍ تزدهي ألوانُ رابيةٍ
كما الربيعُ ببعض العطرِ يختصرُ

ما كنتَ يومًا فَرَاشًا غرَّهُ قبسٌ
فأمَّهُ وهْوَ يدري أن سيحتضرُ

على الأرائكِ تلقى الميتين، ومن
صمت القبورِ ترى الأحياءَ تنتشرُ

ومدّعين جديدًا ما به أثرٌ
لأيّ معنى، ولا روحٌ ولا فِكر

ظنوا الجديدَ اجتثاث الجذْرِ ويحهمو
لا يسمقُ الغصنُ إن لم ترووِ الجُذُرُ

ما كان أعظمَ ما أبدعتَ منفردًا
وما أضلّ وأخزى ما أتت زمرُ

فها أتيناكَ عما كان نعتذرُ
فاصفحْ فأنت أميرُ الصفحِ يا عُمَرُ

ولا تلُمْ أمّةً أشْفَقْتَ ترحمُها
يومًا ستأتيكَ عمّا كان تعتذرُ

مصطفى عكرمة

****

المحتوى

قطوف مختارة من شعر أبي ريشة

****



الكويت
2014